الموسوعة الإسلامية العربية

٦

أنور الجندي

أخطاء المنهج الغربي الوافد

في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب والاجتماع

الناشر

دار الكتاب اللبناني



Bibliotheca Alexandrina
0030256

أخطار المنهج الغربي الوافد

في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب والاجتماع

الموسوعة الإسلامية العربية

٦

أخطاء المنهج الغربي الوافد

في العقائد والتاريخ والحضارة واللغة والأدب والاجتماع

بقلم

أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر :

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

١٩٨٢

وقائع البحث وآفاقه

صفحة

مدخل : [أصول منهج البحث بين النظرية والتطبيق] . . . ٧

مقومات منهج البحث ٩

منهج البحث في الانسانيات ١٤

تجربة علم النفس وعلم الاجتماع ١٧

منهج البحث الغربي ليس عاماً ولا عالمياً ٢١

الباب الأول : الاخطاء في مجال العقائد والدين والفلسفة . . . ٣٩

الفصل الأول : الأخطاء في مجال العقائد ٤١

الفصل الثاني : الأخطاء في مقارنات الأديان ٧٣

الفصل الثالث : أخطاء الشريعة والسنة ٨٧

الفصل الرابع: أخطاء الفلسفة ١٠٩

١ ــ العلم والفلسفة ١٢٣

٢ ــ أخطاء الاعتزال ١٢٩

٣ ــ أخطاء التصوف ١٣٧

الباب الثاني : أخطاء التاريخ والحضارة ١٤٣

الفصل الأول : مفاهيم التاريخ ١٤٥

الفصل الثاني : علم الأجناس والقومية ١٨١

الفصل الثالث : مفاهيم الحضارة ٢٢٧

صفحة

الباب الثالث : أخطاء اللغة والأدب والفن ٢٥٣

الفصل الأول : مفاهيم اللغة ٢٥٥

الفصل الثاني : مفاهيم الأدب ٢٧٧

الفصل الثالث : مفاهيم الفن ٣٣٧

الباب الرابع : أخطاء مفاهيم الاجتماع والنفس والتربية . . . ٣٥٩

الفصل الأول : مفاهيم الاجتماع ٣٦١

الفصل الثاني : مفاهيم الأخلاق ٣٧٩

الفصل الثالث : مفاهيم النفس ٣٨٧

الفصل الرابع : مفاهيم الوجودية ٤٠٥

الفصل الخامس : مفاهيم التربية ٤١٣

الباب الخامس : أخطاء المنهج الغربي الوافد ٤٢١

الفصل الأول : أخطاء المنهج الغربي الوافد ٤٢٣

الفصل الثاني : وجوه التباين والاختلاف بين المناهج ٤٣٥

- ١ -

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

أصول منهج البحث بين النظرية والتطبيق

يطلق اسم « منهج البحث » في الغرب على ذلك الأسلوب المستحدث الذي يتخذ أساساً للبحث في مختلف قضايا الفكر والعلوم الطبيعية والرياضية والعلوم الانسانية (النفس والاجتماع والتاريخ) وقد تنقل الفكر الغربي بين منهجين من مناهج البحث . هما المنهج القائم على (الاستنباط) والمنهج القائم على (الاستقراء) . أما المنهج الأول فهو منهج أرسطو الذي يقوم على استخراج النتائج من مقدماتها القائمة . وهذا منهج قد نبذته أوربا منذ وقت بعيد . ومنذ وضع فرانسيس بيكون منهج (الاستقراء) القائم على التجربة .

ويقرر التاريخ أن هـذا المنهج الذي وضعه فرنسيس بيكون هو المنهج الاسلامي الذي قدمه المسلمون والذي نقله بيكون عنهم ، وأعلن ذلك رسمياً في أكثر من وثيقة ثابتة . فقد كان الفكر اليوناني يقوم على منهج الاستنباط المستمد من القياس المنطقي والحكم الذهني ، وهذا هو ما رفضه الفكر الاسلامي في فجر ظهوره . حيث التمس أسلوباً مغايراً قوامه الممارسة العملية والتجريب .

ومن خلال التمرس العملي أخذ الفكر يكشف قصور مذهب أرسطو الذي

لا يهتم بالتجربة . ولقد كانت التجربة هي أساس المنهج الاسلامي . ومن حيث كان الفكر اليوناني يرى أن العلم يبدأ بالكلي، وأن الجزئي ليس علماً، اتجه الفكر الاسلامي الى التجريب ، وبدأ من الجزئي حتى وصـل الى الكلي ، واتخذ التجارب وسيلة الى كشف الروابط بين الأشياء . وبذلك تحققت النظرة الموضوعية الى الظواهر الطبيعية والاجتماعية على السواء .

وتقررت تماماً حقيقة أساسية هي أخذ اليونان بالقياس ، وأخـذ المسلمين بالتجربة . وقد عرفت أوربا المنهج التجريبي الاسلامي بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة من كتابات علماء المسلمين واعتنقه من الأوربيين أولئك الذين تعلموه عن المسلمين .

وقد أعلن روجر بيكون أنه إنما تلقى هذا المنهج عن المسلمين . ويعد روجر بيكون الأمير الحقيقي للفكر الأوربي في القرن الثالث عشر ، لأنه أول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطي في أوربا وحمـل لواء الدعوة الى اصطناع منهج العرب .

وقد أوضح روجر بيكون قيمة المنهج العربي عندما قارن بين ثلاثة مناهج فقال : إن هناك طرقاً ثلاثة يمكن أن تؤدي الى المعرفة . وهي الأخذ بأقوال رجال الدين المسيحي اذا أمكن التحقق من صدقها بالعقل ، والاستدلال القياسي الذي مهما بدت نتائجه متحملة للصدق ، فلا قيمة له إلا اذا أمكن التحقق من صدق هذه النتائج بحسب الوقائع . وأخيراً تؤخذ التجربة . وهي تكفي نفسها بنفسها . فهي غير مشروطة بشرط ، ويريد بها التجربة العلمية على نحو ما بدأ العرب باستخدامها مع الاستعانة بالعلوم الرياضية .

* * *

وهكذا تحررت أوربا من منهـج الاستنباط الأرسطي اليوناني . والتمست منهج الاستقراء التجريبي الذي أخذه الفكر الغربي عن المسلمين .

- ٢ -

مقومات منهج البحث

ما هي مقومات منهج البحث القائم على التجربة : « منهج الاستقراء » ؟
يقوم هذا المنهج على قواعد عامة :

أولاً – اذا أراد الباحث الكشف عن القانون الذي تخضع له طائفة معينة من الظواهر بدأ بملاحظة هذه الطائفة ملاحظة دقيقة . أو أجرى عليها تجاربه متى كانت طبيعته تسمح بذلك . وينتهي ذلك عادة الى تكوين فكرة عامة عن النظام الذي تخضع له هذه الظواهر في وجودها وتطورها . وتأثير بعضها ببعض . ويشترط أن تكون الملاحظة والتجربة موضوعيتين[1] .

ثانياً – يجب أن تكون كل من الملاحظة والتجربة خلواً من الهوى . فلا يتأثر الباحث بعاطفة خلقية أو دينية أو وطنية . أو بوجهة نظر فلسفية سبق له اعتناقها حتى تكون رؤية ما يرى حقيقية لا رؤية ما يخيل أنه يراه[2] .

وليس معنى هذا أن يتجرد المرء من كل فكرة عقلية سابقة خاصة بالشيء الذي يلاحظه ، أو يجري عليه التجارب ، بل معناه أن

---

١ و ٢ – محمود محمد قاسم (المنطق الحديث ومناهج البحث) .

يكون حراً الى حد كبير تجـــاه أفكاره السابقة ، ومعلوماته التي تلقاها من غيره . فـــلا يتخذها عقيدة ، لا تقبل الجدل أو النقد أو التمحيص .

ثالثاً – يجب على الباحث أن يروض هواه ، وهذه المرونة جزء جوهري من حسن السياسة في العلوم ، كذلك يجب أن يتصف بقليـــل من الاعتزاز بالنفس و كثير من الاحتقار للغرور . واذا كان من العسير أن يوفق الباحث بين هذه (العواطف والآراء) وبـــين الحقائق التي تتعارض معها ، فلا بد من قهر عاطفته ، والتخلص من آرائه السابقة – مـــا أمكن ذلـــك – حتى يستطيع ملاحظة الأمور الانسانية الراهنة والماضية ملاحظة منزهة عن الهوى[1] .

رابعاً – لا بد للحقيقة العلمية أن تجيء مستقلة بقدر المستطاع عن قائلها . فلا يمازجها شيء من ميوله وأهوائه ونزعاته الذاتية ، وقيمه التي يقوم بها الأشياء من حيث خيرها أو شرها، وجمالها أو قبحها ، فليس لعـــالم النفس مثـــلاً حين يصف السلوك الانساني أن يقول عنه انه سلوك مستحب أو مستهجن . وليس للباحث العلمي أن يختار من الشواهد لبحثه ما يخدم رغبة في نفسه . أو ما يحقق له مثلاً على ما يتمناه ، بل العالم الحق هو من ينظر الى الواقع الخارجي المبحوث نظرة منزهة عن كل هذه الجوانب الذاتية .

فالعلم يحصر نفسه فيما هو موضوعي عام ، وليس له أدنى شأن بما هو ذاتي خاص، وتعريف الموضوعي هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين مهما اختلفت الزاوية التي يشاهدون منها[2] .

---

١ – دكتور محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث .

٢ – دكتور زكي نجيب محمود : المنطق الوضعي .

خامساً - إن لكل موضوع طريقته العلمية التي تستمد من طبيعته ، فللعلم التجريبي منهجه . ولعلوم الانسانيات منهجها الخاص بها . فهناك منهج البحث في الرياضة . ومنهج البحث في العلوم . وهما يختلفان عن منهج العلوم الانسانية : كالأدب واللغة والتاريخ والاجتماع .

وإن اختلاف المناهج تبع لاختلاف العلوم والأبحاث[1] . وإن العلوم الاجتماعية بالذات ليست كحقائق العلوم الطبيعية . ذات طبيعة مطلقة[2] . وان كل العلوم الانسانية ترتبط بالبيئة ، وتتأثر بالتاريخ .

وان مفهوم المنهج العلمي الحديث : أنه علم قائم على قوانين عامة . منها التجربة والبحث والدليل والوثيقة . وتتمثل أصول البحث العلمي في الموضوعية ، وعدم ارتجال الأحكام . وحسن الاستدلال ، والتجرد من الهوى والميل الذاتيين النفعيين ، والتحرر من كل سلطان سوى سلطان الحقيقة .

وقد أطلق على منهج البحث اسم المنهج العلمي لقيامه على أصول علمية ومقررات موضوعية ، ولعدم ارتباطه بالأهواء والأوهام والظنون . ومعنى العلمية على الجملة هو قيام البرهان والنص الموثق .

* * *

في ضوء هذه الحقائق التي تمثل أصول المنهج العلمي للبحث نستطيع أن نحكم على ما بين أيدينا من ثمرات الفكر الغربي لنرى ، هل حقيقة ، قام هذا الفكر وأجريت هذه الأبحاث على ضوء المنهجية والموضوعية . وأنها تحررت تماماً من سلطان الهوى ، والفرض والميل الذاتي والنفع الخاص .

إن مراجعة ما حمل الى اللغة العربية والفكر الاسلامي والثقافة العربية مما

١ - دكتور عبد الرحمن بدوي .

٢ - دكتور أحمد خليفة : منهج البحث .

أطلق عليه المنهج العلمي الوافد ، وثماره في الأدب والتاريخ والاجتماع والعقائد . تكشف بوضوح عن أن معطيات الفكر الغربي لم تطابق أصول هذا المنهج مطابقة كاملة . وإن كانت هناك أبحاث قامت على أساس صحيح ، ولكن أغلب الأبحاث التي نقلت إلينا خالفت هذه الأصول وانحرفت عنها . وأخطر النقط التي اختلفت فيها ثمرات الأبحاث عن أصول مناهج البحث كانت تلك التي سيطر عليها خطر تطبيق منهج العلوم الطبيعية والرياضية على المفاهيم الانسانية ، وهذه ظاهرة جديدة في الفكر الغربي اتسع نطاقها بعد أن استشرت الفلسفة المادية وسيطرت على مختلف الميادين ، وتمثلت في مدرسة العلوم الاجتماعية التي حاولت أن تخضع دراسات الانسان للمنهج التجريبي المطبق في مجالات العلوم المادية .

ولقد كشف البحث العلمي عن حقيقة لا محيص عنها ، هي أن منهج العلوم التجريبية لا يصلح للتطبيق في مجال الدراسات الانسانية . وهي نفس الحقيقة التي ترتبط بمفهوم أن العلوم التجريبية عامة عالمية مِلْكٌ للأمم جميعاً . بينما العلوم الانسانية مرتبطة بذاتية الأمة وخصائصها الاجتماعية والفكرية التي كونتها الثقافات والعقائد .

ومن حيث ان لكل بحث منهجاً علمياً . فإن المنهج العلمي للانسانيات ليس هو نفس منهج العلوم التجريبية . وقد أصبح مقرراً هذا الفصل الكامل بين المنهجين : —

يقول الدكتور أحمد خليفة : «إن العلوم الاجتماعية تختلف نوعاً عن الكيمياء والطبيعة في أنها لا تعمل تحت قوانين حاسمة تخضع للتجربة الدقيقة في المختبرات . بل إنها تتناول نحواً فريداً يعتمد على عوامل ليست كلها قابلة للعزل التجريبي . وان التجربة العلمية في المجتمع في ذاتها نوع من التصرف الانساني له صبغته الشخصية البعيدة عن الموضوعية التي يتطلبها العلم » وقد ارتفع صوت العلماء بالقول بأن « علينا أن نحذر من اعتبار الظاهرة الاجتماعية كالظاهرة الطبيعية خاضعة تماماً لنفس قواعد المنهج بغير تقدير لطبيعتها الخاصة » وبأن « المجتمع

ليس علماً محضاً . بل يعيش أيضاً بالانسانيات غـــير العلمية كالدين والأخلاق والفلسفة بكل ما يلابسها من القيم والمثل. والآمال والانفعالات »[1] . ولما كان لهذه الظاهرة أهميتها الأساسية ، فقد تناولناها بالبحث في فصل مستقل .

ويرجع الالحاح على دراسة الانسان وفق مناهج البحث التجريبي المطبقة على الظواهر المادية الى أن الفلسفة المادية تعتبر الانسان « شيئاً مادياً » محضاً . وذلك وجه من أوجه الخلاف الكبرى بين المنهج العلمي الوافد . وبـــين المنهج العلمي الاسلامي . ومن العسير أن يكون مقبولاً أو معترفاً بـــه في الفكر الاسلامي . حيث هو في الفكر الغربي نفسه صريـع مذهبين ومدرستين . فكيف يمكن أن يتقبله الفكر الاسلامي الذي يعتبر الانسان كياناً مادياً وروحياً معاً .

---

١ - دكتور أحمد خليفة : منهج البحث .

- ٣ -

منهج البحث في الإنسانيات

إن الخلاف بين الفكر الغربي والفكر الاسلامي حول منهج البحث في الانسانيات من أعمق العوامل التي تجعلنا ننظر بحذر الى المنهج العلمي الوافد. ونتعامل معه في حيطة بالغة نظراً الى الفوارق البعيدة التي تفرضها النظرة الغربية التي تحاول أن تعامل الانسان وقضاياه على النحو الذي تعامل به موضوعات العلم المادي .

ويعرض الدكتور توفيق الطويل لهذه القضية الفاصلة بين الفكرين على نحو مستفيض وعميق فيقول : « إن طبيعة موضوعات (العلوم والانسانيات) مختلفة متباينة . ومن ثم لزم أن تختلف المناهج التي تعالجها كما تختلف القوانين التي تنتهي اليها ، فقوانين العلوم الطبيعية دقيقة وعامة ، ولا تتقيد بزمان ولا مكان . أما العلوم الانسانية فتعوزها الدقة ولا يمكن جعلها عامة غير مقيدة بظروفها وأحوالها كما انه لا يمكن أن تبرأ من الحالات الاستثنائية »[1] .

ومن هنا فهي غير صالحة للعلوم الانسانية : ذلك أن العلوم الانسانية تحكمها عوامل أخرى تحول دون اصطناع المناهج التجريبية .

أولاً – إن حرية الإرادة البشرية تتدخل في الظواهر الانسانية وتتكفل بتغيير مجراها تغييراً قد يجعل من العسير اخضاعها لقانون علمي ثابت ، ومن

---

١ – عن بحث الدكتور توفيق الطويل بتصرف (أسس الفلسفة) .

هذا تيسر التنبؤ العلمي في مجال العلوم الطبيعية ، بمعنى أن تتكهن بالمعلومات متى أدركت عللها . وهذا غير ميسور في العلوم الانسانية على وجه الدقة . لأن سير ظواهره يمكن أن يغير مجراه بتدخل الإرادة البشرية ، وأحكام الناس تتأثر كثيراً بعوامل لا تتمشى مع منطق العقل . فتفسد على العقل ما كان يتوقعه .

ثانياً – إن التجربة تلعب دوراً رئيسياً في كشف القوانين الطبيعية . بينما يتعذر إجراء التجارب في مجال العلوم الانسانية إلا في نطاق ضيق محدود ، بحيث لا يكون من المعقول إقامة منهج البحث على أساسها .

ثالثاً – إن القوانين الطبيعية عامة صادقة في كل زمان ومكان ، أما مقررات العلوم الانسانية فتشير على عكس هذه القوانين الى ظروف شخصية تاريخية .

رابعاً – إن قوانين العلوم الانسانية (المزعومة) ليست موضوعية خالصة ، إذ أن الباحث في هذه المجالات لا يستطيع[1] أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه . وهو ينظر الى موضوعه الذي يتصل حتماً بالانسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليد وطنه ونحو هذا من عوامل تؤثر على نزاهته ، وتجعل بحثه ذاتياً أو متأثراً بالعوامل الذاتية ، على عكس الحال في العلوم الطبيعية ، فإن تحرر الباحث من الميل والهوى ميسور عند علاج موضوعاتها ومن هنا كان البحث العلمي موضوعياً وليس ذاتياً .

---

١ – إن المراجعة الصحيحة لمنهج العلوم الانسانية الذي يفترض محاكمتها الى المنهج التجريبي والعلم المادي وإطلاق ذلك على علوم النفس والاجتماع والأخلاق ، لم يقل به إلا جماعة الفلاسفة اليهود : ماركس ، فرويد ، ليفي بريل ، دوركايم . وقد كشفت الوثائق التي ظهرت أخيراً بعد (بروتوكولات صهيون) . بالترابط العميق بين هذه النظرة وبين المخططات التلمودية (اقرأ في علم النفس . كتاب التراث اليهودي الفرويدي) للدكتور صبري سلامة .

خامساً – إن الدقة في قوانين العلوم الطبيعية: مرجعها الى صورتها الرياضية، لأن من الميسور أن تقاس مقاديرها بالكمية، أما العلوم الانسانية فيتعذر اخضاع موضوعاتها لهذا الضبط الكمي ويستحيل تصويرها بالمعادلات الرياضية الدقيقة. مما أدى ببعض العلماء الباحثين بالعلوم الانسانية الى القول بأن قوانين علومهم لا تكون قط عامة. لأنها لا تخلو من الحالات الاستثنائية التي لا تدخل في طبيعتها (فيلكس كيفمان) .

تجربة علمي النفس والاجتماع

وقد عرض الباحثون لتجربة علم النفس والاجتماع مـع المنهج التجريبي ، وأشاروا الى المراحل التي قطعها العلمان في سبيل التشبه بالعلوم الطبيعية، وكيف أنه بالرغم من الأشواط الطويلة في هذا المجال فإنهما[1] « ما زالا يفتقران بحكم الموضوعات التي يعالجانها لبعض الخصائص التي تميز العلم بمعناه الضيق ، لأن العلم لا يستقيم بغير جبرية تجعل ظواهره ضرورية محتومة الوقوع ، وليست ممكنة تقع مصادفة واتفاقاً » .

ولما كانت الظاهرة الطبيعية تجري على نسق واحد ، فإنها تيسر لعالم الطبيعة أن يحدد سرعة سقوط الأجسام بمبادلات رياضية دقيقة . ويبدو أن الظواهر الانسانية لا تجري على هذا الغرار تماماً ، وأن الظاهرة النفسية غير الظاهرة الطبيعية ، تستثيرها وتتدخل في توجيهها عوامل كثيرة متشابكة ، يرتد بعضها الى حرية الفرد وخبراته والى الثقافة والاجتماع بوجه عام ، ويرجع بعضها الى البيئة التي تكتنفه وتؤثر فيه وتوجهه . وهـذه العوامل من التداخل والتشابك بحيث يصعب حصرها ، وتحديد نصيب كل منها في توجيه الظاهرة التي يدرسها ، وتكفي حرية الفرد بتدخلها في مجرى الظاهرة، مانعاً للتنبؤ بوقوعها، أو اطراد حدوثها على نسق واحد ، فيتعذر بها وضع قانون عام له دقة القوانين الطبيعية .

إن الظاهرة النفسية أصلاً ذاتية . وليست موضوعية ، إنهـا تتصل بباطن

---

١ - نفس المصدر السابق .

النفس منعزلة أو مجتمعة بغيرهـــا ، فهي تتعرض لتدخل الإرادة البشرية التي تستطيع في كثير من المجالات تغيير مجراها فيتعذر التنبؤ بوقوعها على وجـــه دقيق . وتنتفي « الجبرية » التي هي طابع العلم وروحه .

إن الشعور بالفقر والحرمان والاخفاق قد يسلم صاحبه الى اليأس من الحياة أو الانتحار هرباً من مواجهتها ، وقد يؤدي الشعور نفسه عنـد فرد آخر الى التمسك بالأمل ومضاعفة العمـل لتغيير الظروف الكئيبة التي تكتنفه ، ومرد الأمر في الحـالين الى اختلاف هذين الفردين في مدى حظهما من سداد الفكر ، وسلامة الجسم وسعة الثقافة ، ونوع التربية ، وسائر المقومات الشخصية . وقريب من هذا يمكن أن يقال عن الظاهرة الاجتماعية ، إنها لا تخضع لمثـل الجبرية التي تخضع لها الظواهر الطبيعية . فالفقر ظاهرة اجتماعية قد تفرض على أفراد أحد المجتمعات الإقبال على الانتحار . بينما يتوافر هذا الفقر في بيئة أخرى تكاد تخلو من ظاهرة الانتحار . بل إن الفقر يختلف تأثيره في أفراد البيئة الواحدة ، يدفع أحدهم الى الإجرام بينما يدفع آخر الى الصلاح إيماناً بما قدر له الله من حظ ، أو استجابة لنوع سليم من التربية يؤدي الى الترحيب بمواجهة التبعات .

« فالظاهرة الاجتماعية معقدة أشد التعقيد ، ولا تضطرد على غرار واحد »

« يرى الاجتماعيون أن البطل في كل صورة مجرد معبر عن روح العصر الذي عاش فيه ، ولكنهم يفسرون ظهوره بأنه سبق معاصريه الى معرفة الطريق الذي يسلم الى تقدم مجتمعه . والأمر يبدو على غير هذا الوجه ، فالفرد متى كان زعيماً أو بطلاً أو مصلحاً له أثره الملحوظ في خلق ظواهر اجتماعية ما كان يمكن أن يكون لها وجود بغير ظهوره . وما دامت الظواهر الاجتماعية لا تجري على نسق واحد دائمـاً فإنه من المتعذر وضع قانون عام لتفسيرها .

وجمـــلة القول : إن « الظاهرة الانسانية نفسية واجتماعية » تختلف عن « الظاهرة الطبيعية » وهـــذا الفرق « هو أكبر العوامل التي تعوق العـلوم

الانسانية عن التقدم في وضع قوانين عامة تشبه في دقتها وصرامتها قوانين العلوم الطبيعية »[١] .

والظاهرة الاجتماعية : معقدة شديدة التعقيد ، ويبدو أنهـا لا تضطرد على غرار واحد . ومن هنا يكون : خطأ الظن بأن النـــاس كالقطيع الواحد في استجاباتهم، ونكران فضل النخبة والزعمـاء والمتفوقين . ويرى الاجتماعيون أن البطل في كل صورة بجرد معبر عن روح العصر فيه ، ولكن الواقع « أن الفرد متى كان زعيماً أو مصلحاً أو بطلاً له أثره الملحوظ في خلق ظواهر اجتماعية ما كان يمكن أن يكون لها وجود بغير ظهوره . وما دامت الظواهر الاجتماعية لا تجري على نسق واحد دواماً . فإنه من المتعذر وضع قانون عام لتفسيرها » .

وجمـــلة القول ان قوانين العلوم الطبيعية : تعتبر اليوم قوانين احتمالية أو ترجيحية ، أما قوانين الرياضة فهي وحدها القوانين التقيينية ، أما قوانين العلوم الانسانية فلا توصف بأنها قوانين بالمعنى الدقيق ، وإنما هي مجرد تعميمات يكثر فيها الاستثناء ، ولا تخلو من كثير من التعسف ، وهذا مـا يجعل الفرق شاسعاً بينها وبين القوانين العامة التي تبرأ من كل استثناء .

١ ـ نفس المصدر السابق .

- ٢ -

ولا ريب أن هذا هو أخطر خلاف جذري بين منهج البحث الاسلامي وبين منهج البحث الغربي . ومن هنا كان اتجاه الفكر الاسلامي الى التماس منهج خاص لدراسة مفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق أقرب الى العلم والفطرة من ذلك الاتجاه المادي . يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : انه اذا كان العلم قد اكتشف سنن الله الفطرية في المادة ، فإن عليه أن يهتدي الى سنن الله في الانسان وفي المجتمع ، لقد تحقق الكشف عن سنن الفطرة في المادة وبقي أن تكتشف سنن الفطرة في الروح ، روح الفرد وروح الجماعة . وان كتاب الله فاطر الفطرة يخبر بما جهلته الفلسفة . ولم يدركه العلم . ويقول : ان الاتجاه الى منهج البحث المادّي في التماس مفهوم الانسان وما يتصل به من مفاهيم سوف لا يؤدي إلا إلى التمزق والضياع . وان لمفاهيم الانسانيات منهجاً آخر لا يقوم على المفهوم المادي وحده . ولكنه يعتمد أساساً على الوحي والكتاب ورسالات الأنبياء والإيمان بالله والبعث وعالم الغيب .

- ٤ -

« منهج البحث الغربي » ليس عاماً ولا عالمياً

هناك محاولة من أتباع الفكر الغربي تستهدف الى تقرير فكرة أن منهج البحث العلمي الغربي ، هو منهج عام يصلح للتطبيق على الفكر العالمي كله . وقد تقرر هذا الافتراض على أساس أن الحضارة الغربية تسيطر على العالم كله ، وأن الفكر الغربي بعالميته يستطيع أن يحتوي الفكر البشري كله . ومن الحق أن منهج البحث الغربي ليس له الصلاحية الحقيقة ليكون عاماً أو عالميـاً لأسباب كثيرة تحول بينه وبين ذلك . وأنه في أصوله ومقرراته الأساسية يختلف اختلافاً جذرياً عن منهج البحث الاسلامي ولا يلتقي معه كما أنه يختلف اختلافاً أساسياً مع القيم الانسانية التي تقوم على الفطرة والإيمان بالوحدة البشرية .

أولاً – الاستعلاء بالعنصر . ذلك أن هذا المذهب يصدر عن روح الغرب ، التي تمثل الاستعلاء بالجنس والنظر الى الشعوب غير البيضاء ، وشعوب إفريقيا وآسيا نظرة لا توازي النظرة الى أوربا والجنس الأبيض . وهي نظرة تقوم على تاريخ أوربا ، والتي تعتقد – عن غير حق من التاريخ أو المنهج العلمي الأصيل – بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية وليدة الحضارة الاغريقية ، وهي نظرة متعصبة ترى ظلماً أن الحضارة الاسلامية كانت جزءاً منها . ومن خلال نظرة التفوق العنصري والسيطرة الاستعمارية على العالم الاسلامي تصطبغ النظرة الى هذا العالم الاسلامي وفكره بصبغة فيها شيء غير قليل من الانتقاص. ذلك أن التفوق الغربي الذي كفل له السيطرة على عالم الاسلام قد أراد أن يبرر

نفسه بالاستعمار والبقاء بمحاولة لغض قيم الاسلام التي يدين بها العالم الاسلامي من أجل القول بأحقيته في حمل رسالة تمدين الشعوب ، ومن هنا كانت تلك الفلسفة الاستعمارية التي طرحها الغرب في مجال الحضارة والفكر بالقول بأن الاسلام هو مصدر تأخير المسلمين والعرب . أو القول بأن تخلف بعض الأمم ناتج عن خصائص تتصل بالجنس أو الدم أو العرق . وهذه كلها ليست إلا « افتراضات » دفعت إليها محاولة تبرير الاستعمار . ولم تصدق أمام النظرة العلمية الأصيلة . ومن هذا أيضاً الادعاء بأن العصور الوسطى كانت عصوراً مظلمة في العالم كله . بينما كانت في الحقيقة عصوراً مظلمة بالنسبة لأوربا . وعصوراً مضيئة في آسيا وأفريقيا . وحيث امتد الاسلام خلال ألف عام .

ولا ريب أن هذا المفهوم الغربي كان منطلقاً لمنهج البحث العلمي الغربي في كل مقرراته التاريخية والاجتماعية والحضارية . ومن هنا فقد عجز أن يكون منهجاً إنسانياً أو عالمياً صالحاً للتطبيق على مختلف الحضارات والثقافات .

ثانياً – النظرة التي يحكمها الدين أو السياسة : ونحن حين ننظر في مناهج البحث في مجال الأدب أو التاريخ أو الحضارة أو الاجتماع بفروعه (النفس والأخلاق والمجتمع) نجد أن هذا النتاج المطروح لم تحكمه روح البحث العلمي الأصيلة إلا في القليل منه .

فالكتاب الغربيون على وجه العموم تحكمهم عقدة التفوق التي تجعلهم ينظرون الى البشرية . فيرون أن الجنس الأبيض أكثر تقدماً بحكم طبيعته . وأن الأوربيين مقدمون على الشعوب بل وممدنون لها أيضاً ، من هنا فهم يصدرون في كل ما يكتبون عن هذا الاتجاه . وهو اتجاه غير صادق أصلاً ، وله أثره في تزييف الحقيقة والانحراف بها . ومن هنا فإن المؤرخين من أمثال (توينبي) تحكمهم نزعة الاستعلاء بأوربا وحضارتها وسيطرتها على العالم الثالث ، كما تحكمهم فكرة إعلاء العقيدة الدينية التي يؤمنون بها في مواجهة الأديان الأخرى .

ومن هنا فإن حكمهم على الأمم الشرقية فيه شيء غير قليل من الانحراف . وكذلك حكمهم على الأديان .

ومثل هذا يبرز في اتجاه كاتب أو مؤرخ مثل لودفنج، أو شبنجلر. فإن غلبة الإيمان بالعنصرية اليهودية تؤثر تأثيراً كبيراً في حكمه على الاسلام وعلى العرب . ويتجلى هذا واضحاً في كتابات ماركس . ورودنسون . وجاك بيرك ، اتصالاً بمذهب أو آخر من مذاهب التفسير المـــادي للتاريخ أو المدرسة الاجتماعية الفرنسية فهو يكون رأيهم في الاسلام وفي العرب وفي حضارتهم وتاريخهم .

★ ★ ★

وفي مجال الاستشراق يبدو الموقف أشد تعقيداً – فالمستشرقون المسيحيون . اما متصلون بدوائر الكنيسة أو دوائر الاستعمار . فالأولون يخضعون لوجهة النظر المسيحية الغربية التي يكون لهـــا اثرها وتحدياتها في مواجهة الفكر الاسلامي والقرآن .

أما الآخرون فإن اتصالهم بدوائر الاستعمار يحـــكم موقفهم بالنسبة للعرب وحضارتهم ولغتهم وهكذا . وهناك مستشرقون يهود لهـــم أمانتهم للتلمود وبروتوكولات صهيون ولكل فكر يرتبط بإسرائيل ونبوءة الميعـــاد . ومن هنا فإن ذلك يؤثر في مفهومهم عن العروبة والقرآن ورسالة الاسلام مما يتعارض تعارضاً كاملاً مع مفاهيم الفكر الاسلامي . وتستطيع أن تقسم الكتاب الغربيين الى : أوربيين يستعلون بالجنس الأبيض والحضارة الحديثة على الملونين ومنهم العرب والمسلمون، أو مسيحيين تابعين للكنيسة أو دوائر الاستعمار الغربي أو يهود يدينون للتلمود والبروتوكولات .

ومن هنا فإن أحكام كتاب الغرب في الأغلب كلها لا تستطيع أن تحتفظ بأمانتها لأصول المنهج العلمي في البحث دون أن تتـــأثر بالأهواء أو العنصر أو الدين أو الاستعلاء الحضاري .

والكتاب الغربيون في الغالب يعملون في مجالين : (أولاً) مجال الدراسات الانسانية . (ثانياً) مجال التاريخ العام والدراسات الاسلامية .

أما المجال الأول : مجال الدراسات الانسانية . وهو مجال عام . فإن منهج البحث فيه يتأثر بالنظرية التي تحاول أن تحاكم الدراسات الانسانية الى منهج التجريب المادي . وذلك أخطر مقاتل هذه الدراسات .

أما المجال الثاني : فإنه في دراسات التاريخ العام تحكمه نظرية اعتبار تاريخ أوربا هو تاريخ العالم . وأن الجنس الأبيض سيد الأجناس .

أما في مجال الدراسات الاسلامية فإن الأمر يختلف تماماً . وتسيطر عليه روح أخرى من التعصب والهوى والانحراف بحيث لا يمكن إخضاعه لروح البحث العلمي الصحيح . ذلك أن العاملين في هذا المجال وأغلبهم من المستشرقين هم بحكم عملهم مرتبطون بمؤسسة الكنيسة أو بمؤسسة الاستعمار . أما القلة القليلة من الباحثين في تاريخ الاسلام بإنصاف من أمثال (توماس كارليل ، وجوستاف لوبون ، وسيجريد هونكه) فإنهم في الغالب تنقصهم القدرة على اكتناه بلاغة القرآن ، أو فهم روح الاسلام نتيجة ارتباطهم بمفاهيم دينهم ولغاتهم وفكرهم وميراثهم الطويل الممتد الى الفلسفة اليونانية . وهذا ما يجعل نظرتهم الى الفكر الاسلامي قاصرة كليلة ، ويجعل كتاباتهم تحتاج الى تصحيح وتصويب .

وأغلب أخطاء هؤلاء تتصل بالنظرة الى الوحي والنبوة والألوهية ، وربانية المصدر القرآني مما يختلف تماماً عن مفاهيم الفكر اللاهوتي الغربي التي تعرف أن الانجيل هو من كتابات الرسل . وأن هناك اختلاطاً بين الألوهية والنبوة ، الى غير ذلك .

ثالثاً – مذهب الشك : من أخطر المذاهب التي اعتنقها المنهج العلمي الغربي في البحث : مذهب الشك على النحو الذي أقامه من خلال المفهوم المادي الخالص . أو مفهوم التوقف به عند (اللاأدرية) الغامضة . فقد كان للمذهب

المادي أثره في ظهور موجة الشك وتفشيها في الفكر الغربي كله، ومذهب الشك يتصل بالفكر اذا أسقط من حسابه عامل الدين ، وهو ميراث قـديم للفكر اليوناني ، جاء نتيجة إعلاء شأن العقل وحده ، مع عجز العقل عن أن يقول الكلمة الأخيرة في أدق الأمور وأخطرها أثراً في النفس الانسانية . ومن هنا ظهر طابع التردد والحيرة .

ويروي فيدون زعيم الشكاك اليوناني (٣٦٥ ق. م) أنه ليس هنـاك قبول أو رفض قاطع في أمر من الأمور فهـو يعلن الحكم ويرى أن الأشياء مظاهر لا يدري حقائقها . ومن هنا فهو يدعو الى الوقوف على الحياد دون مبالاة بشيء ، ويعرف الجرجاني الشك بأنه التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر (وذلك هو اللاأدرية عند فيدون) ، وقيل الشك ما استوى فيه الطرفان . ويقول الجويني : الشك ما استوى فيه اعتقادان . ومن ثم فهناك ثلاث حالات : اللاأدرية ، وتعليق الحـكم ، والطمأنينة . والفكر الاسلامي يقوم على اليقين والإيمان والطمأنينة فلا يعلق الحكم ولا يقول باللاأدرية ، لأنه يدري وقد رسم له القرآن منهجاً كاملاً للميتافيزقيا (عالم الغيب) يثق به ثقة كاملة . ويؤمن به إيماناً عميقاً . ومن ثم فهو لا يتعرض لأزمة الشك أو اللاأدرية .

ولا ريب أن منهج الشك أو اللاأدرية أو تعليق الحكم وعدم المبالاة ، ليس من مذاهب الإيجاب والثقـة . وهو من عوامل الهدم والتحطيم للشخصية الانسانية وللحياة ، ولا ريب أن اللاأدرية تحول دون التقدم والبناء والسعي الى الكمال . فهي ظاهرة من ظواهر التوقف والتخلف .

ولا ريب أن السكون هو الموت ، ولا بد للانسان أن يختار موقفاً وأن يحسم أمره .

وقد ورث الفكر الغربي ظاهرة الشك واللاأدرية من الفكر اليوناني على هذا النحو الذي يعلق الأشياء ولا يحكم فيها ، وهو مفهوم يختلف عن مفهوم الشك في سبيل الوصول الى الحقيقة والكشف عن قوانين العلوم . وتنبعث ظاهرة الشك

واللاأدرية* من الوقوف عند انتظار الدليل الذي يقدمه العقل البشري ، دون تقدير لحجم العقل ومهمته ومجال قدرته الحقيقي ، وتجاهل الحقيقة المقررة ، التي تقول ان العقل ليس وحده أداة المعرفة . وانه ربما كان أداة صالحة في مجال التجريب . ولكنه يحتاج الى ضوء يسير في هداه اذا ما حاول البحث في مجال الغيب . وهذا الضوء هو الوحي .

فالإيمان بالله في دائرة الدين الحق ، تكفل تقديم منهج المعرفة الكامل الذي يكون العقل فيه واحداً من أدوات كثيرة تكفل تحقيق اليقين . وليس كل ما في الحياة يمكن أن يدرس عن طريق العقل أو الحواس ، وهناك قيم أساسية في الحياة لا يستطيع العقل أن يكشف عن دليلها وأن يبرهن عليه .

وان المذهب المادي وحده يعجز عن تفسير الوجود . وكذلك المذهب الروحي وحده لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة ، ولكن المنهج المتكامل الذي رسمه القرآن رابطاً بين العقل والحواس والوحي والنظر في الكون والتفكر والتدبر ، كل هذه العوامل مجتمعة . هي أساس المنهج الذي يحقق اليقين ويدفع الانسان في الحياة قادراً على الحركة والبناء . ويصدق في هذا القول بأن الانسان عاجز بمفرده عن تحقيق اليقين والإيمان واصدار الحكم السليم . وانه في حاجة الى وحي علوي ليصل الى المعرفة بوجود الله . ويحجب هذه المعرفة كثير من الاعتقادات المضللة . ومنها فكرة وحدة الوجود التي تقول بأن الله والعالم شيء واحد ، وهي فكرة مادية الأصل ، ومفهوم الاسلام أن الله سبحانه مستقل عن الكون ، خالق له ، متصرف فيه ، يمسكه لحظة بعد أخرى .

- ٢ -

ولقد وسع موجة الشك في الفكر الغربي ما ذهب اليه الداروניون والتطوريون والفرويديون من أن الانسان حيوان تنطبق عليه النظريات والتجارب التي أجريت على الحيوان . وقد بلغ الشك غايته عند ما أعلن فرويد أن الانسان يتصرف من خلال غريزته . وأن الجنس هو العامل الأول الموجه له . ولو أن هذه النظرية قد دحضت وزيفها زمـلاء فرويد نفسه . ولكنها استطارت في أجواء الفكر وخضعت لها مناهج الأدب والنفس والاخلاق والاجتماع . وكذلك كان للمدرسة الاجتماعية أثرها في ارتفاع موجة الشك وتوسعها ، فقد أنكرت مسؤولية الفرد ومكانته . وأقامت قواعدها على أساس أن الجماعة وحدها هي مصدر القيم .

والتفسير المادي للتاريخ في مجال السياسة والاقتصاد كان بعيد الأثر أيضاً في إعلاء شأن الشك ، فقد أقام تفسيرات الحياة على أساس الإنتاج والمادة ، وأنكر المثل العليا والقيم الدينية والروحية . وأقام أساس الصراع في الحياة على المنافسة في المادة واحتكارها . وتتمثل هذه التحديات كلها في مفهوم واحد هو : محاولة خلق إحساس نفسي وفكري بأن الإنسان محكوم بجبرية قاسية ، وأن الانسان مسيّر أمام جملة من العوامل لا فكاك له منها . وأن إرادته ليست منطلقة على النحو الذي يجعله مسؤولاً ومحاسباً على تصرفاته .

ولا ريب أن هذا الأثر العميق الدفين الذي تحاول أن تفرضه على الفكر

الغربي وعلى الذهن البشري نظريات الفلسفة المادية . والفرويدية ، والماركسية ، إنما يستمد أساسه من الأيدلوجية التلمودية . وهذا المفهوم يختلف اختلافاً أساسياً وجذرياً عن مفهوم الفكر الاسلامي الذي يقرر أن الانسان حُرّ الإرادة ، وأنه مسؤول مسؤولية كاملة عن عمله وتصرفه ، فضلاً عن أحكام الرابطة التي يقررها الاسلام بين العقيدة والسلوك ، وهو ما سعى علم النفس الى تمزيقها والمباعدة بين شطريها .

وحيث يجعل الإسلام من القيم الأساسية أصولاً ثابتة ، ويقيم مثلاً أعلى مستقراً ، ويجعل من الأخلاق ركائز ثابتة مرتبطة بالانسان لا تتغير مع اختلاف البيئات والعصور ، تجيء مناهج علم النفس ومناهج العلوم الاجتماعية ، فتحاول أن تشكك في ذلك كله وأن تحطمه .

يقول الاستاذ أحمد خاكي : لما طغى علم النفس طافت بالنفوس الشكوك . ومن العبث أن نهتدي بعلم النفس في سيرنا الى المثل الأعلى . فعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع وبما يشينها من العقل الباطن غير المفكر ، وكان حقيقاً بأن يدفع العالم الى الشك . وأن يزعزع إيمان الناس في سمو المثل الأعلى . ويقول « حينما أبديت أصول علم النفس بما حملته من مباحث التحليل النفسي وما تضمنته من وصف نفسية الجماعة . وما فرقت به بين العقل الواعي والعقل الباطن ، تطرق الشك الى قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها فيما مضى ، ووصل العلماء الى أن الفكرة شيء ، والعمل شيء آخر . ويرجع ذلك الى أن علم النفس الحديث يرى أن الانسان مسيّر أمام جملة من العوامل التي لا يحكمها العقل . بل هي مؤثرات ودوافع تدفع الانسان الى أعمال أكثرها قد تحرر من سلطان التفكير القويم . إنما يسير الانسان عند هؤلاء : الرغبة والعاطفة والمزاج ، قبل الفكرة أو العقل .

فقد كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة نهجاً تنتهجه ، فهي لا

تنتهي عند مجرد التفكير ، وإنما تمتد الى العمل والتنفيذ . فالفكرة لها شطران : عقل وسلوك ، ولا يكون لها أثر خلقي حتى تنقلب الى هذا السلوك . ولكن علم النفس حل في تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق . فباعد ما بين شطري الفكرة . وعالج الإحساس الضئيل مجرداً عن العمل وباين ما بين العقيدة والسلوك .

وعلم النفس غير قادر على أن يخلق مثلا أعلى لأنه غير قادر على تثبيت قيم الأشياء ، لأنه علم وضعي يسير في نطاق ضيق من التجارب . ولما طغى علم النفس على علم الأخلاق طافت بالنفس الشكوك » .

- ٣ -

أما الاسلام فيقف من قضية الارادة موقفاً واضحاً صريحاً ، فلا يؤمن الاسلام بالجبرية التي تقول إن الانسان ليست له إرادة وأنه مسيّر غير مخيّر. أو أن الوسيلة المادية هي التي ترسم الطور الاقتصادي ثم الواقع الاجتماعي[1].

ومن هنا فإن كل المذاهب التي تحاول أن يحجز الانسان في نطاق الجبرية تتنافى مع الارادة الانسانية التي تشيع الالتزام الاخلاقي والجزاء الأخروي.

رابعاً – الانشطارية وتجزئة المفاهيم : إن من أبرز خصائص الفكر الغربي التي تحول بينه وبين القدرة على أن يكون فكراً عالمياً إنسانياً ، هو تجزئة المفاهيم أو الانشطارية. ذلك أن طبيعة الفكر الغربي تتمثل في تجزئة الأمور لا في تكاملها. فهي تفصل بين الأشياء فصل التعارض والمخالفة ، وهو استمداداً من طبيعته أو مزاجه يستحيل عليه تقبل المواءمة أو التوازن أو التكامل على النحو الذي هو طبيعـــة أساسية للفكر الاسلامي ، فهو يقبل العلم ويرفض الدين ، ويقبل المادة ويرفض الروح ، ويقرّ المحسوس ويرفض الغيبيات. بينما يقف الفكر الاسلامي على قاعدة أرحب ويتحرك في أفق أوسع ، حيث يزاوج ويوازن ويربط في دقة وإحكام بين القيم التي تتلاقى بحكم أنها تشكل طبيعة الانسان نفسه.

---

١ – من بحث للدكتور عماد الدين خليل.

أما الفكر الغربي فإنه يعجز عن هذا التكامل ، ويعجب لإمكان تلاقي الروح والمادة والنفس والجسم ذلك لأنه في أعمق أعماقه يقوم على أساس الفصل بين القيم . بل والنظر اليها نظرة التعارض والخصومة والصراع . ولقد حـــاول الفكر الوثني القديم أن يقيم صراعاً بين الجسم والروح . فلما جاء الاسلام ألغى هذه الفكرة ودحضها وأعلن أن الجسم والروح متكاملان . وبذلك أسقط مفهوم الرهبانية القائمـــة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحي . ونظر الى الانسان نظرة متكاملة : قوامها الروح والجسد معاً . وجعلهما معاً موضع التكريم ، ودعا الى الاهتمام بالطهارة الحسية والنظافة والزينة – وكذلك جمع الفكر الاسلامي بين « الفردية والجماعية » بينما انقسم الفكر الغربي الى قسمين بينهما صراع شديد وقف أحدهما عند الفردية . ووقف آخر عند الجماعية . أما الاسلام فقال : إن الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد .

(٢)

ويتصل بهذا أن الفكر الغربي يركز على الجزئيات والفروع . ويفصل بين العلوم فصلاً تامًّا تحت اسم التخصص ، واليوم يدرس علم الانتروبولوجيا مستقلاً عن علم الاجتماع ، وعلم النفس مستقلاً عن علم الأخلاق ، وعلم السياسة مستقلاً عن علم الاقتصاد ، مع أن هذه العلوم تلتقي كلها حول كيان واحد هو الانسان .

ومن شأن هذه التجزئة أن توجد التضارب فتحدث بعض التجاوزات الخطيرة في ناحية على حساب النواحي الأخرى . ولقد دعا كثير من الباحثين الى ضرورة تحطيم العزلة بين العلوم الاجتماعية ، ولكن قوى كبرى ترى ضرورة الفصل وتعمقه ، وتجعل لها وحدها القدرة على الاستفادة من التضارب والصراع بين المناهج المختلفة .

أما الفكر الاسلامي فهو لا يقبل التجزئة بين القيم ، بل يصوغها كلها في كل واحد ويجعل حركتها متوازنة لأنها مرتبطة بكيان الانسان نفسه .

ومن هنا فإن من أكبر محاذير منهج البحث العلمي هذا التمزق الذي يحول بينه وبين أن يكون منهجاً عالمياً أو انسانياً – ولقد وصل عمق طابع الانشطارية وأثره في تجزئة المفاهيم الى الحد الذي جعل أهل التخصص يتقوقعون دون الإحاطة بشؤون الفكر البشري عامة ويعرضون عن النظر الى مجموع

مشاكل الانسان بعين المتبصّر الحصيف ، لأن كل فريق منهم قد اعتاد النظر الى الشطر الذي هومتخصص فيه كأنه كلٌ منفصل عنغيره. فعالم النفس قد استغرق فكره مبادىء ذلك العلم ومقاييسه . فهو يريد أن يقدم للعالم حلولاً مما تعلـّمه من مبادىء علم النفس ، و كذلك عالم الاقتصاد عنده أن مسائل العيش هي قوام الاصلاح للانسان . والحق أن هذه المسائل كلها إنما هي نـَواحٍ مختلفة ، ومظاهر متنوعة للوحدة الكلية ، ولكل مسألة من هذه المسائل الانسانية مكان خاص ، وذلك أن الانسان جسم وروح . فمن ناحية كونه جسماً فهو موضوع العـــلوم الطبيعية ، ومن حيث أنه ذو حياة فهو موضوع علم الحياة (Biology) وعـلم الحيوان (Zoolagy) ، ثم إن الانسان يحتاج الى غذاء ولباس وبيت ، ومن هنا كان للمعاشيات أثر ظاهر في الحياة ، والاتصال الجنسي مثل غريزي، وهذه مادة علم الجنسيات . وله شعورٌ وادراك وهذا له صلة بعلم النفس ، وهو مدني بالطبع (أنظمة الحياة الاجتماعية والعمرانية) وهو حي عاقل يحتاج الى ادراك ما وراء المحسوسات (العلوم العقلية) وليس عقلاً صرفاً ، وهذا يخص العـلوم الروحية والأخلاق ، وما يميز الخير من الشر . والانسان جامع لكل ما ذكرنا ، فـإذا أردنا أن نسنّ للبشرية نظامـاً وجب علينا أن نعرف منزلة الانسان من هـذا الكون، ولا بد من فلسفة حياة بكل تفاصيلها . ذلك أن الحيـاة لا تدور على مسألة واحدة – وهذا يعني قصور منهج البحث الغربي الوافد عن تحقيق رسالته كمنهج عالمي انساني ، وهو في نفس الوقت يتعارض مع « تـكامل المنهج الاسلامي في المعرفة» الذي ينظر الى الانسان ككل متكامل . ويدرسه من جميع جوانبه دون فصل أو انشطار أو تجزئة . ومن هنا فإن أخطر نتائـج التخصص : هو تمزيق القيم المترابطة ، وجعل هذه القيم تتقابل وتتصارع . أما الفكر الاسلامي فإنه يقوم على ضم العناصر والمواءمة بينها وربطها بالأصـــل . بل ان الفكر الاسلامي لا يفرق بين العقل والقلب . بل يجعلها وجهين للمعرفة ، يسلم أحدهما للآخر .

(٣)

لقد نشأ الفكر الغربي بطبيعته أساساً على أنــه فكر انشطاري يعجز عن فهم أبعاد التكامل ، ويرى استحالة التقاء العناصر في كل واحد . وقــد بدأت الانشطارية في الفكر الغربي من نقطة الفصل بين الدين والدنيا . وعزل الدين عن الدولة وعن المجتمع ، وقصره على العلاقة بين الله والانسان . حتى أصبح مفهوم الدين يعني هذه العلاقة وحدهــا ، وهي في مفهوم الاسلام جزء من الدين حيث يقرر الاسلام أنه دين ومنهج حياة .

ومن الفصل بين الدين والدنيا ، نشأ الفصل بين الدين والعــلم ، ثم نشأت مذاهب وأيدلوجيات تحاول أن تضع نظمـــاً للمجتمعات منفصلة عن الدين والأخلاق ، ثم جاء العلم فحقق بعض الانتصارات التي دفعته الى الأمام . حتى أطلق عليه اسم دين البشرية . ومن استعلاء العلم ، جاء نفوذ المادية ووقع الانفصام الكامل بين شطري النفس والحياة . فغاض جانب الروح والنفس والوجدان والقلب واستعلى جانب العقل والعلم والمادة . وأصبح المنهج العلمي قــائماً على المحسوسات والمعقولات . أما ما سوى ذلك من علوم الوحي والغيب ومقررات الألوهية والنبوة واليوم الآخر والبعث فقد أدرج تحت اسم الخرافات والأساطير . وبذلك أنكرت الفلسفة المادية شطراً ضخماً من المعرفة والحقائق والعــلم . وعلت في ظل ذلك الدعوة الى التطور (المطلق) وعلا معها ما أطلق عليه مبدأ التغير والمتغيرات على نحو لا يعترف بالأصول الثابتة ، والحقائق القــائمة . فأرسلت الدعوة ارسالاً الى القول بالتغير المستمر لكل كائن وكل فكرة .

ثم ظهرت عقلية الجزئيات والتفصيلات التي نجحت في حجب الصورة الكاملة عن أذهان الناس .

إن ميزة الفكر الاسلامي التي يستمدها من الاسلام : هي هــذه النظرة الكاملة الشاملة بكل أبعادها . وقد أعطى القرآن المسلمين فكرة محيطـة شاملة الى أبعاد الحياة وما بعد الحياة واليوم الآخر والكون والانسان والماضي كله منذ خلق الله الكون والانسان . وذلك ليكون هذا الانسان قادراً على التحرك بالفكر في الإطار الواسع ، ويستطيع أن يستوعب في وضوح مكانه من هذا الكون الواسع ، وحقيقة رسالته ومدى مهمته .

وفي حدود هذا الفهم نجد أن منهج البحث الغربي غير قـادر على استيعاب أبعاد الحياة والكون في عالمي الغيب والشهادة ، وموقف الانسان من هــذا الوجود ، وأنه يتحرك في داخــل دائرة ضيقة هي شطر من الفكر الانساني ، وجانب من جوانبه؛ ذلك الجانب الوحيد الذي اعترف به الفكر الغربي . وهو الجانب المادي والحسّيّ . أما ما سوى ذلك فإنه لا يدخله في حسابه ، ويعجز عن تصوره واستيعابه .

أما الفكر الاسلامي فإنه لا يقر دراسة الجزئيات منفصلة عن أصولها ، ولا يقبل إعلاء أي جزء منها ، ويقرر في ضوء الاسلام إقامة الصورة التامة الكاملة أمام الانسان : ذهنه وقلبه . كما يقيم مفهوم الحيــاة في منظور متكامل وصورة متماسكة تفضي الى نظرة موحدة ، فهو يعطي العناصر كلها طابــع الالتقاء . وروح المواءمة . بحيث تلتقي ولا تتعارض . والقرآن الكريم أكبر مثــل على هذا المنهج . فهو يعطي فكرة شاملة للكون والانسان والحياة ، ويربطها جميعاً بأصل واحد . هو التوحيد ، ويمسكها بخالقهــا ومنشئها النشأة الأولى والنشأة الآخرة .

ولعل أخطر ما حققته نزعة الانشطارية أنهــا خلقت عقلية الجزئيات التي حجبت عن أذهان الناس الصورة الكاملة ممــا يجعل منهج البحث العلمي قاصراً عن أن يكون عالمياً أو إنسانياً .

ومن ثم فقد انفصلت المدارس الفكرية في الغرب وتمزقت ، وقـام صـ
ضخم بين العلوم والآداب ، وصف بأنه أزمة الثقافة الغربية .

يقول أحد الباحثين : إن التناقض بين الثقافة الأدبية والثقافة العلميـة
ظاهرة من خواص المجتمع الغربي حيث تنقسم الحيـــاة الفكرية الى قسـ
متباعدين . هناك قطبان : واحد يدور حـوله المفكرون الأدبيون . وفي الآ
المفكرون العلميون . وبين الاثنين هوّة سحيقة أساسها عـدم القدرة على الـ
المتبادل، وان كل مجموعة يحتفـــظ بداخلها بصورة مشوهة للمجموعة الأخر
والسبب هو عـــدم وجود قاعدة أساسية شاملة » أو وجود أساس للتفاهم[1]
ومثل هذا الانشطار لا يوجد في الفكر الاسلامي الذي يتلاقى فيه الأدب و
على قاعدة أساسية هي الانسان نفسه .

خامساً – محاولة احتواء ثقافات الأمم : إن أخطر ما يحاول الفكر الغـ
أن يفرضه على الفكر البشري كله هو فكرة الاحتواء والسيطرة ، واعتبـ
وجهة النظر الغربية وكأنما هي الحقيقة الوحيدة ، وذلك مـــا يرفضه الفـ
الاسلامي الذي تشكل على أساس ذاتية خاصة وكيان مفرد غير قابل للانشـ
أو الاحتواء أو الانصهار في أي فكر آخر .

ولقد عاش الفكر الاسلامي مقاوماً ومجاهداً في سبيل عدم السماح لشخـ
الاسلام أن تذوب وتتلاشى في أي شخصية أخرى . ولعل هذا الاتجـــاه
فرض النفوذ عن طريق أساليب الضغط ، عندما يتعذر الإقناع هي التي أقنـ
الأمم جميعاً بأن الفكر الغربي يعمل على السيطرة عن غـــير طريق الإقناع
التقبل الذي يقوم بين فكر وفكر وأمة وأمة على أساس إقامة الحوار الحر

ولقد رفع الفكر الغربي عبارة خلابة خادعة ليسيطر بهـا على فكر الـ

---

١ – مجلة المجلة أغسطس سنة ١٩٦٢ .

التي وقعت تحت سيطرته السياسية هي عبارة وحدة الثقافة العالمية . والعبارة براقة المظهر خادعة ، وإن كانت تخفي في أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الانسانية المختلفة . وهي تعني في الأغلب فرض الثقافة الغربية . وتسويدها على ثقافات الأمم وحضارتها . ولقد يمكن أن يقع مثل هذا الاحتواء أو الاستيعاب لبعض الثقافات . أما ثقافة الفكر الاسلامي فإنه من العسير احتواؤه واستيعابها مهما تعددت الأساليب التي توجه الى هذا الغرض، ذلك لأنها ثقافة عميقة الجذور قد شكلها فكر رباني المصدر وهو القرآن الكريم ، وقامت على قواعد راسخة أساسها التوحيد ، وهي ثقافة محكمة لأنها تقوم على فكرة الحق المطلق . والإيمان بالله . وقد سادت العالمين أربعة عشر قرناً . وتركت آثاراً عميقة في المجتمعات والثقافات واللغات . وهي ما تزال تطبع منطقة شاسعة في قارتي آسيا وأفريقيا بطابعها المميز .

ولا ريب أن فكرة وحدة الثقافة العالمية مرتبطة أساساً بالدعوى التي سقطت والتي تقول بأن الرجل الأبيض إنما يعمل على تمدين الأمم المختلفة وتحضيرها . والحقيقة أنها تهدف الى سوقه الأمم الى الولاء والعبودية للسيادة الغربية في الفكر . وإحلال قيم الفكر الغربي ومفاهيمه محل القيم الاسلامية العربية — ونحن نعلم أن الغرب منذ بدأ الاستعمار عمد الى تحطيم قيم الفكر الاسلامي والثقافة العربية ، وزعزعة قوائمها بإثارة الشكوك والريب والشبهات في نفوس المسلمين والعرب لتحطيم تلك القوة الضخمة التي منحها الاسلام لهم . والتي كانت عامل المقاومة الفعال في وجه الغزو الغربي .

ولكن الفكر الاسلامي ثبت لهذا الامتحان ثبوت الطود ودحض كل الشبهات والمفتريات وكشف عن جوهره الأصيل .

الباب الأول

الأخطاء في مجال العقائد والدين والفلسفة

أولاً ـــ في مجال العقائد

ثانياً ـــ في علم مقارنات الأديان

ثالثاً ـــ في الشريعة والسنة

رابعاً ـــ في الفلسفة

الفصل الأول

الأخطاء في مجال العقائد

إن أخطر مواقف المنهج العلمي الذي أقامه الفكر الغربي هو موقفه من الدين عامة ، انطلاقاً من موقفه من دين الغرب نفسه ، من خلال تجربة خطيرة ومواجهة حادة بين الفكر العلمي الحديث وبين مقررات الفكر الديني الغربي التي كانت قائمة ومسيطرة في مجال المجتمع والحضارة ، حتى ليمكن القول بأن الفكر الأوربي الحديث قد أقام منهجاً له مقرراته وقيمه التي ظلت تتطور وتنمو حتى انفصلت تماماً عن الفكر المسيحي الغربي . ولم تبق إلا خيوط قليلة لا قدرة لها على الحركة والسيطرة مع استشراء هذا الفكر واحتوائه لكل مجالات الثقافة والمجتمع والحضارة والتربية والاقتصاد والسياسة .

ولقد كانت تجربة الفكر الغربي بعد انطلاقته العلمية بالنسبة للدين الغربي مثيرة وقاسية ، اشتد فيها الصراع وقست فيها الكنيسة وانسلخ الفكر من سيطرة الدين ونفوذه ، وبدأ حملة ضارية على الدين كمقوم للفكر والمجتمع . وخطا خطوات واسعة في سبيل التحرر من نفوذه . وكانت نظرية التطور التي أعلنها دارون نقطة الانطلاق في طريق الفكر المادي بعد أن سيطر عليها الفلاسفة ، ودفعوها خارج نطاق العلوم التجريبية والطبيعية الى مجال الاجتماع ، وأقاموا عليها منهجا فكرياً قوامه التطور « المطلق » . ومن هذه النقطة تدافعت كل النظريات والمذاهب الحديثة . وفي مقدمتها التفسير المادي للتاريخ ونظرية فرويد في النفس والجنس ، ومفهوم العلوم الاجتماعية .في الفصل في إلغاء ثبات الأخلاق وظهور مفاهيم الوجودية والهيبية الخ .

أما موقف المنهج العلمي من الدين ، فقد كان يمثل تجربة خاصة تتعلق بأوربا مع المسيحية . ومن هنا فإن إطلاق نتائج هذه التجربة على كل الأمم والأديان فيه تجاوز كبير ، وخاصة في منطقة العالم الاسلامي الذي يتشكل فيه منهج علمي يختلف اختلافاً كبيراً ، الدين فيه عنصر أساسي – والأخلاق فيها محور أساسي تدور عليه كل المفاهيم وترتبط فيه القيم المختلفة وتتماسك تماسُكاً شاملاً . ذلك أن الاسلام لم يقف من العلم موقف الخصومة أو المعارضة ، بل كان هو مصدر انطلاق شرارة الضياء التي صنعت « المنهج العلمي التجريبي » الذي هو عماد الحضارة العالمية المعاصرة . واذا كان الدين بمعنى الاسلام هو دعامة الفكر الاسلامي وأساسه . فإن قيام المنهج العلمي الوافد من الغرب – والداعي إلى اقصاء الدين أساساً يشكل اضطراباً كبيراً اذا ما أخذ به الفكر الاسلامي بديلاً لمنهجه القائم على الدين ، فضلاً عن اختلاف مفهوم الدين في الفكر الغربي عن مفهومه في الفكر الاسلامي .

فالفكر الغربي يقرر أن « الدين » هو العلاقة بين الله والانسان فحسب ، وأنها علاقة شخصية وخاصة ولا صلة لها بالمجتمع . ولا تؤثر في تطور الحركة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ، بينما يقرر الفكر الاسلامي أن الدين (بمعنى الاسلام) هو دين ونظام مجتمع ، وأنه يتجاوز العلاقة بين الله والانسان الى العلاقة بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والمجتمع وأنه نظام شامل متكامل ترتبط فيه العبادة والعقائد بممارسة الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية ، وأن الأخلاق عامل جامع بين هذه القيم .

بهذا المفهوم يختلف المنهج العلمي الاسلامي عن المنهج العلمي الغربي اختلافاً عميقاً ، بحيث يبدو المنهج العلمي الغربي الوافد قاصراً وعاجزاً عن العطاء للنفس العربية الاسلامية ، وللروح العربية الاسلامية والعقل العربي الاسلامي . وهو لهذا كله قاصرٌ أيضاً عن أن يكون منهجاً عالمياً أو إنسانياً .

فالفكر الغربي يقف من الدين موقفاً يتموّج بين الرفض والكراهية والخصومة

والحذر ، وسواء في مجال الفكر الليبرالي أو الفكر الماركسي ، فالدين منظور إليه نظرة قلقة . وقد طرح هذا الفكر حول الدين مواقف كثيرة تتراوح بين القول بأن الأديان نبتت من الأرض ، ولم تنزل من السماء ، وأنها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، أو أن الدين أفيون الشعوب ابتدعه الاقطاعيون لتخدير العبيد والطبقات الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة ، أو أن الدين لا يصلح مطلقاً لأن يكون عاملاً مدنياً . وأنه مانع من الترقي والنهوض ، أو القول بأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد ، أو القول بأن الدين علاقة خاصة بين الله والانسان . وأن الانسان يستطيع أن يكون مؤمناً بضميره وكافراً بعقله . وقليل من كتاب الغرب من قال بأن الأديان أساس الثقافة ، ومن قال بهذا أعرض عن القول بأن الدين نظام أو منهج حياة .

ويرجع هذا كله الى مواقف وتحديات من التاريخ السياسي والاجتماعي الغربي في مواجهة الدين ، وفي مواجهة الصراع بين اليهودية والمسيحية ، وبين المسيحية والوثنية اليونانية التي سبقتها ، ومنها ما يرجع الى مفهوم المسيحية الغربية التي عبرت الى أوربا . فوجدت مجتمعاً قائماً على أساس نظام اجتماعي كامل فكانت بطابعها الروحي الخالص ذات وضع عقائدي. فضلاً عن أنها عن طريق الكنيسة قد اصطدمت بالنهضة العلمية في منطلقها . ويرد كثير من الباحثين ، تلك التحديات التي قامت عليها مفاهيم الدين في الفلسفات الغربية (سواء منها الليبرالية أم الماركسية أم النفسية والاجتماعية) الى هذا الطابع الذي طبع الفكر الغربي كله بالعداء للدين والخصومة للكنيسة على النحو الذي نراه في كتابات سبنسر الذي ارتكزت فلسفته على المادية واللاأدرية . وهلكس ونيتشه وماركس وفرويد والدعاة الى البشرية (Humanism) على أنها دين جديد يجعل مردّ الآداب الى النفس البشرية وينزع بالناس الى درس الكتب الوثنية . وتقوم البشرية على أساس الإيمان بالانسان بدلاً من الإيمان بالله .

والفكر الاسلامي في مواجهة هذا كله يختلف اختلافاً عميقاً على النحو الذي

يجعل مثل هذا المنهج العلمي الغربي الذي شكلته هذه المفاهيم والتحديات عاجزاً عن استيعاب الأبعاد الواسعة لفكر الاسلام . ولقد يبدو واضحاً موقف الغرب من المسيحية وما ردّدَه الكثيرون من أنها نتاج وافد ، وكيف عمدت أوربا الى إعادة إحياء (الهلينية الاغريقية) بكل مفاهيمها مرة أخرى في أوائل عصر النهضة ، وإحياء طابع الوثنية في الفنون والآداب . ثم جاء العلم بمفهومه القائم على سلطان العقل وحده دافعاً الى انتزاع قيم « مناهج البحث » من كل أثر للدين ، يبدو هذا واضحاً في المقارنة بين الأمم .

أما في عالمنا العربي الاسلامي فإننا نجد أصالة التدين في هذه الأمة التي كانت مهد النبوة ، والرسالة ، والتي شكلت فكرها وعقيدتها وأخلاقها وفق مضامين الحنفية السمحاء التي حمل لواءهـا رسول الله ابراهيم . فكانت الجذور الأصيلة للأديان المنزلة ، وكانت مصدر ذلك التراث الأصيل العميق الذي جاء على أصوله دين موسى ودين عيسى ودين محمد .

ففي هذه الأمة الحنيفية ، نجد أن التوحيد هو العلامة الكبرى لحركة الفكر والأخلاق والنفس ، ونجد العامل الروحي معانقـاً للعامل الماديّ في تناسق وتكامل ، ونجد الدين بمفهومه الأصيل عاملاً فعالاً وأساساً جذريـّاً في المجتمع والأخلاق والتربية وممارسات الحياة السياسية والاقتصادية .

ومن هنا يبدو عسيراً على الفكر الاسلامي العربي الذي تشكل منذ القديم أن يخرج عن فطرته وطابعه ومزاجه الأصيل، وأن ينفصل عن جذوره الراسخة العميقة ، فيقبل مفهوم التجزئة والانشطارية ممثلة في منهج الفكر الغربي بطابعه المادي الصرف .

فالاسلام ليس ديناً تعبدياً فحسب . ولكنه حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والأخلاق . ومن ثم فإن المنهـج العلمي

الاسلامي للبحث والمعرفة لا بد أن يكون واسعاً وشاملاً ومتكاملاً على النحو الذي يتمثل فيه هذا الفكر .

ومن هنا أيضاً يبدو المنهج العلمي الوافد قاصراً وضيقاً ومحدوداً في مجال المقارنة والنظر. ولقد يستطيع صاحب المنهج الجزئي أن ينظر في المنهج المتكامل، وأن يقبله لأن ما يؤمن به موجود في داخل الأفق الأرحب ، ولكنه من العسير على صاحب المنهج المتكامل أن ينصهر في دائرة ضيقة بعد أن ألف الحركة الواسعة الشاملة .

- ٢ -

لم يكن غريباً على الفكر الغربي أن يتحول في مراحل مختلفة دون أن يثبت على أصول أساسية ، ذلك أنه إنما يصدر في ذلك عن طبيعة العقيدة التي عرفها واعتنقها . فهي تفصل أساساً بين الدين والدنيا ، وتلغي المسؤولية الفردية . وتجعل النظرة الى الجزاء الأخروي نظرة روحية ، وتربط بين الخالق والمخلوق في وحدة الوجود ، وتجعل الحياة دوائر منفصلة غير متكاملة . ومن شأن ذلك أن يوحي بالتحول والانتقال والصيرورة الدائمة . ومن أجل أن الفكر الغربي لم يجد في رسالته الدينية معطيات تنظم الحياة . فلقد أحس بأنّ من حقه أن ينظم الحياة وفق حاجته وظروفه وإرادته الخاصة . فليس غريباً على الفكر الغربي أن يتحوّل ويتطور دون أن يثبت في قيمه أو في مفاهيمه للقيم . ولكن الفكر الاسلامي الذي قام أساساً على قواعد ثابتة ، وإطار متكامل ، ومنهج شامل يعظم الحياة والمجتمع ويرسم صورة كاملة للعلاقة بين الدنيا والآخرة من حيث المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الواقعي .

من شأن هذا الفكر أن يقيم منهجاً للبحث مختلفاً ، وأن لا يقهره منهج الفكر الغربي الذي يختلف معه في جوانب كثيرة . بل ويتعارض معه في أغلب المسائل .

كذلك فإن الفكر الغربي ليس من فصيلة واحدة . ولا أرومة واحدة . ولكنه يصدر عن فصائل عدة : أهمها الجذور الأساسية لمعطيات الفكر اليوناني

والهلينية الاغريقية . وما زال كتاب أوربا وفلاسفتها يفاخرون بهذه المعطيات ويميزونها في المقارنة مع معطيات المسيحية التي يرون أنها نتاج شرقي . وأنها أدخلت الى أوربا النسك الشرقي ، ومبادىء الرحمة والضعف وأفقدت أوربا روحها الأصيلة القائمة على الاستعلاء والظلم واستعباد غير الأوربي من أجناس . ومن الحق أن يقال ان المسيحية قد حررت أوربا من طغيان الروح الاغريقي الذي يؤمن بأن السادة (وهم فئة قليلة من الناس) يجب أن يتسلطوا على الناس جميعاً وما هم إلا عبيد لهم ، وفتحت الطريق للقضاء على هذه الظاهرة في العالم كله بظهور الاسلام الذي أذاع روح الإخاء وقضى على العبودية الرومانية والفارسية والفرعونية والبرهمية الهندية .

لقد غيرت المسيحية أوربا حقاً ونقلتها من الوثنية والعبودية الى الدين والأخلاق ، وأشاعت روحاً جديدة فيها العبادة لله بدلاً من عبادة الأبطال . وحطمت روح الاغريقية وفلسفتها الوثنية . ودحرت طابع الامبراطورية الرومانية القائم على العبودية ، وصهرت أوربا من جديد في كيان عقلي وروح جديد ، ولكن المسيحية التي عبرت الى مجتمع الحضارة الرومانية لم تستطع أن تغير كثيراً . وإن أقامت صرحاً ضخماً في أوربا كلها ، وهي بالرغم من خلافها مع مناهج العلم ومعطيات الحضارة فإنها قد شادت مجتمعاً ضخماً باسم المسيحية تجاوز أوربا الى أمريكا . وحمل لواء النفوذ الاستعماري في العالم كله حتى صبغ الصراع السياسي وجعله صراعا ليس بين عالمين هما : الغرب والشرق . بل بين الاسلام والمسيحية .

غير أن الفكر الغربي لم يخلص لمعطيات الهلينية والمسيحية وحدهما . ولكنه وقع أيضا تحت سيطرة اليهودية التلمودية التي ارتبطت بالمسيحية أساسا بالتتابع ارتباط العهد القديم بالعهد الجديد بين دفتي كتاب واحد ، وبالنقلة من رسالة موسى الى رسالة عيسى ، وهي متابعة يقرها الاسلام الذي جاء خاتما للأديان كلها . غير أن الفكر الغربي ظل مقيما على معطيات الهلينية والمسيحية ،

وأضاف إليها العلم الحديث ، بل إنه في بعض تقسيمات مفكريه انتقل بين الروح الغيبية القديمة عند الانسان البدائي ، الى الروح الدينية باليهودية والمسيحية الى الروح العلمية بالحضارة والعلم الحديث .

غير أن الفكر اليهودي الذي كانت له مفاهيمه الخاصة لم يلبث أن انصهر في داخل الفكر الغربي على نحو وآخر . وكانت أبرز علاماته القول بالفكر الحر ، والسخرية بالغيبيات ، واحتقار الأخلاق ، والقول بالتطور في مجال الاجتماع ، والدعوة الى النسبية التي تحمل على التغيير الدائم ، والقول بعدم فطرية الدين والأسرة والجماعة .

وقد كان الفكر اليهودي قد تشكل من خلال التلمود . وأقام منهجه على أساس توجيه نبوءة ميراث ابراهيم أبي الأديان الثلاثة الى اليهودية وحدها بالقول بأن اليهود شعب الله المختار، وبأن مُلك إبراهيم الذي تمثل في اليهودية والمسيحية والاسلام باعتبار أن ابراهيم هو أبو اسماعيل واسحاق ، قد تحول الى اسرائيل وحده - هذه هي النبوءة التي دفعت اليهودية الى بناء أيدلوجية تلمودية للسيطرة على العالم ، وتحقيق نبوءة أرض الميعاد .

ولقد كانت محاولة التلمودية الى السيطرة على الفكر الأوربي المسيحي واحتوائه واتخاذ ذلك الاحتواء معبراً للسيطرة على الفكر البشري كله .

ومن هنا فقد حاولت الماسونية تطعيم الفكر الغربي بالمفاهيم التلمودية من خلال الدعوة الى إحياء المفاهيم الهلينية في العقائد والسياسة والفن والحضارة . وإعلاء مفاهيم العنصرية بإعلاء صراع الأجناس والدماء والأعراق . وإذكاء هذه الظاهرة للقضاء على الوحدة التي أقامتها الأديان .

ومن ثم بدأت حرب الوطنية ، والقومية ، وعبادة الدولة ، والديمقراطية تجتاح أوربا لتقضي على سلطان الكنيسة ، وأنظمة الدول المسيحية ، وإقامة الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وإنشاء (الموسوعة) على مفاهيم

التلمود ، وإبراز فولتير وديديرو وروسو . وبذلـــك استقطبت الفكر الغربي وأخرجته من دائرة الدين الى دائرة الفكر الحر ، وأقامت العلمانية وأسقطت الطابع المسيحي للدول الأوربية ، وحققت تحرير اليهود وإخراجهم من الجيتو . وبذلك بدأت سيطرتهم على الفكر الأوربي والمجتمع الأوربي كله من خـــلال السيطرة على الأدب والفن والقانون والحضارة .

من خلال هذا النفوذ التلمودي بدأ تحوّل الفكر الغربي عن طابع الأخلاق المسيحية الى طابع التلمودية التي جددت وثنية اليونان وعبودية الرومان .

ومن خلال هذا التحول الذي خطـــا إليه الفكر الغربي بالانسحاب من المسيحية الى دين البشرية ، والى إعلاء العلم والعقل ، والى عبادة الانسان، وقيام الفلسفة المثالية؛ بدأت بذور التلمودية تطفو على السطح في كبريات قضايا المجتمع: الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ بالماركسية ، وعلم النفس بالفرويدية ، وعلوم الاجتماع بالمدرسة الاجتماعية (ليفي بريل ودوركايم) . ثم سيطرت هذه المناهج على الفكر الغربي كله وأخرجته من مفاهيمه الأخلاقية بعـــد أن أخرجته من الدين . وظهر عصر الأيدلوجيات في مواجهة الأديان ، أو باعتبارها الأديان البديـلة .

- ٣ -

لا ريب أن الدين أهم ضرورات الانسانية ، وأنه من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب . ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد أو لا تمارس الصلاة على حد قول (بلوتارك) . والدين طابع الانسان ، والتدين جزء من الطبيعة البشرية ، والانسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين على حد تعبير (أرنولدتوينبي) في كتابه (العادة والتغيير) الذي يقول : لقد ترتب على تراجع الدين عن موقفه في أوربا أن قامت ديانات بديلة تسمى المذاهب الفكرية والأيدلوجيات الفردية أو الرأسمالية أو الجماعيـــة أو الشيوعية أو الوطنية أو القومية . وعنده أن كلاً من الرأسمالية والشيوعية يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر ، وكلا النظريتين مادية . ولما كان الانسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده . فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان .

ثم هناك بعد صراعهما معاً صراع كلتيهما مع الوطنية أو القومية . ويرتب توينبي على هذا أن الأيدلوجيات تنافس الأديان العليـــا على اكتساب ولاء الجماهير ، وهذا معناه العودة الى عبادة الانسان . فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده ، عاد الانسان الى سجن المجتمع ، وبعد أن كان في علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة ، فتضاءل ليصبح نملة اجتماعية في مجتمع النمل . لقد استطاعت

الأديان أن تعلم الانسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار . فالأيدلوجيات لا تستطيع أن تنسيه هذه الحقيقة . لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحي الذي منحته إياه الأديان . لقد وجدت الأديان لتحرير الانسان من إسار المجتمع ، ووضعه مباشرة أمام مسؤولياته وقد استطاعت أن تمنح معتنقيها هداية لا تستطيع أن تجاريها فيها الأيدلوجيات الحديثة . لقد منحت الانسان الاطمئنان والمساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح ، منحته الراحة الروحية ، وحررته من عبوديته للمجتمع .

ثم يقول توينبي : لا غنى للإنسان عن الدين . ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين ، لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلاً من الجد والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز . ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي .

وهذا المفهوم للدين الذي رسمه أرنولدتوينبي هو في ذاته مفهوم مسيحي ؛ لأنه يقوم على أساس الاعتقاد بأن الدين ليس إلا عبادة ورابطة روحية بين الله والانسان ، أما الاسلام فإنه ينظر الى القضية من ناحية أكثر شمولاً ، ذلك أن الاسلام لا يقصر الدين على أنه عامل روحي ، ولكن يراه نظاماً اجتماعياً كاملاً ، هو قوام الأيدلوجية التي تصلح لعالم الاسلام .

أما الغرب فلما كان دينه لا ينطوي على مفهوم النظام الاجتماعي . فقد اختار لنفسه أيدلوجية بشرية .

- ٤ -

إن معنى كلمة « دين » تختلف اختلافاً واسعاً بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي .

فكلمة رليجون (Religion) الغربية لا تعطي معنى كلمة الدين بمفهوم الاسلام فهي مأخوذة من الفعل اللاتيني (Religare) بمعنى العبادة المصحوبة بالرهبة أو الوحشية . ويرى جيبيو أنه بمعنى جمع أو ربط : وأن الدين هو ارتباط جماعة إنسانية بإله أو بآلهة .

ومن هذا التفسير تبدو (مادية) معنى (رليجون) وجزئيتها بالنسبة لمفهوم الدين في المفهوم الاسلامي . وفي القاموس الفرنسي : يوصف رجل الدين بأنه (Religuieux) ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش لسبب انقطاعه عن صحبة الناس . وليس كذلك مفهوم الاسلام الذي لا يعترف بأن هناك رجل دين له نفوذ واختصاص .

يقول العلامة (علال الفاسي) : « كلمة الدين في اللغة العربية تعني نوعاً من الإيمان الذي يظهر أثره في السلوك وتعني في الاصطلاح ما شرعه الله على لسان أنبيائه من الأحكام كالصلاة والزكاة والصيام . وهو بذلك صـلة بين الانسان وربه ، ورابطة اجتماعية بين معتنقيه تحملهم على نوع من المحبة وضروب من الوحدة لا يستطيع غير الدين أن يحملهم عليها . وهي أبعد ما تكون عن

وجود وساطة بشرية ، أو نظام كهنوتي يخضع المتدين لفئة من الأحبار أو يجعلهم متحكمين في ضميره أو مالكين لمصيره ، فالدين يعني قبل كل شيء اختياراً من الانسان لمرضاة خالق أعلى . وهو بداية التحرر من كل سيطرة أرضية .

فإذا نحن أخذنا الكلمة التي تستعمل عـــادة مقابل الدين وجدناها هي (Religion) ولكن هذه تعني معاني أخرى غير ما أسلفناه . فهي تشير قبل كل شيء إلى نظام كهنوتي فيه الراهب والاعتراف . وفيه سيطرة الانسان على أخيه وتحكمه في دينه وقبول توبته و (رليجون) تعني استسلاماً كامــلاً لهذا النوع من العبودية وامتثالاً لكل ما يأمر به رئيس الديانة أو ينهى . ومن هنا خطر مثل هذه المصطلحات في المنهج العلمي الوافد فقد « أصبحنا نفهم من معنى الدين ما تحتويه كلمة (Religion) وأصبحنا نفكر في أمر الدين بما يفكر به الغرب ، وما نقرأه في آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة . فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا . والدولة والدين شيء واحد ، لأن الدولة يجب أن تقــــوم على عقيدة وخلق » اهـ . وليست هذه التفسيرات في الفكر الغربي إلا إيماءات للحيز الذي يشغله الدين في منهج البحث العلمي الغربي الوافد والذي طرح في أفق الفكر الاسلامي والثقافة العربية . والذي يجعل من العسير على الفكر الاسلامي أن يتخذ من المنهج العلمي الغربي بديلاً لمنهجه الذي يختلف في هذا الجانب اختلافاً كبيراً . والظاهرة الخطيرة في المنهج العلمي الوافد أنه لا يقتصر على تجاوز الدين نفسه ، ومحاولة خلق بديل له من الأيدلوجيات والفلسفات ، بل أنه يظل يتابعه في عنف وقسوة لإخراجه من دائرة الحياة الاجتماعية والنفسية كلها . وبذلك يعارض المنهج العلمي الوافد الفطرة ، ويضاد طبائع الأشياء .

إن الفكر الغربي يواجه الدين بموجتين من التحدي تربطان بين الفلسفتين الليبرالية والماركسية بسبب أن احداهما وهي « المادية » لا ترى في الدين إلا تخلصاً من الواقع . ولجوءاً إلى التحديرات الروحية التي أبرز ما فيها أنها توجه

السلوك الانساني توجيهاً سلبيًّا إزاء مشاكل الحياة . وهذه الموجة هي محور الهجوم الماركسي على الحياة الدينية .

والثانية : موجة « التحلل » من القيم الدينية وهي نزعة « أوربية غربية » تتزعمها الآن الحضارة الأمريكية وتنقلها إلى سائر بقاع الأرض مواصلات فكرية ، قوامها الأفلام السينمائية . والصور الفوتوغرافية ونوع من وسائل الاتصال الفكري . وهي تأخذ نظرية التفسير المادي للتاريخ التي يقول بها الشيوعيون وتضيف إليها عنصراً من أخطر العناصر في السلوك الانساني . وهو تركيز النشاط الفكري والنفساني على حرية الغريزة والعاطفة والأهواء .

« فالصراع الفكري في أوربا وأمريكا الآن يكاد ينحصر في توجيه سلوك الانسان لا على أساس العقل (كما شرحه فلاسفة القرون ١٧ ، ١٨ ، ١٩) ولكن على أساس الغريزة والانطلاق النفساني . كما بشر به فرويد وأتباعه . وكما تدعو إليه هوليود وكتاب القصة الجديدة وبعض أئمة الفن في أوربا وأمريكا[1] وهكذا نجد أن الماركسية والفرويدية تحكمان الفكر الغربي بشقيه ، وتسيطران عليه ، وترسمان قواعد منهج البحث العلمي الغربي « الوافد » .

---

١ – دكتور عمر خليفة : الدين والسلوك الانساني .

- ٥ -

ثم إن المنهج العلمي الغربي يقوم على إقصاء الدين عن مجال التأثير الاجتماعي ، وعلى القول بأن الدين مرحلة في حياة الأمم قد تجاوزتها بفضل العلم ومعطيات العقل البشري . ويُعدّ هذان العاملان من الركائز الأساسية للفكر الغربي ولمناهج البحث .

١ – أما بالنسبة لإقصاء الدين عن مجال التأثير الاجتماعي . فإنه يعتمد على القول بأن الدين عائق عن التحضر والارتقاء . ولذلك يقتضي ابعـــاده عن السيطرة على مفاهيم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاق .

ويقدم المنهج العلمي الغربي « تجربة أوربا » مثلاً صارماً في هذا المجـــال فيقول : إن الغرب كان متخلفاً في ظل الدين . فلما أزاحه من طريقه تقدّم وحقق فتوحاً واسعة في مجال العلم والحضارة .

ويحاول المنهج العلمي الوافد أن يطرح هذه القضية في أفق الفكر الاسلامي . والواقع أن هناك خلافاً تاريخياً واسعاً بين الاستجابة الاسلامية للعـــلم وبين الاستجابات الأخرى . وأن هناك بعداً للمسألة يجب أن يوضع في الضوء حتى يمكن الوصول إلى الحقيقة ، أما هذا البعد فان الاسلام لم يعارض العلم . وإنما هو الذي فتح للمسلمين آفاق البحث ، ولم يكن في مضامينه أو أسسه أو كتابه ما

يتعارض مع أية ثمرة من ثمرات العلم ، بل لقد كان القرآن هو المنطلق الحقيقي لظهور المنهج العلمي التجريبي .

٢ ـ أما بالنسبة للقول بأن الدين مرحلة في حياة الأمم ، وأن الأمم الغربية قد تجاوزت هذه المرحلة وأن الدور الذي احتاجت فيه البشرية إلى الدين قد انتهى ، وأن البشرية أصبحت في العصر الحديث مضطرة لمواجهة الدين ومجابهته ، فهذا الفكر يتصل بأوربا في عصر معين وفي مجال الصراع بين الدين والعلم وبذلك فهو ليس قضية عامة بشرية يمكن أن تطبق على كل الأمم وكل الأديان لانتفاء الظواهر والعوامل الأولية التي فرضت هذه النتائج من أفق العالم الاسلامي والفكر الاسلامي مثلاً . والواقع أن النظرة العلمية الأصيلة ، القائمة على استظهار عوامل الاجتماع التاريخي والخالصة من الهوى والعصبية ، والصادرة من الفهم العميق للأمور تكشف عن أن الدين ليس مرحلة في حياة الأمم ولا حياة البشرية . لأنه بدأ بها وسينتهي بها . فهو عنصر أصيل وكيان عضوي لم يتخلف عن تركيب الإنسان : عقله وروحه وحياته ، ولا سبيل إلى انتزاعه منه .

ولذلك فإن الدين لم يمت ولن يموت ، وإن الفكر الغربي الذي فرض أنه كان مرحلة سبقتها مراحل من الوثنية وتبعتها مراحل من العلم، هو تصوير قاصر ، وغير مستوعب،وربما أراد به أوجست كانت أن يصور الفكر الغربي على أنه الفكر البشري كله وهو ما ليس صحيحاً. وأن هذا الاستعلاء لا يكشف الحقيقة، بل يحجبها ، وأن هناك أمماً كثيرة وعقائد كثيرة وحضارات متعددة. غير الأمة الأوربية والفكر الأوربي والحضارة الأوربية لها أثرها العميق في الفكر البشري ، إذا ما أريد دراسته دراسة بعيدة عن الهوى والتعصب والاستعلاء

الغربي باللون والسيطرة الاستعمارية. والدين لا يموت لأنه منذ تعالت هذه الصيحات قبل مائة عام لم تتقلص ظاهرته ، وهو لا يموت لأنه غريزة أصيلة في الانسان كامنة ؛ والغريزة لا تموت « وإن انطمرت في بعض الحالات تحت ركام من العقائد النفسية والمشاكل الدنيوية . فإذا زال هذا الركام برزت صافية[1] » .

١ ــ من بحث للدكتور عمر خليفة : (الدين والسلوك الانساني) .

- ٦ -

إن أخطر ما يقرره المنهج العلمي الوافد هو : إنكار عـــالم الغيب كله ، والوقوف عند عالم الظاهر والمحسوس . وهذا يعطي المنهج العلمي الوافد عجزاً شديداً عن الإحاطة والتعمق والفهم لأساس الوجود البشري ، وقيام المجتمع الانساني ، ورسالة الانسان ومسؤوليته في الكون ، وما يترتب على عمله من جزاء في يوم البعث ، وإنكار الغيب . إنما يعني إنكار الألوهية والنبوة والوحي ورسالة السماء المنزلة على الأنبياء والجزاء والبعث .

وبينما يقرر المنهج العلمي الاسلامي هذا اليقين لوجود عالمي الغيب والشهادة وتكاملهما ويقبل مفاهيم الألوهية والنبوة والوحي ورسالة السماء المـــنزلة على الأنبياء والجزاء والبعث ، ويشيد مفاهيمه في فهم الحياة ، وبناء المجتمع وتربية الإنسان على هذا الشكل الكامل المتماسك . ويرى أن الاسلام دين ونظام مجتمع لا ينفصلان ، يقف المنهج العلمي الغربي قاصراً عنـــد حدود الواقع الملموس والمحسوس وعالم الظاهر . وبذلك لا يتحقق له فهم حقيقة الانسان ووجوده وكيانه ورسالته . ويستتبع الانتماء الى أحد المنهجين اختلافاً عميقاً في وجهات النظر إلى كل أمر من الأمـــور وقضية من القضايا سواء في مجال السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الفن أو العلم أو التربية أو الحضارة . فأحد المنهجين يتسم بالتكامل والاتساع والشمول والاستيعاب . ويتصل بالوجود في أزَلِهِ وَأَبَدِهِ ، وبالحياة في إنشاء الله لها . وإنهائها عنـــد أجلها المسمى . وإقامة

النشأة الآخرة في حياة الخلود التي يتحقق فيها الجزاء والحساب ؛ بينما يقتصر المنهج الآخر على الظواهر التي لم يستطع العلم أن يتجاوزها . ويقف بالانسان عند حد الموت . ولا يفهم من مهمته إلا سدّ نهمه إلى الرغائب في مجال الطعام والجنس والتملك دون أن يفهم رسالته الحقيقية وغايته الأصيلة في الوجود على هذه الأرض . وهذا الإيمان بالغيب في منهج الاسلام دعامة أصيلة راسخة ، وهو يختلف اختلافاً كبيراً عما وصفه الغرب بأنه التفكير الغيبي الذي عرفته أوربا في القرون الوسطى ، والذي كان جماعاً من الأساطير والخرافات ، وركام الفكر البشري القديم من السحر والأهــواء والأوهام التي شكلتها الثقافات الوثنية في بابــل وآشور بالإضافة إلى المجوسية الفارسية والكبالا اليهودية والهلينية اليونانية والغنوصية الشرقية .

لقد كان هذا هو الفكر الغيبي الذي هاجمته مفاهيم الاسلام حين جاءت بالمنهج العلمي الأصيل في المعرفة القائمة على البرهان والدليل والتحرز من الهوى ، وإنكار مواريث الآباء والأجداد والتماس الحقيقة من خلال الإيمان بالله القائم على عقيدة التوحيد الخالص .

ولقد أطلق الاسلام العقل البشري من قيــوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة .

- ٧ -

في تأصيل مناهج البحث يؤمن الفكر الاسلامي بأن المنهج العلمي هو المنهج القائم على الملاحظة والاستقراء وبأن لكل علم منهجه ، وبأن للانسان منهجاً علمياً يختلف عن المنهج التجريبي المطبق على الجماد والحيوان . وبأن المنهج العلمي غير منهج العلم التجريبي . وأنه ليس بالضروري أن يكون مادياً ، بل هو جامع متكامل . وفي ضوء هذا المفهوم نجد أن الفكر الغربي يقيم منهجاً علمياً آخر مخالفاً لهذه الأصول يجعل من المنطلق المادي أساساً ويسوّي بين الانسان والجماد والحيوان في الخضوع لمنهج واحد ، فإذا تجاوز عن ذلـــك أخضع العواطف والمشاعر والعوامل الروحية والدينية والنفسية إلى التفسير المادي الخالص . هذا الخلاف هو أعمق عوامل الخطر في تطبيق المنهج العلمي الوافـــد على الفكر الاسلامي والثقافة والأدب العربيين .

وأبرز نقاط الخلاف تتمثل في قضايا ثلاث :

فكرة التقدم – فكرة التطور – فكرة نسبية الأخلاق .

ولا ريب أن المنهج العلمي إنما جاء لوضع حد لتجاوزات الأهـــواء أو العصبيات أو الانفعال أو المغالاة من أي نوع ، ولكن الحكمة تقتضي أن لا يكون في تجاوز هذه الأخطار مدعاة لتجاوز أصول أصيلة من الفطرة أو من الكيان الإنساني القائم فعلاً . وبذلك يتحرر المنهج العلمي من خطر في التطبيق ليقع في خطأ في الأصول .

إن محاولة محاكمة الانسان إلى منهج التجريب هي بمثابة اقتطاع لمصدر كبير من مصادر المعرفة وتخطٍّ لقيمة كبرى من قيم البحث الأصيل . ويصر المنهج العلمي الغربي على وصف كل ما ليس محسوساً أو مشاهداً بالغيب . ويصف هذا الغيب بأقسى الأوصاف . فإذا نقل هذا المعنى إلى أفق الفكر الاسلامي كان كأنما هو في مواجهة الدين نفسه . والحقيقة أن الغيب في مفهوم الفكر الغربي جد مختلف . وان مفهومه لا ينطبق مطلقاً على الدين بمفهـــوم الاسلام . وإذا راجعنا أصول البحث في مفهوم الغيب في الفكر الغربي نجد صورة من صور الجاهلية والوثنية التي جاء المنهج العلمي الاسلامي لدحضها والقضاء عليها . فلقد حفلت مدائن اليونان بالمعابد والعرافات والنبوءات – أمثال معبد دلف وهرقل وزيوس التي انتشرت فيها مراكز العرافة والكهانة التي كانت لها ركائزها الهامة في الحياة الاجتماعية . حتى أن دساتير مدينة اليونان وقوانينها كانت تعرض على عرافة معهد دلف قبل العمل بها ليقرها ويباركها الإله أبو للو إله علم الغيب والنبوءات فوق أنه إله الشباب والفن . وفي مرحلة أخرى نجد رجال اللاهوت وقد ردوا الأمراض إلى عوامـــل خفية . أهمها حقد الشيطان وغضب الله ، ووصل اعتقادهم في السحر والجـــن والخوارق إلى درجـــة عالية حتى ردّوا الأوبئة والزوابع والقحط وكسوف الشمس وخسوف القمر إلى فعل الشاطين .

وهذا هو مفهوم الغيب الذي جاء المنهج العلمي الغربي ليعارضه ويقاومه ، ولكن أتباع الفكر الغربي لم ينقلوا هذا المعنى في إطار الصورة التاريخية . وإنما حاولوا نقله ليكون في مواجهة مفهوم الغيب الاسلامي الذي هو حقيقة أساسية في العقيدة الاسلامية . ويقوم على بيّنات أصيلة من الوحي والقرآن والذي لا يتعارض أبداً مع المنهج العلمي بل يكمله ويضع له الجانب المواجه لعالم الشهادة المادي الذي يقف المنهج العلمي الغربي عند أبوابه .

ففي القرآن التقى الوحي والعقل لأول مرة . وقد يعرض الدين شيئاً

يتجاوز حدود الفهم . ولكنه لا يعرض شيئاً يتجاوز حدود الإدراك مطلقاً [1]
فالفكر الاسلامي ينكر أن المعرفة الانسانية قاصرة على معطيات الحواس . ولكنه لا يفضل بين العقل والوجدان ، فلا يكبر العقل البشري ولا يلغيه ، ولا يعارض العلم . ولكنه لا يسلم بأنه كل شيء ، فالعلم على قوته لا يتناول سوى مظاهر الحيـــاة الخارجية ، وهو لا يستطيع أن يقول الكلمة الأخيرة . ولا يستطيع أن يتجاوز دائرته في مجال المادة . وهو يلائم بين الكلمة والسلوك ويطابق بــين الدين والعلم . ويوازن بين العقل والقلب . ويربط بين الفردية والجماعية . وهو لا يقرّ طغيان المفهوم المادي ولا المفهوم الاقتصادي على تفسير الحياة أو تفسير التاريخ ، ولا يقر تقويم كل ما في الحياة بالمال . فذلك منهج العقل الذهبي .

ومن هنا يلتمس المنهج العلمي الاسلامي الفطرة ، فلا يتصادم العقـــل ولا يعارض الروح ولا يخالف طبائع الأشياء ، ومن ثم فلا يقع الالحاد في دائرته .

فالاسلام نظـــام اجتماعي وأسلوب للعيش ، لا يقر السلبية والانطوائية والهروب من الحياة . وهو في نفس الوقت لا يقر الترف والسرف والاندفاع إلى الإباحية .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الاسلامي يتعارض مع المنهج العلمي الغربي في أصول متعددة : أهمهـــا فكرة التقدم ، وفكرة التطور ، وفكرة نسبية الأخلاق .

وأما التقدم . فالمنهج الغربي ينظر إليه في إطار مادي . ولذلك فهو يحكم بأن البشرية تجري في طريق الارتقاء جيلا بعد جيل .

أما التقدم في مفهوم الاسلام . فهو تقدم معنوي ومادي في نفس الوقت ، أما التقدم المادي وحده فليس مقياساً صحيحاً .

---

١ ــ محمد عبده : رسالة التوحيد .

أما فكرة التطور المطلق فإنها تخطىء في تقدير المنهج العلمي الاسلامي من عدة وجوه : من حيث أنه لا يوجد تطور مطلق . وإنما هو تطور في إطار الثبات من حيث خط القول بأن الحاضر أكثر تقدماً من الماضي .

أما فكرة نسبية الأخـــلاق والعقائد . وهي مستمدة من فكرة التطور المطلق . فهي مما لا يقره المنهج العلمي الاسلامي ، لأنها تجعل من الدين مجموعة من المبادىء النسبية ، بينما الدين حقائق مطلقة ، وان اعتبارها قابلة للتطور يجعلها تتطور إلى ما لا نهاية ، ولا ريب أن المناهج والأيدلوجيات البشرية تتطور حتى تستطيع مواجهة التغييرات . أما الدين الحق فإنه إطار واسع محكم مستقبل لكل المتغيرات دون أن يفقد أصوله وحدوده وضوابطه الثابتة الراسخة على مدى الزمن .

فالاسلام يؤمن بما يتبدل ويتغير حسب البيئات والعصور في إطار ما هو ثابت راسخ ، وذلك في ضوء القاعدة الاسلامية الكبرى التي لا تفصل الدين عن الدنيا ، ولا تفصل الدنيا عن الآخرة . لقد حاولت نظرية فرويد إثبات أن الانسان عبد لنزواته وغرائزه الجنسية ، وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال على توجيه الانسان . وبهذه النظرية أدخل الانسان في حظيرة الحيوان وهو ما يتعارض مع مقررات الاسلام .

ومن هنا فإن محاولة فرض المنهج العلمي الغربي الوافد على النفسية والمزاج والروح الاسلامي من شأنه أن يحدث اضطراباً كبيراً . وقد جرى ذلك في العقدين السابقين من هذا القرن تحت تأثير النفوذ الاستعماري في محاولة لإخراج المسلمين والعرب من مواريثهم ومفاهيمهم وفرض أعراف جديدة عليهم مخالفة لجذورهم وأصولهم . ولما كانت هذه المحاولة مغايرة لطبائع الأشياء بالنسبة لفكر عميق الجذور ، مستمد من منهج رباني محكم ، فقد كان لا بد أن ينكسر قيد التبعية ويتحطم قيد التقليد ويتحرر الفكر الاسلامي من الدائرة المغلقة التي فرضت عليه بنفوذ المنهج العلمي الوافد .

ولا ريب أن منهج البحث (الأرجانون) لأي فكر لا بد أن يستند أساساً على خصائص اللغة ، ولذلك فإن منهج البحث العلمي الغربي الوافد إنما يستند الى خصائص لغة (أو لغات) غير العربية . ولما كان لكل لغة منهجها الفكري القائم على معانيها ومضامينها الأصلية فإنه من المستحيل استمرار سيطرة المنهج العلمي الغربي الوافد على الفكر الاسلامي . وهي نفس التجربة الأولى التي واجهها في القرن الثالث الهجري حين حاول المنهج الأرسطي المستند الى خصائص اللغة اليونانية أن يسيطر ، أو يحتوي الفكر الاسلامي. غير أن الطابع الخاص الذي أقيم عليه المنهج العلمي الاسلامي قد كسر هذا التحدي وحطمه . وهذه إحدى خواص هذا المنهج دوماً وهي قدرته على تجاوز أي محاولة لاحتوائه أو إفساد مضامينه ، أما الخاصية الأخرى فهي قدرته الدائمة على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره ، كلما انحرف هذا الفكر أو أصابته دخائل في محاولة تحويله عن جوهره .

- ٨ -

إن أبرز ما يتسم به المنهج العلمي الاسلامي ويتجاوز فيه المنهج العلمي الغربي الوافد هو : الترابط بين المادي والروحي في الانسان ، والفصل بين الله الخالق والكون المخلوق . أما هذا الترابط فهو ليس ثنائية ، ولكنه تكامل . وامـا هذا الفصل فلا يمثل فراغاً ولكنه يحدد العلاقة الحقيقية بين الله والكون .

والاعتقاد بأن الانسان جسم وبَدَنٌ فقـط ، ينقص الانسان أكبر عناصر الانسانية ، وهي النفس أو الروح أو ذلـك الوجدان المدرك الذي وصف من أجله بأنه من أولي الألباب . فإذا تجاوزنا هذا الجانب في الانسان سقطت فكرة المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي ، ومفهوم المنهج العلمي في الاسلام يقيم الترابط والتكامل بين شطري الحيـاة والانسان . ومن هذا التعامل يقدم هذا المنهج : فطرة الله في الحيـــاة ، وفطرة الله في الغيب . عالمُ الحياة فتح الله للانسان فيه آفاقَ العلم والبحث . وأعطاه فهـم النواميس والقوانين التي تمكن من بناء الحياة وإقامة العمران ، وعـــالمُ الغيب رسمه الله للانسان بالوحي صورة كاملة ليحمي عقله وكيانه من البحث وراءها بالعقـــل المجرد الذي لا يستطيـع أن يصل بمفرده الى اكتناه أسرار هذا العالم .

ويبدو هذا التكامل في الملاءمة بين جسم الانسان وروحه ، وبين عقـــل الانسان وقلبه ، وبين الخالق والمخلوق ، وبين الدين والآخرة ، وبين العـــلم

والعمل ، وبين السلوك والجزاء ، وبين الذكر والأنثى ، وبين الحياة والموت ، هذه هي سُنَّةُ الفكر الاسلامي ، وقانونه الأكبر الذي يقدم عليه منهجه العلمي ، فالله خالق والانسان مخلوق . والله هو الأول والآخر ، والكون له أول وآخر .

وفي الانسان تكون الصلة بين الروح والجسد بالانسجام والتكامل دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، ولا بد من ترابط دائم بين الحياة والموت على أساس أن الحياة منطلق للجزاء بعد الموت والبعث .

ومن هنا فالمنهج الاسلامي في المعرفة والبحث : يقوم على أساس أنه لا صراع بين الجسم والروح بل تكامل ولا وحدة بين الله والعالم ، بل ارتباط المخلوق بخالقه .

ومن هنا يدعو الاسلام الى ابتغاء الآخرة دون نسيان نصيب الدنيا، وينكر تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ثم في نفس الوقت ينكر السرف والترف والتفريط . فهي موازنة دون الرهبانية ودون الانحلال . ومن هنا يتمثل وجود الانسان على هذه الأرض من خلال رسالة ، وفي إطار عقيدة : أما الرسالة فهي عبادة الله بالعمل على الوجه الصحيح ، وأما العقيدة فهي وحدانية الله والإيمان به خالقاً فرداً والكون كله مخلوق له .

ومن خلال هذا المفهوم ينبعث المنهج العلمي الاسلامي على نحو مغاير ومخالف للمنهج العلمي الغربي الوافد الذي يحاول أن يطرح مفاهيم إنكار الألوهية ، وإنكار الغيب وإنكار البعث ، وإنكار الجزاء ، والدعوة الى وحدة الوجود ، والى تأليه المادة ، والى عبادة الأبطال . ومنهج المعرفة في الاسلام حيث يتكامل بالعقل والقلب مما لا يستقل بنفسه . وإنما يتحرك من خلال الإيمان بالله والنبوة

والوحي ، ويعمل في إطار واضح مرن ، واسع الأفق ، له جذوره ، وآفاقه ، وله أسسه الثابتة وركائزه المكينة ، وفيه بعد ذلك اتساع وانطلاق ، وقدرة على الحركة والتشكل ، ويقبل لكل القوانين التغيير والتطور .

ومن هنا فإن الانسان كائن له جسد وروح ، ولا يمكن محاكمته وفق منهج التجريب الذي تحاكم به القوى المادية ، ولا تنطبق عليه التجارب التي تجري على الحيوان ، وله منهجه الخاص الذي يعترف بكيانه ومنه تنطلق المفاهيم الخاصة بمجتمعه ونفسه وأخلاقه وتربيته وشؤونه السياسية والاقتصادية .

والانسان في إطار هذا المنهج العلمي الأساسي : ليس سيد هذا الكون المطلق على نحو ما ترسم بعض فلسفات الفكر الغربي ، وليس حشرة أو ترساً في إله كما ترسم فلسفات غربية أخرى . وليس حيوانـاً تحكمه الغريزة والجنس كما ترسم فلسفات غربية ثالثة . وإنمـا هو أشرف المخلوقات ، مستخلف في الأرض بأمر الله ، ليس عبداً مستذَلاً ولا رقيقاً ولا خاضعاً لعبودية إنسان آخر ، مهما يكن ، وليس خاضعاً لوثنية من أيّ نوع ، ولكنه خاضع لله وحده .

والفكر الاسلامي على هذا النحو صالح لكل زمان ومكان وقـــادر على مواجهة أزمات الفكر والحضارة وليس في حاجة الى تطوير . لأنه ليس بنـاءً بشرياً يخضع لظروف التحلل والتغير .

فمنهج الاسلام منبثق من الفطرة الأصيلة، قابل لنواميس الكون والاجتماع . ومن هنا فهو عسير على حملات إسقاطه وشبهات خصومه . وهو في هذا مغاير لمنهج الفكر الغربي الذي لا يستقر على وضع معيّن ، والذي يتحول بـين مرحلة ومرحلة ويتغيّر جلده ، لأنه لا يرتبط بـــأي قاعدة من الثوابت أو الركائز الأساسية . بينما يتحول الفكر الاسلامي ويتطور من داخله بين دورة ودورة ،

ومرحلة وأخرى دون أن يتغير إطاره العام الثابت القائم على التوحيد، والإيمان باليوم الآخر ، والالتزام الأخلاقي ، والمسؤولية الفردية والجزاء بعد البعث ، والانبعاث من نفس الأصول الأولى ، والتجدد الدائم من المنابع الأصيلة .

ومن هنا يبدو الخلاف والتباين بين فكر وفكر ، فكر يثبت على قوائمه ويتجدد من الداخل . وفكر يتطور الى ما لا نهاية دون أن يثبت على أي قيم أخلاقية أو اجتماعية . فكر ينبعث من مفهوم جامع للمادة والروح . وفكر ينطلق من فكرة المادة وحدها .

- ٩ -

إن المراجعة الواسعة للفوارق والمعارضات بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي . تؤكد أنها عالمان منفصلان قد يؤثر أحدهما في الآخر ، ولكن لا يسيطر الوافد منها على الأصيل . والتباين يقوم على اختلاف الأساس بين المنهجين ، واختلاف أسلوب البحث ، واختلاف المزاج ، واختلاف النظرة ، واختلاف النفسية ، واختلاف العقلية اختلافاً جوهرياً وعميقاً .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الغربي الوافد حين طرح نفسه في أفق الفكر الاسلامي . إنما أراد إجراء محاولات ضخمة لاحتواء الفكر الاسلامي وإذابته ، منها محاولات فرض مفهوم القومية أو الوطنية بديلاً عن العقيدة ، وفرض علم النفس بديلاً عن الدين ، وفرض أيدلوجيات الماركسية والديمقراطية بديلاً عن الشورى والعدل الاجتماعي . ولم يكن في الإمكان فرض هذه القيم وهذه المفاهيم إلا بفرض أصول المنهج العلمي الغربي الوافد الذي يمكن عن طريقه استيعاب هذه النظريات وتقبلها في محاولة لصياغة العقلية الاسلامية ، وأسلوب تفكيرها، ونظرتها الى طبائع الأشياء في قوالب الغرب . وما تزال المحاولة تجري ، وما زالت المقاومة مستمرة .

* * *

إن المفهوم العلمي الاسلامي الجامع بين الوحي والعقل . ينبعث من الحقائق الثابتة . بينما المفهوم العلمي الغربي قائم على الفروض والقرائن التي توضع موضع

التجربة . والحقائق غير القرائن . والمفهوم العلمي الاسلامي يقرر أن لكل قيمة وجهين متكاملين : مادي ومعنوي لا انفصال بينهما ، بينما يقرر المفهوم العلمي الغربي ، أن لكل قيمة وجهاً واحداً ، فهو إمـــا مادي فيعترف به ، وإما معنوي فيوضع في حساب الغيبيات . وهذا المفهوم الاسلامي المتكامل قد يعجز العقل الغربي حين يرتاد البحث في الفكر الاسلامي . فلا يستطيع البـــاحث الغربي استيعابه وفق طبيعته العقلية الجزئية الانشطارية . فإذا كان عمق البيان العربي في اللغة والمضمون عاملاً آخر يعجز الباحث الغربي عرفنا إلى أي حد تتعثر نظريات المستشرقين والباحثين الغربيين حين دراستهم مفاهيم الاسلام .

* * *

ولا ريب أن أي منهج وافد سيلقى في أفق الفكر الاسلامي خيبة وفشلاً . وأن الماركسية والليبرالية والديمقراطية الغربية والقومية الوافدة قد عجزت عن أن تقدم للمسلمين والعرب ما يرضيهم . وقد لقيت صعاباً شديدة في مواجهة اصالة الفكر الاسلامي ومنهجه العلمي المتكامل ، الذي استمد أصوله من منهج محكم رباني تعجز المناهج البشرية أن تقتحمه أو تستوعبه أو تسيطر عليه . وأن هذه المناهج حين تطرح نفسها في أفق الفكر الاسلامي . فإنها سرعان مـــا ينكشف نقصها وعجزها عن العطاء الذي تتطلع إليه النفس العربية الاسلامية من خلال مفهومها الجامع المحكم الذي أمدّها به الاسلام منذ أربعة عشر قرناً . والذي مهما نحّي عنها قسراً فإنه قائم في أعماقها . ولقد تكشف بوضوح من خلال وقائع التاريخ وتجارب الأمم أن المسلمين والعرب « لا يقادون » إلى نهضة أو إصلاح في مجالات حياتهم إلا في ظل الدين الإلهـــي الصحيح الذي يروض أخلاقهم ويعبد قلوبهم ويطوع ضمائرهم ويكون أساليب تفكيرهم[1] .

---

١ – من بحث للاستاذ عبد المنعم خلاف .

إن النظرية الغربية الوافدة هي من صنع قوم آخرين أقاموها على مقاييس مجتمعهم وابتدعوها في ظل تحدياتهم الواقعية والتاريخية جميعاً .

ولقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الغربي نتيجة الاستعمار والسيطرة التي فرضها النفوذ الأجنبي على التعليم والصحافة والثقافة ، ولقد كانت مقومات الفكر الاسلامي القائمة على أساس التوحيد حائلة دون انصهاره أو احتوائه ان الاسلام وحده هو المنهج القادر على إعطاء المسلمين والعرب مكانهم الحق في البشرية ، وأن حضارة المسلمين لن تقوم على العلم وحده ، بل على علم من داخل عقيدة . لاسيا وقد بان خطأ اعتناق فلسفة المجتمعات المتقدمة . فقد رفضت روسيا أيدلوجية الغرب . كما رفضت الصين أيدلوجية روسيا[1] .

١ – من بحث لجلال كشك .

الفصل الثاني

الأخطاء في مقارنات الأديان

الاسلام في علم (مقارنات الأديان)

١ ـ إن أخطر ما قدمه المنهج العلمي الغربي الوافد ما أطلق عليه اسم مقارنات الأديان . وهي دراسات تقوم على دراسة الأديان من خلال مناهج بحث مختلفة ، وتنظر إليها من خلال قاعدة أساسية تقول بأن الأديان ظاهرة اجتماعية ظهرت كما ظهرت الجماعة البشرية ، وأنها لم تنزل من السماء . ولا ريب أن هذه القاعدة التي لا يقرها منهج الفكر الاسلامي هي بعيدة الأثر في النتائج التي تترتب عليها . لأنها تنكر أول ما تنكر الوحي والنبوة والقيم الثابتة في الدين كما تنكر عالم الغيب ويومَ البعث والجزاء والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

ومن خلال نتائج علم مقارنات الأديان تخرج النظريات ، ثم تتحول بعدُ من افتراضات الى حقائق ومسلمات .

٢ ـ وأخطر الوسائل والأدوات التي يتخذها علم مقارنات الأديان هو المقارنة بين الدين ، وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير ، في محاولة للوصول الى الغاية التي يقصد إليها هذا العلم : وهي الاستنتاج بأن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير التي لا تصلح إلا للتلهية وإمتاع الخيال .

ولا ريب أن المنهج العلمي الغربي (الوافد) لا يخلص من الزيف حين يربط

بين الأديان والأساطير . وأن منهج الفكر الاسلامي يفرق بينهما . وهذا في حد ذاته يكشف عن أن المنهج العلمي الغربي الوافد ليس محرَّراً وليس خالصاً من الهوى والعصبية ، وليس حرًّا بالقدر الذي يكفل له الإنصاف والرغبة في الوصول الى الحقيقة .

ولا ريب أن هذه المقارنة (غير العلمية) تترك للقارىء أن يستنتج أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير ، بينما جاءت الأديان لتحرير البشرية من السحر والقوى الخفية والخيال الخائف الذاهب وراء الأوهام . جاءت الأديان بالحقيقة الساطعة ، فألقت الضوء الكاشف على النفس الانسانية وأخرجتها من ظلمات الأساطير والأوهام .

٣ – ويحاول « علم مقارنات الأديان » أن يصل الى افتراض يروج له المنهج العلمي الغربي الوافد وهو أن البشرية بدأت في طفولتها بالوثنيات . ثم ارتفعت الى التوحيد . وأن الأديان تطورت وتتطور . وهي فروض باطلة تدحضها نصوص التاريخ والوثائق والحفريات . ويدحضها القرآن نفسه . وهو النص الموثق الخالد . فإن آدم أبا البشر . كان على علم ، وكان يعرف التوحيد ويؤمن بالإله الواحد . ومعنى هذا أن البشرية بدأت موحدة ، ثم انحرفت ، وأنها واجهت صراعاً بين الأديان الداعية الى التوحيد والدعوات المادية والوثنية ، وكلما انحرفت البشرية جاءت الأديان ترد الناس الى التوحيد ، الى أن جاء الاسلام دعوة عالمية خاتمة .

ولقد واجه الاسلام قضية التوحيد والوثنية على نحو مستفيض حاسم، وكشف عن انحراف البشرية الدائم عن عقيدة التوحيد ، وأشار الى عبرة التاريخ وقانون الأمم وناموس الحضارات .

ولا يعترف الاسلام بما يسمى تطور الأديان ، فالأديان السماوية لا تتطور ، وإنما تتطور الأديان البشرية والأيدلوجيات والمذاهب الفلسفية التي لا تستطيع

أن تواجه تغير الأزمان والبيئات . أما الاسلام فإنه دين محكم قد أقامه الله على أصول الثبات وعناصر التغيير والحركة .

ولذلك فإن الاسلام يرفض ما يطرحه المنهج العلمي الغربي الوافد من القول بأن البشرية مرت بثلاثة أدوار هي : (الخرافة – الغيبيات – العلم) كما ينكر النظرية الأسطورية الطموطمية عن نشوء الأديان التي تدعي أن الابن أراد الاعتداء جنسياً على أمه فمنعه أبوه فقتله فندم . فنشأت المحرمات . أو القول بأن فكرة الألوهية بدأت بعبادة الحجر والحيوان والانسان . ثم الإله ثم العلم »[1] .

والمفهوم الاسلامي في هذا . هو أن الاسلام بدأ مع بداية البشر ، بدأ بالتوحيد ، ثم وقعت الانحرافات على مدى العصور بتقديس بعض الأشياء ، ثم نسي الناس بمرور الزمن أن هذه الأشياء مجرد واسطة فعبدوها من دون الله . ومع أن بعض العلماء ينكرون فكرة التطور . ويقدمون الأدلة والبراهين على صدق فكرة التوحيد . غير ان (المنهج العلمي الغربي الوافد) يحرص دائماً على أن يركز على نظرية التطور ويدفع بها في قوة ويبشر بها في حماسة زائدة في أفق الفكر الاسلامي .

والمعروف أن أفكاراً كثيرة أصر (المنهج العلمي الغربي الوافد) على التبشير بها . والدعوة إليها مع أنها كانت قد دحضت عند أصحابها أنفسهم وفي محيطهم. ولكنه رغبة في تزييف أفق الفكر الاسلامي وإثارة الشبهات حوله ، قد حرص « التغريب » عن طريق مؤسسات التبشير ، والاستشراق ، والثقافة العالمية ، ومعاهد الإرساليات ، على طرح هذه النظريات والدفاع عنها . والتهوين من شأن ما يكون قد جرى من أجل الاجتهاد فيها ، ولا يقلل هذا التصحيح من خطر المنهج نفسه في أصله وكيانه . لأنه قائم فعلاً على أساس مادي ، وأن هذا

---

١ – عن بحث لمجلة حضارة الاسلام (....) .

الخلاف إنما يجري في الفروع . وقد يعنى البعض بعرض الفرضين : الى جوار بعضها البعض ، ومع كل فرض أدلة تدعمه دون أن يرجح أحدهما أو يحسم الموقف بوجهة نظر الفكر الاسلامي .

٤ – يحاول علم مقارنة الأديان أن يطرح مفهوم الألوهية (الله) من خلال تفسيرات تخرج بها عن مفهومها الصحيح . وذلك بالتركيز على التجريد أو التجسيد .

أ – أما التجريد فيحاول أن يعد (الله) – سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً – فكرة مجردة . وقوة خارقة مخوفة ، ولقد كانت فكرة الإله القبلي (رب الجنود) هي طابع المعتقدات الوثنية في العصور المتفاوتة . وجاءت اليهودية فاعتنقت هذا المفهوم : إله شعب من الشعوب بينما يقرر الاسلام أن الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم . هو رب الناس جميعاً . ومن مفهوم الإله القبلي ظهرت في اليهودية بعد التحريف فكرة شعب الله المختار الذي يفني شعبه كل الأمم . وتهدف محاولة ترويج هذه النظرية الى إذاعة الدعوة الصهيونية ، فكرة عهد الله الى ابراهيم ، ومن بعده الى اسرائيل على النحو الذي أوردته (التوراة) . وهي فكرة زائفة . لأن الملك العظيم الذي أعطاه الله لابراهيم إنما عممه في الصالحين من أبنائه جميعاً وذريتهم . (اسماعيل واسحاق) ولم يجعله قاصراً على ذرية اسرائيل وحدها .

ولقد أسقط الاسلام النظرة الباطلة التي كانت موجودة حول الإله : الإله المخيف الجبار . وأقام المفهوم الحقيقي لله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يقبل التوبة ويدعو الى المغفرة . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . والذي أباح للمضطرين الاضطرار . ولم يجعل التكليف إلا على قدر الاستطاعة .

ب – أما التجسيد فهو محاولة القول بأن الله تجسد في إنسان . ونزل الى الأرض كمخلص يضحي بنفسه فداءً للبشر .

وقد أعـــاد الاسلام توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادي في تمسك بعض الأديان بهذه الحقيقة الجوهرية[1] . ولقد قرر الاسلام وحدانية الله وقضت تعاليمه على التجريد والتجسيد جميعاً .

٥ – إن علم مقارنة الأديان قد سقـط أخيراً في أيدي اليهودية التلمودية ، التي تحاول بإجراء مقارنتها بـــين الدين والأساطير ، أن تمحو قداسة الدين ، وتظهر الأنبياء بمظهر غير كريم ، وتقضي على طابـــع القداسة في النص ، والإيمان في النفوس . ولذلك فقد عمدت الى وضـع الدين في ضوء عدد من المناهج في محاولة لتقديم تفسيرات متعددة متباينة تعين على البلبلة وتستأثر بتفكير الباحثين في المجالات المختلفة . ومن هـــذه المناهج : التفسير السيكولوجي للدين . والتفسير الفيتوميفلوجي للدين والتفسير الفلسفي للدين والتفسير التاريخي للدين . وهـــذه التفاسير تحاول أن تصور الدين . (أولاً) بأنه ظاهرة اجتماعية لا رسالة سماوية . (ثانيـــاً) أنه علاقة وحدانية أو نفسانية أو تعبدية ، وهي بهذا تتجاهل مفهومه الرباني القائم على الوحي وتنتقص مفهومه الكامل في أنه عبادة ومنهج حياة . وتصدر هذه النظريات في أصولها الأولى من مصدرين ، أولهما مفهوم الدين في الفكر الغربي ، ووفق تفسيرات الأديان . والثاني : مفهوم المذهب المـــادي . ويعرض علم مقارنة الأديان للفلسفات الشرقية الغنوصية وأثرها في الأديان البوذية والهندوكية وغيرهـــا كما يعرض للفلسفات الهلينية وأثرها في الدين المسيحي الغربي ، ثم يعجز العلم عن استيعاب مفهوم الاسلام . تحت تأثير : (أولاً) المفهوم المادي الذي يحاول أن يعتبر الاسلام من عمـــل محمد . (ثانياً) الهوى والتعصب الديني الذي يحاول أن يعتبر القرآن جماعـــاً من الكتب السماوية السابقة . واعتبار أن القرآن كتاب غـــير سماوي . (ثالثاً) العجز عن فهم العلاقة بين الألوهية والنبوة – والعلاقة بـــين الله

١ – عن نص لأرنولد توينبي .

والعالم . ويرجع هذا العجز الى أمرين : (أولهما) عدم قدرة الفكر الغربي على استيعاب مفاهيم تختلف عن مفاهيمه . (ثانياً) تأصل مفهوم أن الكتاب المقدس هو من عمل الرسل . وأن العلاقة بين الله والعالم في الفكر المسيحي تقوم على وحدة الوجود . ومن هنـــا فإن أحكام (المنهج العلمي الغربي الوافد) تعجز عن فهم مجموعة من الحقائق الأساسية هي :

أولاً – ان الاسلام رسالة سماوية وان محمداً ﷺ هو النبي الموحى إليه بالقرآن ولأن الاسلام والقرآن هما من عنـــد الله شأنهما شأن الأديان والكتب السماوية التي أرسلها الله للبشرية . ولذلك فإن هناك لا ريب اتفاقاً بينها في الأصل وهو توحيد الله واليوم الآخر ، والجزاء والأخـلاق والشرائع وإن اختلفت التفاصيل .

ثانياً – ان الله سبحانه وتعالى لا يتجسد في أي صورة من صور الناس . وليس له ولد ، وأنه خالق العالم . ولذلك فإن بين الألوهية والنبوة – كما بَيْنَ الله والعالم – فواصل لا يمكن أن تمتزج أو تتحد .

ثالثاً – ان القرآن هو كتاب الله المنزل ، أما الكتاب المقدس فهو من عمـــل الرسل . وليس منزلاً من عند الله باعتراف جامع من الباحثين والعلماء في المسيحية واليهودية .

رابعاً – ان الآلهة المتعددة ليست هي الله ، فالله هو الخالق الأول والآخر الذي لا شريك له ، ليس كمثله شيء ، والله سبحانه هو خالق الانسان . وهو صانع المنهج للانسان وللبشرية . والانسان من خلق الله، وهو مستخلف في الأرض . وان الحق تبارك وتعالى هو مالك الملك ، وهو يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة . وانه لو تخـلى عنه لتلاشى وانتهى . وهو خالق العالم وهو الذي يديره لحظة بعد أخرى . وانه سبحانه يعـــلم الكليات والجزئيات ؛ ونواميس الكون وقوانينه هي من صنـــع الله ،

وهو وحده الذي يخرق هذه النواميس ، وهو المحيـــط بالعوامل التي تخفى علينا .

ولقد فصل الاسلام بين الألوهية والبشرية فلا يمكن أن يرقى الانسان الى مرتبة الألوهية ، وألغى الوساطة بـين الله والانسان . ولا يقر الاسلام مظهراً إنسانياً لطبيعة إلهية . وجملة مفهوم الاسلام أنه فصل بين الله والعـالم ، وفصل بين الألوهية والبشرية . فلا يمكن أن يرقى الانسان الى مرتبة الألوهية .

٦ – ان أغلب نظريات تاريخ الأديان ومقارنة الأديان تقوم على مجرد افتراضات، وان مفهوم الدين في أغلب الأيدلوجيات قـــاصر بالنسبة للمنهج العلمي الاسلامي (مفهوم ماركس وسارتر وفرويد) والمدرسة الاجـــتماعية . وعندما قال ماركس إن الدين أفيون الشعوب كان ينظر الى تاريخ أوربا وحده. حيث أصبح الدين في أوربا وسيلة لتخدير الجماهير وتبرير استغلالها. وقد غالى كارل ماركس في حملته على المسيحية ، زاعماً أنها هي التي بررت الرق والاستعباد . ويعني هـــذا أن الدين يصبح غير ذي موضوع في الماركسية . كذلك فإن التعريف الذي وضعه المنهـج العلمي الغربي للدين لا ينطبق على الاسلام ، لقد نادى فلاسفة أوربا ومفكروها بفصـل الدين عن الدولة ؛ لما تبين لهم أن الدين لا يصلح أن يكون منهاجاً تسير في ضوئه الحياة المتطورة .

٧ – ان أخطر مقررات علم مقارنة الأديان هو مفهوم الدين نفسه : « فالدين على ما فهمه علماء أوربا هو الذي ينظم علاقة الانسان بالله » ، « فلا علاقة[١] له بالحياة السياسية ولا بالأوضاع الاجتماعية ، ولا بالقوانين والنظم ، ولا يصح أن تبنى عليه الجامعة الوطنية » . وليس هـــذا المفهوم صحيحاً بالنسبة للاسلام . فالاسلام جامعة فكر ، ورابطة عقيدة .

---

١ – من بحث لأحد علماء الاجتماع الاسلامي .

٨ – إن موقف الفكر الاسلامي من قضية المـــادة والفكر يختلف عن موقف المنهج العلمي الغربي . فحينما[1] تقول المادية : ان المادة هي الوجود الأول ، فإن الاسلام يقرر بخلافها معاً أن المادة والفكر كلاهما بعكس الآخر . ولا يسبق أحدهما الآخر ، فالطبيعة مادة وفكر ، والانسان مـــادة وفكر وهما معـــاً خلق الله ، الواحد الذي يدبر أمرهما بعلم واحد يسبقها ويتجاوزهما .

٩ – ان الفهم الغربي للعقائد والألوهية قـــد نشأ مستمداً من صورة الدين التي عرفها الفكر الغربي وان المفهوم الاسلامي للدين لم يكن موضوعاً في تقدير أصحاب النظريات (ماركس – فرويد – سارتر – دوركايم) تعصبـاً أو جهلاً . وأقل تصوير للألوهية ما يردده ينتشه حين يقول (لو كان هنـاك آلهة من البشر فكيف أطيق أن لا أكون أنا إلهاً) ولو تجـاوز الفلاسفة التعصب والهوى لأتاحت لهم معرفة مفهوم الاسلام تقديراً مختلفـــاً لفهم الانسان والحياة والمجتمع .

١٠ – ان طابع العقيدة التلمودية واضح الأثر في محاولة احتواء الفكر الغربي . وفرض سلطان اليهودية عليه . وقد أشار الى هـذا المعنى المؤرخ الكبير (أرنولد توينبي) . ولا ريب أن الروح التي تسيطر على الحضارة الغربية في الاستعمار والتسلط والمطامع ليست هي روح المسيحية بقدر مـــا هي روح التلمودية . كذلك فإن الترويج لعقيدة نهاية الحياة بالموت ، وإنـكار البعث فكرة تلمودية فشت الآن في مناهـج الفكر الغربي وسيطرت على كل الفلسفات والمذاهب الحديثة .

ولا ريب أن الدعوة الى إنكار عقيدة البعث إنمـا يهدف الى إلغاء المسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي الذي هو قوام أمانة الانسان في الحياة الدنيـــا .

---

١ – أحمد موسى سالم : في بحثه جريدة الأخبار سنة ١٩٧٢ .

فإذا انحلت هذه العقيدة « قادت الناس شهواتهم وضاعت الشكائم التي تملكهم . وأصبح المرء لا يرى له حياة إلا هذه الحياة ، فاندفع يحصل الشهوات ويقتحمها من كل سبيل . واذا لم يكن هناك جزاء تفتحت الغرائز واندفعت الى الشر » .

وتحاول الفلسفات التلمودية المطروحة من خلال فرويد وسارتر وماركس ودوركايم وليفي بريـل أن تقول بأن الجزاء يجري في الدنيا وكذلك العقاب . كما تحاول أن تبث فكرة أن الجنة على الأرض ، وان البعث هو عودة اليهود الى السيطرة على العالم .

١١ – في مواجهة مفاهيم عـــلم مقارنات الأديان يقف الفكر الاسلامي موقف الصلابة في إنكار فكرة وحدة الوجود التي تكاد تكون حجراً أساسياً في الفكر الغربي الديني . وكذلك في الفكر الغنوصي الشرقي كله .

ذلك أن القول بوحدة الوجود ؛ إنما هو نفي للألوهية وإثبـــات للكائنات وحدها . ووحدةُ الوجود عنوان آخر للالحاد بوجود الله ، والاعتقاد بأن المادة وحدها الموجودة . ما دام لا يوجد شيء وراء هذا العـالم فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه . والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم ، وهم يتصورون أن العالم أزلي أبدي . وأن الأرواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى . وقد تكون أجساد حيوانات . وان قصة الحياة تدور في هذا النطاق المحصور وتبدأ من حيث تنتهي . ومفهوم وحـــدة الوجود يقضي على قاعدة المسؤولية التي هي منـــاط الثواب والعقاب . ومفهوم الاسلام يقوم على القول بأن الله سبحانه وتعالى هو واجب الوجود : وهو الأول والآخر لا يسبقه شيء ، وهو علة كل موجود ، وهو واحد سرمد ، لا يحده زمان ولا مكان . وان الكون ممكن الوجود وهو صادر عن شيء يسبقه ، وغير قائم بذاته .

أما القول بحلول الخالق في المخلوق أو تجسد الخالق فمن المعتقدات البـاطلة التي تناقض مبدأ التوحيد لأن الله هو الموجد الحقيقي ، وأما الانسان فهو كائن

يستمد وجوده من الله — شأنه شأن الكائنات الأخرى — ويقرر الاسلام أن فكرة الحلول — كفكرة وحدة الوجود — تناقض مفهوم التوحيد وتنزيه الله عز وجل عن الخلق . وهي لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً منتقلاً . وذلك يتنافى مع صفات الله : كالبقاء والقيام بالنفس . وقد دخلت هذه المفاهيم الزائفة الى الفكر الاسلامي في مراحل مختلفة وأثرت في مفاهيم التصوف والأخلاق (على النحو الذي عرف عند محيي الدين بن عربي والحلاج وابن سبعين .

ولا ريب أن إعجاب المستشرقين والمفكرين الغربيين بمفاهيم التصوف الفلسفي ، والاعتزال ، والتركيز عليها وإذاعتها إنما يرجع الى أن هذه المفاهيم تنحرف بالاسلام عن مفهومه الأصيل وذاتيته الخاصة وتدخله في تبعية الفكر الغربي المسيحي . فيبتعد الاسلام عن مقدرته الفائقة في بناء الفرد والأمة ، ويقضي على روحه وحيويته ، ولا ريب أن فكرة الحلول تقول بالطبيعة المزدوجة الإلهية والانسانية ، وهذا كله يقضي في النهاية على هدف الشريعة التي أقامها الاسلام لبناء نفس الفرد ووضع مثل أعلى رباني أمامه .

ولما كان الاسلام حريصاً على تحديد مفهوم التوحيد ، فقد أعلن توحيد الألوهية . ولم يكتف بتوحيد الربوبية الذي كان موجوداً في أهل مكة قبل الاسلام وحمل معه جريرة الشرك : فتوحيد الربوبية هو الايمان بالله خالقاً ورازقاً . وقد أقر به المشركون في عصر النبي فلم يجزهم شيئاً ، أما توحيد الألوهية فيقوم على إخلاص العبادة والعمل كله لله وحده . وهو ما لم يقرّ به المشركون في الجاهلية .

١٢ — حاولت علوم مقارنات الأديان أن تطرح مفهوماً للبطولة والمثل العليا . وللمنهج العلمي الاسلامي مفهومه الواضح في الفارق بين النبوة والعبقرية ، وفي المثل الأعلى ، الذي يختلف اختلافاً واضحاً عن المنهج العلمي الغربي الوافد .

فالمنهج العلمي الغربي الوافد يحاول أن يجرد الأنبياء والرسل من صفة الوحي والنبوة ، وينظر إليهم على أنهم أبطال ودعاة حرية وعباقرة وأناس ممتازون عرفوا أزمات أممهم وقاموا لإصلاحها ، وقد استمد المنهج الغربي هذا المفهوم من طابعه الماديّ الخالص الذي ينكر عالم الغيب بكل ما يتصل به من قيم وحقائق .

أما المنهج الاسلامي العلمي الأصيل الجذور ، المنطلق من خلال فكر هذه الأمة ، فإنه يفرق بين النبوة من ناحية ، وبين البطولة والعبقرية والزعامة من ناحية أخرى . أما النبوة فهي ذلك الاختيار الإلهي لفرد من البشر ليحمل رسالة السماء الى الناس مؤيداً بالوحي وبالمعجزة وبالبينات، هذا النبي (كل رسول نبي والنبي أعمُّ من الرسول) مكلف بتبليغ شريعة الله الى قومه وبلسانهم ، ثم كان محمد ﷺ خاتم الرسل مبعوثاً الى العالمين كافة . أي الى الإنس والجن . ويتميز أنبياء الله بالصدق ، والفطانة ، والأمانة العلمية ، وسلامة الأبدان ، وفيما عدا هذا فَهُمْ « مساوون[1] لباقي النوع الانساني : يأكلون ويشربون وينامون ويألمون ويمرضون ويصابون بالأذى والبلاء ويموتون » .

أما العبقرية والبطولة فهي أمر دون النبوة بمراحل «وليس مبناها على الوحي من الله ، إنما هي نوع من الإلهام والقدرة على الابتكار وحل الأمور حلاً موفقاً » وقد أطلق العرب لفظ العبقرية على الفاخر من كل شيء . ويمكن أن توصف العبقرية بأنها « الإلهام بغير نبوة » وهذا ما عبر عنه النبي محمد ﷺ حين قال : (لقد كان فيما قبلكم محدثون) أي ملهمون في إصابة الحق والصواب . وفي حل المعضلات وفي ابتداع ما لم يسبقوا إليه (فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب) . والمحدث الملهم بالصواب . ومن هنا فإن النبي لا يوصف بالعبقرية أو

---

١ – دكتور علي القهاري : بحث في مجلة الأزهر سنة ١٩٦٢ .

البطولة أو الزعامة أو القيادة أو أنه رسول الحرية . فتلك معان مـــادية وهي دون مكانة النبي .



ويتصل بهذا موقف الاسلام من البطولة وتخليدها . فإنه لا يخلد البطل وإنما يخلد العمل ، ومن هنا فقد كان تحريم التماثيل والصور لا يرمي الى تجـاوز مفهوم الأوثان والوثنية « وإنما للاسلام ملحظ أدق من هذا : هو أن الاسلام عمـل على تحرير النفس الانسانية من التعلق بالأشخاص الفانين ومن تعظيم صورهم ، وقـد كان الرسولِ يقول لأصحابه : لا تعظموني كما كانت تعظم الأعاجم ملوكها ، ولا تجعلوا قبري وثناً ، والمقصود هو أن يتعلق القلب بالله الواحد القهـار ، والنفي القاطع أن يكون هناك بشر يتعلق به الناس على جهـة الإكبار ، والابتعاد عن الفناء في هذه الشخصيات » ومن هنا فإن « التماثيل تصرف القلوب عن التوحيد وتدعو الى فناء الشخصية في عبادة الفرد . فالتماثيل المقامـة هي ذريعة لعبادة الفرد وإلغاء الشخصية الانسانية في إنسان كان جباراً في يوم مـا ، ولكن الاسلام يقصد الى تحرير النفس الانسانية وتحقيق ذاتيتها ، وهذا هو الملحـظ الذي لم يقع عليه العلماء مما ترتب على إلغاء الذاتية الانسانية وأحدث فراغاً بين الذات الانسانية وبين خالقها فيما لا يتعلق إلا بالله[1] .

١٣ – أما فيما يتعلق بالمثل الأعلى . فإن المنهج العلمي الغربي الوافد يُقَدِّمُ نماذج مختلفة متضاربة ، ولا يقـدم مفهوماً واحداً ؛ يقدم صورة المسيحية في القديس المتبتل الزاهد في الدنيا معتزلاً الناس في الأديرة منعزلاً عن الحياة والناس ، مختلطة بنظرية السوبرمان التي قال بهـا نيتشه والتي تتمثل في ذلك الانسان الطاغية المستبد الأناني الجبار الذي يعتصم بالظـلم والقسوة

---

١ – دكتور محمد سعاد جلال من بحث له عن المفاهيم الاسلامية .

والجبروت . ويحتقر الصبر والحلم ، ويطالب بالقضاء على الضعفاء والمرضى ، ومنه ينطلق مفهوم « المنفعة » التي يقوم فيها العمل على أساس تحقيق غايات مع النسبية المتغيرة بتغير الزمان والمكان .

وهذا المفهوم الذي يقدمه المنهج العلمي الوافد يتعارض ويختلف مع مفهوم المنهج العلمي الاسلامي الذي يتمثل المثل الأعلى في الله سبحانه وتعالى ، وفيه تجتمع الكمالات المطلقة أقصى ما يستطيع عقل بشري أن يتصوره[1] .

(وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) . « وإذا كانت الرحمة في المسيحية رأس الكمالات . وإذا كانت القوة عند نيتشه قمة الفضائل . فقد جمع الله تعالى (في الاسلام) بين الرحمة والقوة في تعادل وتوازن فالله تعالى رحمن رحيم ودود غفور ، وهو تعالى في نفس الوقت قويّ قادر منتقم قهار جبار . وصفات الرحمة والمحبة فيه تعالى لا تطغى على صفات القوة والجبروت، كما أن صفات القوة والجبروت لا تطغى على صفات الرحمة والمحبة والغفران «فالله تعالى هو المثل الأعلى لكل من آمن بالاسلام ، فمن اهتدى بهدي الاسلام حق عليه الاقتداء بالله ومحاولة التحلي بصفاته الحسنى « والله تعالى يأمر عباده بمزاولة حياة القوة والبطش حين يدعو الداعي الى القوة والبطش ومباشرة الرحمة والحنان حين تمسّ الحاجة الى الرحمة والحنان. وهو يصف عباده برد العدوان. وإن حرم عليهم أن يبدأوا بالاعتداء (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيْنَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا) ويدعوهم الى المصابرة والمرابطة والإعداد والثبات في مواجهة العدو. وبهذا قضى الاسلام على الاستكانة والخنوع والمذلة والمسكنة، وأكد تعالى فكرة القصاص (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) ، وجمع الاسلام

---

١ - من بحث للدكتور توفيق الطويل عن المثل الأعلى .

بين الرحمة والمحبة والحنان ، ودعا الى القوة والفتك، وحذر المؤمن من استخدام قوته في الاعتداء على غيره . وإن أوجب أن ينهض لرد العدوان » .

١٤ – قرر الاسلام في مواجهة علـم مقارنات الأديان الوافد حقائق أساسية أهمها : أن العالم ليس سرمدياً وليس أزلياً ، وأن المجتمع كل متكامل يحمل الأقوياء فيه الضعفاء . يقوم على وحـدة الجنس البشري وينكر العبودية والعنصرية ، وان منهج المعرفة له جناحان : هما الروح والعقل . وأنه لا قداسة للعقل والإشراق ولا رهبانية . وان أخلاق الاسلام أخلاق تقوى ، وأنها تقوم على تأكيد الالتزام الخلقي والمسؤولية الفردية .

الفصل الثالث

أخطاء الشريعة والسنة

ترجع أخطاء المنهج العلمي الغربي الوافد في مجال الشريعة والسنة الى مفهوم هذا المنهج للدين وصلته بالوحي، ولما كان المنهج العلمي الوافد يقوم على أساس أن الدين ظاهرة اجتماعية خرجت من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها (على حد تعبير الدكتور طه حسين نقلاً عن دوركايم رأس مدرسة العلوم الاجتماعية) فإن مفهوم الاسلام: عقيدة وشريعة يصبح خاضعاً لنظرية الدين المقارن التي تقوم على أساس تطور الأديان. ومن هنا فإنها لا تستطيع أن تستوعب الألوهية أو النبوة أو الوحي.

ومن هنا تجيء أخطاؤها بالنسبة للشريعة، كما جاءت بالنسبة للعقيدة، ومن هنا أيضاً يواجه الفكر الاسلامي تلك المحاذير التي تتمثل في النظرة الجزئية وطابع الانشطارية الى مفاهيم الرسالة والرسول، والشريعة، والسنة وغيرها.

ولقد كان حقيقاً بالمنهج العلمي الغربي أن يحاكم الاسلام وفكره الى منهج يختلف من حيث النظرة الى الدين واللغة والتاريخ، والعوامل المختلفة الأساسية التي تشكل مناهج البحث في كل فكر وأمة ولغة.

ولا ريب أن فرض منهج فكر معين على فكر آخر هو عمل توجيهي تحكمي ولكنه لن يكون عملاً علمياً منصفاً. ذلك أنه يفرض أساليب وأهواء ومطامع أمة من الأمم على الأمم الأخرى.

فإذا كان المنهج العلمي الغربي في طبيعة تشكيله ليس منهجاً عاماً ولا إنسانياً لخضوعه الى دين الغرب وإعلاء الدم والجنس الغربي الأبيض ، وقيامه على النظرة التي تكتب التاريخ بادئاً بالغرب منتهياً بالغرب ، مع تجاهل أدوار الأمم الأخرى مهما كانت عظمتها وأثرها ، والفترة التي قامت بها (والمعروف أن حضارة الاسلام قامت وحدها ألف عام كاملة وتركت بصماتها على فكر وثقافة ولغات جميع الأمم التي اتصلت بها) ومع ذلك فالغرب يتجاهل هذه المرحلة ، ويرى أن الحضارة الرومانية انتهت عام ٤٥٠ م وأن الحضارة الغربية بدأت عام ١٤٠٠ م وأن الفترة بينهما هي العصور الوسطى المظلمة ، نعم هي مظلمة ولكن في أوربا وحدها . أما في العالم كله فقد كانت عصوراً مضيئة .

من هذا المنطلق : منطلق خصوصية المنهج العلمي الغربي وعنصريته ، نجد النظرة الى الاسلام وفكره ورسوله وشريعته نظرة يحكمها الهوى والتعصب . ونجد الدراسات منطلقها من عدة مواضع .

أولاً – محاولة الغرب الدائبة في السيطرة على عالم الاسلام حتى لا يستطيع أن يصل الى مكان القيادة العالمية أو التكامل والوحدة .

ثانياً – ما تزال مفاهيم الصراع بين الامبراطورية العثمانية وأوربا ، والتي امتدت ثلاثمائة عام تحكم النظرة بين الشرق والغرب من خلال منطلق يوصف بأنه الصراع بين المسيحية والاسلام ، وعلاماته في الغرب عدوان الحروب الصليبية على المشرق وحروب الفرنجة على المغرب وعدوان الاستعمار الغربي الحديث على العالم الاسلامي كله والسيطرة عليه .

ثالثاً – المفهوم القائم في الذهن الغربي والذي يحكم المنهج العلمي الغربي ، وهو أن أي تقدير للفكر الاسلامي ، أو تاريخ الحضارة الاسلامية يعارض نظرية الاستعمار التي تقوم على تمدين الشعوب المتخلفة والتي تبرر الاستيلاء والسيطرة بأن أوربا متقدمة والبلاد الاسلامية العربية متخلفة .

ويدخل الى هذه العوامل عامل جديد هو : المحاولة الدائبة التي تفرضها الصهيونية العالمية في مواجهة العروبة (فكراً ، وحضارة ، ولغة ، وتاريخاً) من أجل تزييف الحقائق وتبرير غزوها وسيطرتها على فلسطين وبيت المقدس وتوسعها من أجل إقامة امبراطورية يهودية في قلب العالم الاسلامي ترث النفوذ الاستعماري القديم .

وقد حاولت هذه الظاهرة الجديدة أن تستوعب الظواهر الأخرى وأن تحكمها وتستغلها .

- ٢ -

ولقد كانت شخصية الرسول محمد بن عبد الله ﷺ موضع تزييف خطير من جانب الباحثين وكانت نظرتهم مستمدة أساساً من المنهج العلمي الغربي الوافد وقائمة على أصوله .

فمن خلال مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد تجري محاولة لتصوير النبي محمد في صورة المصلح أو الثائر الذي « تتجمع فيه مطامح قومه وآمالهم » من أجل « نقل الأمة من وضع اجتماعي إلى وضع آخر » فهم ينكرون جميعاً مسألة النبوة والوحي ، ويرون أن القرآن من عمـــل محمد ، ويقررون أن (محمداً) ظهر في قومه في عهد ضعفت فيه الوثنية وفسدت المجتمعات وتهدمت الدول الكبرى والامبراطوريات ، وكانت الجزيرة العربية قد استعدت للنهوض فلما دعاهم نهضوا .

أما القرآن فهو « فيض وجدان محمد وصورة من انطباع نفسه بما كان يدور حوله ويقع أمام عينيه ، والوحي في نظر المنهج العلمي الوافد ليس إلا وحياً من داخل النفس لا من مصدر خارج عنها ، أي من « العقل الباطن لا من رب العالمين » .

ولا ريب أن هذا المفهوم يتعارض تماماً مع مفهوم الاسلام ويختلف معه في

أصوله وفروعه . أما الجزيرة العربية فقد كانت على قدر كبـــير من قسوة الجاهلية . وكانت مقاومتها لدعوة الاسلام ثلاثة عشر عاماً أبلغ دليل ، وكانت حربها للرسالة والرسول في معـــارك متعددة من أصدق الأدلة على أنها لم تكن مؤهلة لأي نهضة ، وان الاسلام هو الذي بنى الجماعة الاسلامية وشكلها في مكة ، ثم أقام بها الدولة في المدينة ، واستطاع في خلال ثلاثة وعشرين عاماً أن يدخل فيها شبه الجزيرة كلها ، وان مفاهيم الاسلام وقيمه وشريعته هي التي شقت طريقها في العالم كله محررة الأمم والنـــاس من عبودية القيصريات والامبراطوريات داعية إلى العدل والإخاء الانساني على نحو لا يستطيع المنهج العلمي الغربي الوافد استيعابه لأنه يقوم على أساس الإيمان والعدل وتحرير العقول والقلوب من الوثنية وتحرير الانسان من العبودية .

أما تلك الصورة الباهرة التي تكشف عنها سيرة الرسول فهي ليست من صنيع البطولة أو العبقرية أو العظمة الفردية التي تتمثل في المصلحين أو الثوار . ولكنها شيء آخر لا يفهم إلا على أساس فهم رسالات السماء ورسل الله الذين أرسلهم الى البشرية . وكان خاتمهم محمد بن عبد الله .

أما القرآن فهو وحي السماء وكلام الله ، وليس من صنيع محمد أسلوباً أو مضموناً . فإنه يختلف ويتجاوز كثيراً مقدرة البشر ومفاهيم عصر النبي ، والنبي مذكور فيه على أنه عبدٌ ، وأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ، يعيش ثم يموت ، وأن الأمر كله لله وحده الذي توجه إليه العبادة ، خالق كل شيء ، صانع الكون والانسان ، وصاحب النواميس وقوانين الطبيعة والاجتماع ، وما كان للنبي محمد أن يستوعب ذلك ، وما كان ذلك كله موجوداً في ذلك العصر حتى يمكن أن يستوعبه النبي الأميّ الذي لم يكتب ولم يقرأ . والذي ما قرأ كتب الأقدمين ولا وعى آثارهم .

فالقرآن من خارج نفس محمد ، ومن رسالة السماء ، ولو كان من عند غير

الله* لما استطاع البقاء . تلك الأجيال ، ولما عجز البلغاء عن محاكاته أو قول مثله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

أما محاولة القول بأن القرآن جماع لما جاء في التورات والانجيل ، فلا ريب أن هناك حقائق أساسية للدين الحق المنزل من السماء وأصولاً عامة لا تختلف فيها الأديان ، ولكن ميزة القرآن أنه الكتاب الذي أنزله الله ولم يصل إليه التحريف أو التغيير أو التأويل .

ولقد شهد كتاب الغرب على منهجهم بالتعصب ونقص الاستيعاب والعجز عن فهم الاسلام وقرآنه ونبيه وأشار أمثال كرادي فو وغيره إلى هذا المعنى حين قال : « إن محمداً ظل وقتاً طويلاً معروفاً في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة أو فظاظة إلا نسبوها إليه » وأشار دورمنجم إلى هذا المعنى حين قال : « هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين يهاجمون العرب ولم تكن مهاجمتهم إلا تهماً باطلة بل متناقضة » .

وأخطر ما يمثله المنهج العلمي الغربي من زيف ومعارضة لأصول العلم والبحث ما كانت تنطوي عليه موسوعة لاروس من القول بأن النبي محمداً كردينال لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية مما دفعه إلى أن يخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه الكرادلة .

ومن عجب أن نجد المنهج العلمي الوافد يقوم أحياناً على المساومة والتلبيس على الحق فيقول أحدهم « حسب الرسول نبوغاً في العقل والفكر أن ترك هذا الكتاب : أي القرآن » أو يقول أحدهم أليس من الخير أن يعظم محمد بأن ينسب إليه هذا القرآن من أن يكون « ساعي بريد » .

أما المنهج الاسلامي الأصيل فيرى أن الرسول صادقاً أميناً مبلغاً أمر ربه أعظم من أن يكون كما يريدون كاذباً مدعياً ما ليس له .

- ٣ -

اما الشريعة الاسلامية فتواجه من المنهج العلمي الغربي نظرة خطيرة ، حيث لا يؤمن هــذا المنهج بوحي السماء ، فهو ينظر الى الشريعة المنزلة نظرته الى الأعراف . وينظر الى الأخلاق نظرته الى العادات والتقاليد .

ولذلك فقد سقط كثير من الباحثين الغربيين في محاذير عجزوا منهــا أن يفرقوا بين الشريعة والعرف . (وموقف جولدزيهر وشاخت) في هذا الصدد معروف للباحثين جميعاً .

فهناك المحاولة التي تقول ان الشريعة أحكام متطورة بتطور الزمان والبيئات. وتحاول أن تلتمس ملتقطات تقول بتغير الأحكام ، أو جواز ترك النص واتباع العادة ، وهي محاولة خطيرة تحاول أن تركز على القول بقابلية الشريعة للتطور. (دون تقدير لمدى الأصول الثابتة التي لا تتغير ولا تتطور) . وذلك من أجل استخدام الشريعة في تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية .

والمنهج العلمي الاسلامي يختلف في هذا مع الفكر الغربي فهو لا يقر التطور المطلق . ولكنه يؤمن بالأصول الثابتة ، ومن داخلها الفروع المتغيرة .

وهناك محاولة أخرى تقول : إن أساس المعاملات هي رعــاية حاجات الناس والمصلحة العامة ، وليس هذا القول صحيحاً على إطلاقه . وهو يعني أن المصلحة هي التي توجه النصوص وتفسر الآيات ، ولا ريب اننــا حين نخضع

التشريع للمصلحة نقع في خلاف كبير في تقدير المصلحة[1] . كذلك هنــــاك محاولات لتقييد بعض التفصيلات ومحاولة انتزاعها وإقامتهـا كحقائق مستقلة كالقول بأن المعاملات هي أمور فصل فيها النبي وتركها للمسلمين حين قال (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ولا ريب أن النبي حين قال هذا عن تأبير النخل ، لم يكن ذلك الأمر من المعاملات . وهكذا يبدو المنهج العلمي الغربي الوافد وكأنه محاولة لالتماس الأهواء لا للوصول الى الحقائق الأصيلة .

١ – دكتور علي القياري : مجلة الأزهر ١٩٦٥ .

- ٤ -

ومن زيوف المنهج العلمي الوافد: هذه المحاولة بالقول بأن الشريعة الاسلامية عظيمة ، ومن أبرز مظاهر عظمتها أنهـا تتسع لجميع التشريعات الحديثة التي تفرضها الحضارة والعصر الحديث ألا وهي : تبدل الأحكام بتبدل الزمان . وقد نجح علماء الغرب في مؤتمرات متعددة في السنوات الأخيرة من أجل إثارة هذه الخدعة الباطلة واستخلاص قبول لها من علماء المسلمين .

ولقد يذهب بعض المتابعين للمناهج الغربية الى الإشارة بمرونة تطبيق الشريعة[1] « حتى تبلغ هذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات التي تجعلها صالحة لأن تكون ذيلاً لأي نظام وتبعاً للأهواء . وبذلك تنتهي الى إلغاء وظيفة الدين لأنه لا بد أن يُقوِّم عوج الحياة بنصوص الشريعة » لا أن يحتال على نصوص الشريعة حتى يبرر بها عوج الحياة المعاصرة .

وقد أشار الى هذا الخطر دكتور محمد محمد حسن حين قال : « إن أخطر الأخطار هي الجهود المبذولة لهدم الاسلام أو تطويره وجعله آلة من آلات الدعاية الغربية » وتحمل هذه المحاولة اسم تقارب القيم « وهذه القيم لا تتقارب ما دامت الشعوب الاسلامية تعيش على قيم ثابتة تخالف قيم الغرب: هي قيم الاسلام. فلا بد إذن من أحد حلَّيْن : إما أن يمحي هذا الاسلام بتشكيك الناس فيه

١ ـ دكتور محمد محمد حسن ـ نقد كتاب الثقافة في الاسلام .

وفي الأسس التي يستند إليهـا ويحاصر بحيث لا يتجاوز نفوذه المسجد وبحيث يفقد سيطرته على مسالك الأفراد في حياتهم الاجتماعية . وذلـك عن طريق إقناع الناس بأن الدين شيء . ومشاكل الحياة شيء آخر . وإما أن يخضع هذا الاسلام للتطور ، بحيث يصبح أداة لتبرير القيم الغربية ولتقريب ما بين الشعوب الاسلامية وبين الغرب . « على أن هذا الأسلوب بشقيه (هدم العقيدة من ناحية ، ومحاصرتها من ناحية أخرى) هو أصلح تمهيد لإقناع المسلمين بتطوير قيم الاسلام ، فهذا التطوير لكي يحدث ثمرته المرجوة – يجب أن يحدث بأيدي المسلمين أنفسهم وهم لا يفعلونه إلا إذا ضعف يقينهم بالاسلام . فاعتقدوا أنه يتعارض مع حاجات الحياة من ناحية ، أو تعودوا إهمـاله ، وعدم التقيد بالتزام قواعده في شؤون الحياة من ناحية أخرى ، اقتناعاً منهم بأن دائرته لا تتجاوز شؤون العبادات ولا تتعداهـا الى المعاملات » ويقول الدكتور محمد محمد حسن « إن فكرة تطوير الشريعة الاسلامية هي وسيلة لتطوير المسلمين أنفسهم » .

- ٥ -

ومن أخطــــاء المنهج العلمي الوافد دعواه العريضة بأن الشريعة الاسلامية متأثرة بالفقه الروماني وهي من الشبهات التي أثارهـــا (جولدزير ومن بعده شاخت) .

ولقد تعرض الكثيرون لهذه الشبهة فدحضوها بواقع التاريخ واصالة المنهج العلمي الاسلامي . وأبلغ آيات زيف هذه الشبهة ما تؤكده الوقائع التاريخية من أن القانون الروماني بدأ عاداتٍ ، ونمـا وازدهر عن طريق الدعاوى والاجراءات الشكلية .

أما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتاباً منزلاً ووحيـــاً من عند الله ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقي والأحكام الموضوعة .

ومن ذلك أن القانون الروماني متأخر عن الشريعة الاسلامية . وانه في نظر الكثيرين فقه إسلامي أخذ من الأندلس .

هذا فضلاً عن اختلاف الهدف ، فالأول منهما (الشرع الاسلامي) قائم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات العقول . والثاني (الشريعة الرومانية) قائمة على المصالح والمنافع الدنيوية . ويبنى على هذا التخالف أن الشرع الاسلامي يمثل مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة . بينما يمثـــل الشرع الروماني مصلحة الجماعة فقط .

وكذلك فإن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة واحدة ، لم يزد فيهـا

الفقهاء شيئاً ، أما الفقه الروماني فهو أحدث ، حيث لم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد . أما قبل القرن الحادي عشر فإنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم . (والمعروف أن الشريعة الاسلامية نزلت في القرن السادس الميلادي) والمعروف أن الفقه الاسلامي قرر وصنف قبل ظهور الفقه الروماني بقرون . فكيف يكون متأثراً بشيء لم يوجد بعد، وما قيمة هذا الزعم بالتأثر بالفقه الروماني ، إذا كان مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة والثوري والأوزاعي درسوا وألقوا وصنفوا قبل أن توجد القوانين الرومانية للرومان أنفسهم . بل إن الأصح هو أن الفقه الروماني مأخوذ من الفقه الاسلامي .

أما دعوى اختفاء الفقه الروماني ثم ظهوره بعد ستة قرون فهي أكذوبة كذبها القانوني الشهير (سافينيه) حين قال : إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها الى اليوم من غير انقطاع ، ويتضح من هذا أن القوانين الحديثة ليست إلا حديثة الوضع وضعها بعض علمائهم مقتبسة من الفقه الاسلامي. والفقه الروماني الحاضر جديد بإجماع الباحثين لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الروماني القديم[١] .

١ - عن صالح بن علي الحامد العلوي وفارس الخوري ومحمد الشافعي اللبان وعبد الرازق السنهوري من بحث مطول ، راجع كتاب الاسلام والثقافة العربية .

من أخطاء (شاخت) قوله إن التشريع الاسلامي المتعلق بالأسرة والوراثة كما قرره الاسلام كان مستمداً من النظام القبـــلي أو خاضعاً له ، وقوله : إن العقوبات في الاسلام كانت أيضاً تحت سلطان النظام القبلي . وقد اعترض الشيخ محمد أبو زهرة على هذه المفاهيم المعممة القائمة على أساس الأهواء القومية والعنصرية فقال متسائلاً .

١ – هل الطلاق الذي جاء به الاسلام . هل هو ما كان متبعاً في الجاهلية ؟ وحقوق المرأة كما قررها الاسلام ، هل هي التي كانت في الجاهلية أو عند الرومان ؟ وهل كان للمرأة عند العرب أو الرومان إرادة في تزويج نفسها ؟ والولاية الكاملة على مالها؟ هل المرأة كان لها كيان كامل عند الرومان أوعند الفرس أو عند البدو ؟ هل قرر الاسلام ما قرره البدو والرومان في ثبوت النسب؟ هل أقرّ الاسلام نظام التبني الذي كان معمولاً به عند العرب وعند الرومان ؟ وهل نظام الولاية على النفس والمال عند الاسلام كما كان عند الرومان ؟ لقد اعتبر الاسلام الولد حرًّا في التصرف في نفسه وماله بمجرد البلوغ الطبيعي ، والرومان كانوا يعتبرونه في ولاية أبيه ولو بلغ الستين حتى يمنحه الأب حق التصرف . هل نظام الميراث كما قرره الاسلام سبق به أيُّ شرع من الشرائع [1] ؟

١ – مجلة الدراسات الاسلامية (يوليو ١٩٦٨) .

٢ — يقول شاخت في العقوبة إن الاسلام فيما قرره من نظم في العقاب كان تحت سلطان العادات القبلية . ثم يسترسل ليقرر أن نظام القبائل كان بعيداً عن العدالة . وأنه لم تكن هناك نظم للقضاء عليها . بل كانوا يلجأون في البحث عن الجريمة والجرم إلى الكهان . ويترك الكلام من غير تعليق بما يوهم القارىء أن نظام العقاب في الشرع الاسلامي هو هذا النظام القبلي الفاسد أو يقاربه لأنه مشتق منه . ونريد أن نسأل : هل كان في النظام القبلي أن الفرد يقتل بالفرد ؛ وأنه لا يسأل غير القاتل ؛ وأن النفس بالنفس ؟ ولا عبرة بمقدار ما كان عليه المقتول من جاه أو منزلة عند الناس ؟ فإن النفوس متساوية بحكم القرآن وأقوال محمد ، وليست متساوية بحكم القبائل العربية . فزعيم القبيلة يقتل به ألوف . وهل كان في نظام القبيلة أن يقتل الحرّ بالعبد ؟ بل إن السيد يُقتل إذا قتل عَبْدَهُ ؟ وهل كان في حكم القبيلة جلد الزاني بمائة جلدة أو الرجم ؟ وحدّ الخمر بثمانين جلدة أو أربعين ؟ وحدّ القذف بثمانين جلدة ؟ وهل كان في حكم القبيلة أن العبد تكون عقوبته على النصف من عقوبة الحرّ ؟ وهل كان في حكم القبيلة أن السارق تقطع يده ؟.. أغفل (شاخت) كل هذه الحقائق . وقال في كلمة واحدة : إن حكم الاسلام في العقاب امتداد لحكم الأعراب . ثم يقول بعد هذا إلى أيّ حدّ يمكن أن يكون المنهج العلمي الغربي الوافد ، علمياً وبعيداً عن الهوى وعن التعصب وعن الغرض . ومرتفعاً عن العنصرية ومحققاً للنصوص .

- ٧ -

ويبدو اضطراب المنهج العلمي الغربي الوافد واضحاً وعميقاً حـــين يتصل البحث بالسُّنّة وعلوم الحديث ، ولقد استغل هذا المنهج مختلف الشبهات التي ردّدها خصوم الاسلام والفكر الاسلامي في القديم ، وجدّدها وابتعثها واعتمد عليها في مختلف الأبحاث التي كتبها الباحثون الغربيون .

وأبرز هذه الشبهات محاولة القول بأن تدوين الحديث بدأ في المائة الثانية للهجرة . وأن المسلمين زادوا ونقصوا في الحديث بل ووضعوا أحاديث خدمة لأغراضهم من هؤلاء (دوزي وسبرنجر وجولدزيهر) وهذا الأخير يشكك في صحة وجود صحف كتبت في عهد الرسول ، يرمي بذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور . ووصم السنة كلها بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الحديث إلا ما يوافق أهواءهم .

ولا ريب أن هذا الاتجاه ليس علمياً وليس خالصاً لوجه العلم ، ولكنه جماع محاولات لاقتناص نصوص متفرقة مبتورة لتأييد رأي مسبق ، يقوم على الهوى والتعصب .

ولا ريب أن الاسلام قد اكتمل في عهد الرسول تمامــاً ، وأن السنة كانت مكتوبة عند كثير من الصحابة . أما ما جاء بعد ذلـــك فهو تحقيق السنة

وتبويبها بحيث لا يرى قول لإمام من أئمة المذاهب في القرنين الثاني والثالث إلا وقد سبقه إليه صحابي أو تابعي ، ولقد كشف علماء الحديث عن منهج غاية في الدقة في معرفة الرجال وتحقيق النص وتبين الزيف من الصحيح .

ولكن دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد يتجاوزون ذلك كله . ويذهبون وراء أهوائهم الى الطعن في الحديث ورواته ورمي مصادره جميعاً بالكذب . وإنكار السنة بتاتاً . وذلك مغمز خطير يوجه الى منهج علمي يعجز عن الاحتفاظ بالأسس الأولية في اعتماد النصوص واطراح الأهواء .

- ٨ -

ومن أخطاء المنهج العلمي الوافد في مجال الشريعة موقفه من قضية (الاسلام دين ودولة) : ومحاولة القول بأن الاسلام دين روحي . وأن الرسول كان موجهاً دينياً ، ولم يكن حاكماً أو رئيساً لدولة وعلى النحو الذي ردده علي عبد الرازق في كتابه (الاسلام وأصول الحكم) وهو من أفكار علماء الغرب .

ويحاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يتجاهل حقيقة أساسية من أبرز حقائق الاسلام وأصل من أصوله : وهي الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة ، أو بعبارة أخرى أنه لا عزلة بين الدين والدنيا ، ومن ذلك فإن عناية الاسلام بشؤون الدنيا تجعله يعنى بشؤون الدولة . فقد جاء الاسلام بشريعة (قوانين وأحكام تنظم شؤون الحياة) لذلك كان طبيعياً أن يعنى بإقامة دولة وحكومة تهتم بتنفيذ تلك الأحكام ، وتنص آيات القرآن في عدد من المواضع على أن الاسلام دولة الى جانب كونه عقيدة أو ديناً :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) . (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) .

ولقد أقام الرسول في المدينة «دولة الاسلام» التي استوفت شرائط أركانها ،

وكان حاكمهم وقاضيهم وقائدهم ، ووضع الخطوط الواسعة لدولة إسلامية . ولقد جاء الاسلام بأصول عامة صالحة لجميع العصور والبيئات ، وترك للأمم والشعوب اختيار نظام الحكومة على أن تتحرك في إطار مبادئه العامة ، ومن خلال الحدود التي أقامها الله . ولا يوجد في الاسلام ما يماثل سلطان الكنيسة والبابوية في المسيحية من الكهانة أو الوساطة أو الحكومة الثيوقراطية ، وليس في الاسلام ما يسمى بالسلطة الدينية ، بوجه من الوجوه ، فإن لكل مسلم أن يفهم عن كتاب الله من كتاب الله وعن رسوله بدون وساطة أحد .

يقول العلامة علال الفاسي : إننا قد نسينا مدلول الدين بالمعنى الاسلامي . وأصبحنا نفهم من معنى الدين كلمة (رليجون) الأوربية ونفكر في أمر الدين بما يفكر به الغرب وما نقرأه من آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة وصعوبة الطلاق إلا في حالات تلبس أحد الزوجين بالزنا وقيام أرستقراطية إقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتستعبد بها الشعوب . وهكذا وجدت عندنا مشكلة فصل الدين عن الدولة فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا . والدين والدولة (في الاسلام شيء واحد ، لأن الدولة لا بد أن تقوم على عقيدة أو خلق ، ولا بد أن تكون حامية لقانون . وهي المسؤولة عن إيجاده إن لم يكن موجوداً) فالدولة الاسلامية دولة (إكليريكية) كهنوتية بالمعنى الذي يفهمه الغرب . بل يمكننا أن نقول انها (لايكية) بطبيعتها لا لأنها منفصلة عن الكنيسة ، ولكن لأن الكنيسة غير موجودة وليست من طبيعة الدين الاسلامي ولا جزءاً منه .

ولقد كان عدم إدراك هذا الفرق الكبير بين مدلول كلمة الدين عند المسيحيين وعند المسلمين عظيم الخطر في تضليل الكثيرين من العرب الذين تعلموا تعليماً

غربياً دون أن يحصلوا بجانبه على دراسة صحيحة تمكنهم من معرفة الاسلام على حقيقته . ولما كانت الكلمات اللغوية إنما تعيش في المعاني الحيّة التي يلبسها الناس لها بالاستعمال كل يوم . فإن كلمة الدين لم تعش في ذهن هذه الطبقة من المثقفين إلا بمدلولها الغربي[1] .

---

١ — دعوة الحق ، يونيه سنة ١٩٦٨ .

ويرد بعض الباحثين عجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن استيعاب مفهوم الاسلام للشريعة الى الأرضية الأساسية التي أقامهـــا الفكر المسيحي الغربي . فالمعروف أن النصرانية جاءت للآخرة فقـط ، والمسيحية بالمعنى الذي دعا إليه المسيح لا يوجد في أوربا وأمريكا من يستطيـع أن يتقيد بها .

أما الاسلام فدين الدنيا والآخرة : يقول « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ولما كانت فيه هذه المزية التي يفترق بها عن النصرانية كان من الطبيعي أن يمتاز أيضاً بأن تشريعه قائم على أساس سعادتي الدنيا والآخرة . ومن هنا كان التشريـع الاسلامي متصلاً بشؤون المسلمين الدنيوية والأخروية ، ومن هنا كان الاسلام دين عقيدة وعبادة وحكم ، وهو ما قام الكثيرون لإنكاره زاعمين أن الحكم الاسلامي ليس عبادة . فالدولة المسيحية إذا جعلت الدين مقصوراً على العقائد والعبادات ولم تجعل لذلك علاقة بالحكومة لها شيء من العذر بعد أن علمنا أن المسيحية جاءت للآخرة فقط لا للدنيا[1] » .

---

١ - مجلة الفتح ، ٢٠/ ١١/ ١٩٢٨ .

- ١٠ -

وقد حاول بعض الباحثين من خلال المنهج العلمي الغربي الوافد ادعاء أن الاسلام قام على أساس الحكومة الثيوقراطية . والواقع أن ذلك القول يرجع إلى نقص في أساس المنهج من حيث استقصاء الأسانيد ، أو تعليق الأهواء ، أو افتراض رأي مسبق والبحث عن أدلة متيسرة لتعزيزه .

ذلك أن الاسلام لم يعرف الحكومة الغربية الثيوقراطية . والاسلام يقيم نظام الدولة شاملاً لجميع المواطنين ، ويجعلهم على قدم المساواة أمام القانون في الحقوق والواجبات ، وهو يكفل حرية الاعتقاد والعبادة للجميع . والقول بأن في الاسلام دولة ثيوقراطية من الشبهات التي نقلت من أفق التاريخ الغربي دون تعمق أو تدقيق .

ومن الحقائق الأكيدة التي لا تقبل النقض : أن الاسلام لم يعرف الدول الثيوقراطية على المفهوم الذي عرفه البابوات في حكوماتهم . ومفهوم الدولة الثيوقراطية التي يتولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه في الغرب لا يوجد في الاسلام : منهجاً أو تطبيقاً . وشريعة الإسلام لا تقر وجـود ما يسمى رجل الدين ، وليس في التوحيـد بين السلطتين الدينية والدنيوية في الاسلام مـا يؤدي إلى شيء من التضارب . فليس الاسلام حقائق روحية خالصة ، ولكنه جامع للروح والمادة .

الفصل الرابع

أخطاء الفلسفة

يركز المنهج العلمي الغربي على ما يسميه الغربيون : الأثر الأجنبي للفكر الأوربي في تكوين الفكر الاسلامي ، ويبحثون عن هذا الأثر في مختلف العناصر الأدبية والاجتماعية في محاولة لتصوير الجوانب الايجابية كلها في الفكر الاسلامي وكأنها معطيات الفكر الغربي . ولكن الفكر الغربي لا يقيم مثل هذه الموازنة بالنسبة لمعطيات الفكر الاسلامي للثقافة الغربية . بل تذهب أغلب كتابات الكتاب الغربيين إلى انكارها وتجاهلها في نفس الوقت الذي يذهب فيه كتاب الغرب إلى حد المبالغة التي تخرج عن كل منهج علمي (نقصاً في التحقيق ، وجرياً وراء الأهواء ، وتعصباً) الى القول بأنه لولا الفكر اليوناني القديم ما كان للمسلمين والعرب شيء يمكن أن يسمى فكراً .

وهناك تركيز واضح على ثلاثة جوانب مما نقل الى الفكر الاسلامي من فكر وافد : آراء المعتزلة – الفلسفة الاغريقية – نظريات التصوف .

* * *

ولا ريب أن أكبر ما يرد شبهة عطاء الفكر اليوناني للفكر الاسلامي ، هو الدليل الأكيد بأن الفكر الاسلامي لم يلتق بالمترجمات اليونانية إلا في القرن الثالث الهجري ، في حين أن مفاهيم الاسلام تكاملت بتكامل القرآن . وتمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وأن القرآن قد قدم للمسلمين عدداً من

المناهج في ميادين المعرفة ، والبحث ، وفي مجال الاجتماع والحضارة والميتافيزيقا. وهناك حقيقة أساسية يؤيدها الدليل التاريخي والعلمي والعقلي . هي أن المسلمين كونوا العلوم وأصّلوها وأقاموا مناهجها قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية بوقت طويل . وخاصة في السُنَّة والفقه والتاريخ واللغة . وكان الاسلام قد وضع أول منهج علمي في البحث لتحقيق الحديث والسنة بشهادة أعلام الفكر العالمي[1] .

كان أرنست دينان في مقدمة رجال المنهج العلمي الغربي تجاوزاً لأيّ منهج علمي في القول بأن الفلسفة العربية ليست شيئاً آخر غير فلسفة أرسطو طبعت بالطابع العربي وسميت الفلسفة العربية . وجرى في مجراه اتباع المنهج الغربي الوافد من أمثال : لطفي السيد ــ وطه حسين الذين رددوا أقوال الكتاب الغربيين من أمثال (وليم ولسن) من أنَّ ما يُعرفُ بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم ، وما عدا ذلك فهو فكر يوناني منظّم ، عُبّر عنه بلغة سامية ، وحوّر بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الاسلام .

ومع أن المسلمين رفضوا فلسفة أرسطو وعارضوها منــــذ اليوم الأول لترجمتها . فإن رجلاً مثل لطفي السيد . وهو على رأس مدرسة المنهج العلمي الغربي يقول في غير ما حرج .

ولقد قوبلت فلسفة أرسطو عند السلف بصدر رحب ، واشتغل بها الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين ، وأصبحوا خلفاء أرسطو وممثـــلي مذهب المشائين[2] . بل إن الدكتور طه حسين يتجاوز كل ما يوصف بأنه أسلوب علمي في حماسة واندفاع بالغين ، وفي تقريرية مرفوضة من كل أصحاب المناهج العلمية في البحث ليقول « لو أن هذه الحضارة أزيلت ، وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطو أساساً لهذه الحضارة الجديدة ؛ (ذلك) أن اليونان والرومان عاشوا في العصر القديم على فلسفة أرسطو ، وأن الشرق

---

١ ـ راجع كتاب الدكتور أسد رستم عن مصطلح الحديث .

٢ ـ علم الأخلاق لأرسطو ترجمة لطفي السيد ١٩٢٥ .

والغرب عاشا في القرون الوسطى على فلسفة أرسطو ، وأن أوربا الحديثة تعيش الآن وستعيش غداً على فلسفة أرسطو[1] . ومن العجب أن أقل فهم للفلسفة الأوربية الحديثة يُعَرِّف أن ما قاله طه حسين منقوض علمياً وتاريخياً فإن (روجرز بيكون) إنما بدأ مذهبه الجديد بالهجوم على فلسفة أرسطو وتهديمها ، وإنشاء المذهب التجريبي الذي استمده من الفكر الاسلامي . وإذا كان علماء الاسلام قد هاجموا أرسطو وكشفوا أخطاءه وأنشأوا مذهباً مخالفاً له ، فإن الغربيين في أوائـــل النهضة التمسوا منهج المسلمين ، وهاجموا منهج أرسطو وعابوه ، ثم جاء طه حسين ولطفي السيد ليقيموه مرة أخرى أمـــام الفكر الاسلامي الحديث .

والمعروف أن اليونان أخذوا بالقياس ، وأن المسلمين أخذوا بالتجربة ، وأن العلم الحديث مستمد من المنهج العلمي التجريبي الاسلامي .

أما الفكر الاسلامي فقد رفض الفلسفة الإلهية اليونانية جملة : أي أنه رفض الوثنية ، وتعدّد الآلهة ، وطابع الإباحية اليوناني والفارسي .

١ - فصل عن لطفي السيد وترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو (السياسة الأسبوعية) .

- ٢ -

وصف أرنست رينان الفكر العربي بأنـــه تفكير يهتم بالجزئيات ويفسح صدره للخيال [١] . وليس في ذلك ما يشينه ، بل هو اعـــتراف بأنه يحوي العناصر الضرورية للمنهج العلمي . بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول : إن منهج أرسطو كان منهجاً عقيماً ، وأنه ضلل كثيراً من مفكري العرب ، ثم وقف حائلاً دون ازدهار الحضارة العربية ، ويرجع عقمه إلى أنه كان خلواً من الخيال ، وإلى أنه كان أكثر اهتماماً بالقضايا المجردة منه بدراسة التفاصيل والجزئيات .

وقد كشف الباحثون المسلمون عن حقيقة هذه الدعوى العريضة التي جرى وراءها المنهج العلمي الغربي الوافد متحرراً من كل اصالة علمية – رغبة ً في تصوير الفكر الاسلامي تابعاً ومستعبداً للفكر اليوناني – وان هذه التبعية لا تراد مجردة للتاريخ ، ولكنها تراد ليقال انه ما دام الفكر الاسلامي في ماضيه قد عرف التبعية للفكر اليوناني الذي هو مصدر الفكر الغربي الحديث ، فإن الفكر الاسلامي سيظل تابعاً ومستعبداً للفكر الغربي الحديث .

والمعروف أن فلسفة أرسطو والفكر اليوناني ، وكل ما يتصل به من منطق وعقائد ، إنما يعبر تعبيراً دقيقاً عن المجتمع اليوناني العبودي المنقسم إلى سادة

---

١ – دكتور محمود قاسم من بحث له .

يتأملون ، وعبيد يعملون : السادة هم الصورة . والعبيد هم المادة[1] . ولكن المجتمع الاسلامي كان يختلف عن المجتمع اليوناني اختلافاً كبيراً . لأن الاسلام دين عبادة ونظر ومعاملات . وفي البداية حاول الفكر الاسلامي التوفيق بين الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامي . ثم تبين عسر ذلك بل استحالته لقيام الفلسفة اليونانية على مفهوم الوثنية في الإله . بينما يقوم الفكر الاسلامي على أساس التوحيد . وبينما تقوم الفلسفة اليونانية منه على نظام العبودية ، وقد دافع أكبر أساطينه أفلاطون وأرسطو عن الرق واعتبروه ضرورة حياة كما دافعوا عن سلطان السادة الحاكمين الذي يحرم أن يدخل إليهم أحـــد من الطبقات الأخرى فضلاً عن أن الفكر اليوناني كان فكر تأمل ومنطق . بينما كان الفكر الاسلامي فكراً تجريبياً يجمع بين النظرة العقلية والممارسة العملية . ومن هنا كان علماء المسلمين يقومون بممارسة صناعة الطب ويكتشفون الأحماض المختلفة من أمثال البيروني وجابر بن حيان وغيرهما .

وهذا الاتجاه إلى الحكم والتجربة هو : خروج مباشر أساسي عن منطق أرسطو . ولقد انتهى المفكرون المسلمون إلى نظرة جديدة : تقررت في أن أصبحت عملية التجريب العملي (لا عملية الاستخلاص المنطقي) سبيلاً من سبل المعرفة . وبذلك خرج الفكر الاسلامي عن المنطق الصوري إلى التجريب . ثم خرج مرة أخرى من الكلـّي الى الجزئي . وكان الفكر الأرسطي يرى أن العلم لا يكون إلا بالكلـّي . أما العلم الجزئي فليس علماً ، و « توج هذه الاتجاهات جميعاً إدراك عميق بأهمية الرابطة العلـّية بين الأشياء كأساس للمعرفة العقلية ، وعلى هذه الرابطة العلـّية بين الأشياء تقـــام التجارب ، وبهذه الرابطة العلـّية فسـّر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية ، وعلى هذه الرابطة العلـّية أقام البيروني والرازي وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم » .

---

١ – راجعنا في هذا أبحاث الدكتور علي سامي النشار .

وبهـذه النظرة المتطورة للكون والانسان اختلف الفكر الاسلامي العربي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم ، وأصول ، وفقهٍ ، وفلسفة عقلية ، ونظرة الى الانسان . ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً. وإنما كان نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الاجتماعي للدولة العربية وللحضارة اليونانية[١] .

ومن هنا كان جوهر الحضارة العربية الاسلامية : جوهراً عقلياً عملياً تجريبياً حسّيّاً : وقد أشار الى هذا المعنى (هـ. ج. ولز) في كتابه خلاصـة التاريخ العام حين قال : لم يهتد اليونان مدة اشتغالهم بالبحوث الفلسفية الى جعل التجربة قاعدة للبحث وأساساً للتنقيب .

١ – محمود أمين العالم في بحثه تعليقاً على كتاب علي سامي النشار .

- ٣ -

ومن ناحية أخرى فإن الأبحاث التي قامت على أساس المنهج العلمي الاسلامي قد أكدت أن الفلسفة الاسلامية قد انبعثت من صميم البيئة الاسلامية ، ذلك أنه نشأ من طول معاناة القرآن والحديث : علم إسلامي أصيل هو علم أصول الفقه (أعلن هذه الحقيقة الشيخ مصطفى عبد الرازق وتابعه فيها تلاميذه وعلى رأسهم علي سامي النشار) . وفي نفس الوقت كشف علماء المسلمون أخطـــاء أرسطو وأفلاطون في المنطق وأخطاء بطليموس وأبقراط وأقليدس في العـــلوم والرياضيات .

ولقد كشفت أبحاث المنهج العلمي الاسلامي الأصيل عن أن معرفة اليونان[١] بالنجوم كانت خرافات في الأكثر ، ومحاولات على الأقل ، وأنّ ما كان منهـــا صحيحاً ثابتاً لم يكن يعدو ما كان عند المصريين والبابليين ، فلما جـاء العرب جعلوا من النظر في النجوم علماً صحيحاً . وأنكروا خرافاته . وحاولوا إصلاح مجالاته . أخذ العرب الجبر من اليونان في درجته الأولى فرقوا به الى الدرجة الثامنة . أخذ العرب الكيمياء من اليونان محاولات لتحويل العناصر الخسيسة الى عناصر شريفة ، والعرب هم الذين وضعوا أسس المختبرات العلمية للكيمياء . وان العرب هم الذين استعملوا الأرقام الحسابية بما فيها الصفر .

(هذا كله بالاضافة الى المنهج العلمي التجريبي) .

---

١ - دكتور عمر فروخ : العرب والفلسفة اليونانية .

- ٤ -

ما زال اتبـــاع المنهج العلمي الوافد يرددون القول بأن معارضة الفكر الاسلامي للفلسفة كان مصدراً من مصادر الجمود الفكري والثقافي عند العرب ولم يكن هذا حقـاً فقد كانت[1] الفلسفة اليونانية طابـع شؤم ونذير سوء وإيذاناً للعرب بزوال سلطانهم . وفي زمن المأمون الذي شجع الفلسفة وعمل على ترويجها فشاع في عصره الشك وهبت الريح الصفراء من وراء الاباحية تحمـل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحـــل المتعارضة وظهرت الفرق التي كادت تؤلف بآرائها وعقائدها أدياناً جديدة، وجلبت النكبات وأوغرت الصدور واستنزفت الأموال والدماء . ولم تلبث الدولة إلا قليلاً حتى انحطت عليها جحافل المغيرين من التتر والمغول . وكان كثيرون من أتباع هذه الفرق عوناً للمغيرين .

خسر العرب بالفلسفة عقيدة الإيمان الفطري وقوة الاعتقاد النقي وتركوا الدين وهو جوهر رسالتهم العالمية الى أيدي (هؤلاء) ليلبسوه أثواباً خلقة ملونة من الآراء الافتراضية التي أيقظت الشك وأثارت الفتنة وبلبلت الألسنة .

ما الذي أفاده المسلمون من تلك الدروب التي هلـك فيها اليونانيون ومن

١ - مجلة الأنصار سنة ١٩٤٤ .

جرى مجراهم من الأمم القديمة والحديثة ؟.. من الحق أن علماء المسلمين جاهدوا جهاداً ضخماً في سبيل مواجهة هذا الخطر ، وظـل كفاحهم مستمراً أكثر من ثلاثة قرون في سبيل تحرير الفكر الاسلامي من هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية .

ولقد كانت صفحات كفاح الشافعي والشعراني وابن حنبـــل والغزالي وابن تيمية في هذا الصدد مشرقة بالإيمان والصمود في وجه كل القوى الزاحفة .

- ٥ -

ولقد كان حرص دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد على تأكيد معنى أن معارضة الاسلام للفلسفة هو مصدر الجمود والتخلف في الفكر الاسلامي والعقبة الكبرى التي تقف بين المسلمين وبين التقدم . والفلسفة التي يراها دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد هي الفلسفة الإلهية اليونانية وما يتصل بها من فكر وثني أو فكر مادي غربي حديث وكلاهما يعارض التوحيد والنبوة والوحي ورسالات السماء والبعث والجزاء .

ولقد ترددت هذه الدعوى على ألسنة أصحاب المنهج الوافد ، ولم تتوقف كأنما هي حقيقة ثابتة أو أصل من أصول العلم . ولو أن هذا التركيز جاء من دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد على « العلم » لا على الفلسفة ، لكان ذلك دعوة انصاف وكلمة حق ، ولكن الفكر الغربي لا يريد من الفكر الاسلامي أن يعرف طريق العلم . وإنما يعرف طريق الفلسفة ، والفلسفة الإلهية بالذات المتصلة بالهيولى وخرافة الميتافيزيقيا واحتقار الغيب وكل ما يتعارض مع أصوله الأصيلة .

ولقد كشف هذا الاتجاه الذي حرص الفكر الغربي على أن يحمل لواءه في مواجهة الفكر الاسلامي عن أهداف بعيدة . ذلك أن جميع الفلسفات التي نادى بها مفكرو العصر تقوض دعائم الاعتقاد بوجود إله واحد ، بِغَضّ النظر عن البديل المقترح . فمنها ما يقترح ألوهية المادة . ومنها ما يقدم ألوهية

الانسان ، ومنها ما يجعل الغريزة محور تفسير الوجود . والدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة الوحدانية من شوائب الشرك إنما هو الاسلام .

أما المبادىء والأفكار الحديثة فتركز جهدها لهدم العقيدة التي تمثل في نظر أصحابها جوهر رسالات السماء . والإله في عرف اليهود إله قومي لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين وعند النصارى واحد من ثلاثة . وإذا كانت الماركسية في حقيقتها تدميراً لفكرة الألوهية ، وربطاً للإنسان ومصيره بمصير المادة المحسّة ، وتفسيراً لحركة التاريخ بعوامل ليس منها (إرادة الله) وخلقه على أي حال ، فإن عداءها الصريح لم يتوجه في الحقيقة إلا الى الاسلام باعتباره معقل الفكر الديني ورمزاً يجسد العلاقات بين الله الواحد والمخلوق الموجَد . وهناك محاولة أقل غلواً ولكنها أشد كثيراً هي محاولة الفلاسفة الوضعيين الذين يهونون من شأن الاسلام وحركته التاريخية . فقد أشبع أوجست كونت الاسلام مدحاً وتمجيداً . ولكنه لم يزد على أن عده مرحلة كانت ضرورية كحلقة من سلسلة تطور البشرية نحو الدين الجديد والنهائي « الوضعية »[1] .

وهكذا تهدف الفلسفات الغربية الى تدمير العقيدة الاسلامية لأنها العقبة الكؤود في طريق سيطرة الأهواء الحديثة على مصاير البشر .

---

١ – عن نص للدكتور عبد الصبور شاهين .

- ٦ -

وفي مواجهة هذه التحديات . فإن المنهج العلمي الاسلامي الأصيل يفرق بين الفلسفة والعلم تفرقة واضحة ، وقد عرف الامام الغزالي هذا الاتجاه حين هاجم الفلسفة الإلهية الوثنية وتقبل الفلسفة في مجال الرياضيات والطبيعيات ، لتعلق هذه الأخيرة بموجودات واضحة بينما لم تقم الفلسفة الإلهية الوثنية على منطق وإنما فاقامت على الوهم والافتراض لبعد مجالها عن المحسوس . ونحن اليوم في حاجة الى مثل هذه النظرة في التفرقة بين العلم والفلسفة ، فالعلم هو مـا يجري داخل المعامل . أما الفلسفة فهي ما يقوله أصحاب الأيدلوجيات ، العلم واقع قائم على حساب وتجربة ، أما الفلسفة فهي نظرية عقل نافذ ، قد يخطىء وقد يصيب ، لأنها قائمة أساساً على الفرضيات . ومن ثم فهناك فرق بين نظريات العلم في مجال الفلك أو الذرة وبـين نظريات الفرويدية والوجودية والماركسية والبراجماتزمية وغيرها من نظريات الفلسفة التي وضعها فيلسوف مـا من خلال تحديات عصره وبيئته وحياته الخاصة ، وتجربته . ان العلم حقائق ، أما الفلسفات فهي نظرات اصلاحية معرضة للخطأ والصواب ، صالحة لبيئة دون بيئة وعصر دون عصر ، أما العلم فهو تراث إنساني مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعد عامة .

وللغرب قيمه وتاريخه وفلسفاته ، وللمسلمين فلسفاتهم ومفاهيمهم التي تترجم عن نظرتهم الى الحياة وأسلوبهم فيها ، وهي في مجموعها هنا وهناك ليست قـابلة للتصدير أو الاستعارة أو النقل .

فالوجودية والماركسية والبراجماتزمية والسيكولوجية ليست علوماً لها قوة المنهج التجريبي ، وإنما هي فلسفات لها اتصالها بالنفس الانسانية والعقل والروح وكلها قوى لا تقاس بمقاييس المحسوس ، ومن هنا كانت الفلسفات – وهي قائمة على النظرة الخاصة المحدودة بحدود البيئة والزمن – معرضة للخطأ ومعرضة للسقوط مع تغير الأزمنة والأمكنة ، أما العلوم فهي تراث إنساني مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعد عامة تجريبية . ومن هنا كان خطأ القائلين حين يعرضون لنظرية من نظريات النفس أو الاقتصاد أو الاجتماع بأنها علم . ولا ريب أن العلوم الانسانية لها منهج علمي . ولكن ليس منهج العلوم التجريبية .

وبالجملة فالفلسفة وجهة نظر صالحة للنظر فيها والأخذ منها مع حاجة البيئات واختلاف الثقافات .

يقول الدكتور محمد البهي : إن المعرفة التجريبية هي التي أخذت مفهوم العلم ، وفرق بين التجريب في عالم المادة وعالم النفس ، وعلوم الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق لا تخضع للتجريب لاختلاف النفوس والطبائع ، والبيئات والعصور . ولكن العلوم المادية تخضع لذلك ، وكل ما يقال عنه علم في هذا المجال فهو فلسفة .

والفلسفة المعاصرة حسيّة مادية واقعية لا تعترف مطلقاً بغير ما يقع تحت التجربة من محسوس وملموس ، ولذلك فهي تنكر العوالم الغيبية والميتافيزيقيا . ومنها الوحي والإله والبعث والنبوة والأديان والقرآن . ولذلك فهي أيضاً بعيدة عن تقدير السلوك الأخلاقي . وقد أخفقت الفلسفة المعاصرة في خلق توجيه أخلاقي ، وفي خلق خلقية أو ضمير يدفع الانسان نحو العمل الانساني ، هذا النقص جاء نتيجة لغلو الفلسفة في تقييم النظرة الواقعية والتجارب الإلهية والرياضية ، لأن هذا الغلو ركز القيمة كل القيمة فيما يدرك الحس وينشأ عن التجارب المادية . ولذا ألغى اعتبار المثل والقيم الرفيعة في حياة الانسان كما ألغى رسالة الدين في توجيه الناس نحو الله .

والاسلام لا يعادي العلم بمعنى البحث التجريبي ، ولا التطور الصناعي ، ولا يعادي سعادة الانسان على الأرض . بل يدفعه . وإنما يعادي الشر .

ولقد عني الاسلام بتكوين الخلقية في الانسان وبتكوين الضمير الديني بمثابة ضوابط تحول دون أن يتجه علم الانسان وسيادته في الكون الى الإفناء والتخريب وهو يعصم العلم والسعادة والقوة عن أن تستخدم في غير صالح البشرية عامة[1] .

---

١ — من نص في بحث للدكتور محمد البهي .

- ٧ -

١ ــ العلم والفلسفة

إن المنهج العلمي الغربي الوافد يحاول في مواجهة أفق الفكر الاسلامي أن يموّه في العلاقة بين العلم والفلسفة ؛ العلم التجريبي الذي يتصل بالمادة ، والفلسفة التي تتصل بالغيبيات أو الانسان . ويحاول هذا المنهج الذي يحكم الفلسفة والانسانيات بمنهج العلم التجريبي للنظر في أمور العقائد والأخلاق ورسالات السماء عن طريق الحواس وحدها ، وهو يدور في حلقة ضيقة هي حلقة المحسوسات والمعقولات . فإذا وجدت إشارات إلى الدين والقلب والغيب ، قدم أخطر إجابة في هذا المجال :

وتلك الاجابة هي في القول بأن يكون الانسان ممزقاً بين عقيدتين عقيدة القلب يؤمن بها ، وعقيدة العقل يرفض بها نفس الشيء . ولقد أشار كثير من تابعي المنهج العلمي الغربي الوافد إلى هذا المعنى حين قال أحدهم (إذا كنت تدرس الاقتصاد فلا تفكر في الدين[١]) وحين قال آخر (يمكن أن يكون الانسان مؤمناً قلباً وكافراً عقلاً[٢]) .

---

١ ــ من نص للدكتور محمود عزمي .

٢ ــ من نص للدكتور طه حسين .

أما الفكر الاسلامي فلا يقبل هذه الانشطارية أولاً ولا هذا التمزق بين العقل والقلب ، ولا يواجه الأمور بمثل هذا المنهج الذي يحطم النفس الانسانية ويجعلها تعيش حياتها كلها في ريب وقلق وشك وصراع . فقد جاء المنهج العلمي الاسلامي ليضع النفس الانسانية والعقل الانساني في خط واحد من اليقين والايمان وسكينة القلب على أساس مكين من الفطرة وقاعدة ثابتة من الاقتناع العقلي . فالحياة كلها تسير في منطلق واحد لا تمزق فيه ، يلتقي فيها العقل بالقلب ، ولا يتصارعان ويستمدان ضوءهما من الوحي والإيمان بالله ورسالة السماء .

ولقد عاش دعاة الفلسفة الغربية الممزقة بين النفس والعقل في صراع ونوبات عصبية وَجُنّ كثير منهم ولقوا أسوأ مواجهة في الحياة . ومن أبرز هؤلاء نيتشه الذي قضى نحو عشرين عاماً وهو في جنون يكاد يكون مطبقاً ، وكذلك فيلسوف الوضعية ، وباني الدين الجديد في أوربا أوجست كُونْت الذي قاسى أشد أنواع الآلام والأمراض والتمزق . ولم يكن فرويد أو ماركس إلا مريضين مصابين بالتمزق والصراع .

فقد اتجهت هذه الفلسفات إلى العنف والقسوة ، وجفت فيها ينابيع السخاء البشري . حتى دعا (ليكرغوس) مشترع اسبارطة إلى قتل الأطفال الضعاف البنية . وضحى أفلاطون بالفرد من أجل الطبقة السائدة . واعترف أرسطو بالرق واستعباد الناس ، وتابع نيتشه هذا الاتجاه ، فدعا إلى قتل العاجز أو تركه يموت دون العمل على شفائه ، وإبادة الضعفاء .

ولقد كانت الفلسفة محاولة لفهم الحياة والكون خارجاً عن منهج الدين الحق ، ولذلك فقد غلب عليها الشك والعجز مع استعلاء الهوى . ومن ذلك ما أعلنه دارون وردده أتباعه من أن الحياة تقوم على تنازع البقاء . ثم تبين أن

التعاون في الطبيعة أقوى من التنازع . وأبعد أثراً . واعتمد الفلاسفة في سبيل غايتهم وأهوائهم على الأساطير لا على التجارب أو الحقائق .

وكان لإعلاء الأصل الحيواني للإنسان أثره السيء في تصويره الانسان بأنه خاضع للغرائز والرغبات والأهواء . وكان لإعلاء العامل الاقتصادي وإعطائه الأهمية الأولى أثره الخطير في الانسانيات والأخلاقيات . فالحياة بين المذهبين غريزة جنس أو غريزة طعام والانسان بينهما مطحون .

وقد حجبت هذه الفلسفات المادية عامل الروح والبطولة والكرامة والنفس المعطاء والاتجـــاه إلى الله والتماس الآخرة ، وأغضت عن المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي وأثرهما في حياة الانسان والمجتمعات على السواء .

وكان لاتجاه سقراط في الانحراف الجنسي والخلقي أثره في الفكر اليوناني ثم في الفكر الغربي كله . فقد كان له من طبيعته الخاصة ما سيطر على فلسفته حين فرض احتقار الجسد الانساني ، وكان لفرويد من طبيعته وعنصره أثر في فكره ونظرياته . وكذلك ماركس ودوركايم وأفلاطون حين يفترض السوء في طبيعة الانسان . وحين تقرر بعض الفلسفات أن هناك صراعاً بين النفس والجسد . وحين يميز أرسطو بين خلق الله . فيقول إن السيد ولو قضت الظروف أن يكون عبداً فهو سيد . والعبد مهما استطاع أن يكون سيداً فهو عبد . وأن السيادة بالعنصر لا بالنفس والعقل . لا ريب ان كل هذه الآراء التي نماها المنهج العلمي الغربي الوافد ، وصاغها من جديد ، وبرّرها ودعا إليها . إنما تحمل في طياتها أقسى صور الأهواء النفسية ، والتعصب للجنس ، وهي في مجموعها مخالفة لطبائع الأشياء . ولفطرة الانسان حتى ليمكن القول بأن المنهج العلمي الغربي هو أكبر معبر عن روح الغرب ، كما كان منهج الفكر الهليني معبراً عن روح اليونان . وقد لفظه المسلمون قديماً لا عن ضيق أفق أو تزمت مذهبي ، وإنما كان

ذلك تأكيداً لروح الحضارة الاسلامية ، وإعلاناً صادراً من منهج القرآن الإلهي الذي أقام للبشرية منهجاً قوامه الفطرة والخلق والإيمان . ونحن الآن في مواجهة مثل هذا التحدي .

اننا نرفض النظرية الغربية التي تقول إن المعرفة مادية وإن الثقافة عالمية ، وإن الفلسفة تعطي الجواب لكل أحداث الحياة والفكر ، فنحن نؤمن أن الدين الحق هو الذي يعطي الإجابة الصحيحة لمفاهيم العقائد والغيبيات والمجتمع، وأنه هو وحده الذي يستطيع أن يفسر وجود الله وخلق البشر وخلود الروح . أما الفلسفة فقد عجزت بعد أن عجز العلم . ولقد يستطيع العلم أن يقدم معطيات حقيقية في مجال التجريب . وقد أعلن العلم أنه لا يستطع فهم جوهر الأشياء . وأنه يعمل في مجال دراسة ظواهر الأشياء . أما الفلسفة الغربية فإنها قد اندفعت إلى آفــاق ومرّت بمراحل ، منها الفلسفة الغربية المسيحية . ثم الفلسفة المثالية ، ثم جاءت الفلسفة المادية فنظرت إلى الحياة والإنسان من خلال الحس والعقل وحدهما ، فقصرت عن الآفــاق الواسعة التي استطاع الفكر الاسلامي أن يصل إليها حين جمع إلى العقل القلب . وإلى العلم الوحي .

ولا ريب أن العلوم[1] الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين في مجالاته الروحية والاجتماعية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تقنع إلا بالملموس والمحسوس . وفي نظام الكون وفي طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تلمس لمساً . وهذا يفسر اتجاه الجهابذة من علماء الطبيعة والرياضيات نحو التفاسير الدينية في أرقى مراحل البحث عن طبيعة الأشياء عندمــا يستعصي عليهم التفسير الشامل الإيجابي المقنع .

---

١ - عن باحث كبير .

وقد اعترف بهذا مؤتمر الذرة (١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٠) في جامعة روشتسر في ولاية نيويورك . فقد أعرب أعضاء هذا المؤتمر وهم صفوة علماء الذرة والفيزياء في الولايات المتحدة بأن تحطيم الذرة والتصرف في تكوينها والتغلب عليه . قد طرح بالنظرية التي سبق لعالم ياباني أن فسر بها حقيقة تماسك الكون تفسيراً علمياً (نال به جائزة نوبل للغرباء ١٩٤٩) وقد أوجد هذا التطور في علم الذرة والتفسير الفيزيائي لتماسك الكون بلبلة في تفكير علماء الطبيعة والرياضيات والفلسفة .

- ٨ -

٢ ـــ أخطاء الاعتزال

إن المنهج العلمي الغربي الوافد يتحدث في حفاوة ضخمة عن الاعتزال والمعتزلة. ويرى أن سقوطهم كان مصدر خطر كبير على الفكر الاسلامي. وأن منهجهم هو أصدق المناهج التي عرفها هذا الفكر، ودعا مجدداً الى عودة المعتزلة، وأنكر هزيمتهم. والمعروف أن المعتزلة استخدموا الفلسفة اليونانية، بل كانوا أسرع الفرق للاستفادة منها، وصبغها بصبغة إسلامية، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم[1] وأنهم كانوا يؤمنون بسلطة العقل ويرون بأن العقل – قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله. فلا حدود للعقل في براهينه ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان[2].

ولعل هذا الاتجاه عند المعتزلة هو الذي دعا المنهج العلمي الغربي الوافد على الاحتفاء بهم والإشادة بالدور الذي قاموا به في « تعقيل الفكر الاسلامي » ونقله الى مرحلة « تقديس العقل » حتى ليروي أحمد أمين أن المعتزلة كانوا يأملون أن تهجم العقول على فلسفة اليونان والهند وفارس فتستقي منها وتعمل فيها وتأخذ منها ما لا يتنافر مع القرآن والحديث المجمع عليه حتى تتحرر عقول العامة[3].

---

١ – أحمد أمين – فجر الاسلام.

٢ – أحمد أمين – ضحى الاسلام جـ ٣.

٣ – نفس المصدر.

والواقع أن المنهج العلمي الغربي الوافد ومن تابعوه قد قصر بهم الفهم من خلال حماستهم وأهوائهم وانتصارهم في أن يكون الفكر الاسلامي تابعاً للفكر اليوناني الغربي تبعية نهائية – قصر بهم عن الإحاطة بجوهر الاسلام ومنهجه العلمي ، وأسلوبه في البحث . فهم لم يستوعبوا حقائق الاسلام ولم يفهموه فهماً صحيحاً خالصاً متحرراً من كل قيد ، وربما فهموه من داخل دائرة المنهج العلمي الغربي الذي كان دائماً سيء الرأي في الاسلام وفي الأديان عامة .

والحقيقة أن هزيمة المعتزلة – على حد تعبيرهم – كانت نتيجة طبيعية لاختلاف هذه الدعوة مع جوهر الاسلام ، ومع طبيعة الفكر الاسلامي ومنهج المعرفة فيه . هذا المنهج الذي يقوم على جماع العقل والوجدان .

ولما كان الاعتزال أساساً هو محاولة لمواجهة المذاهب الفلسفية التي كانت تحتمي وراءها الأديان المعارضة للاسلام ، فإنه قد أدى دوره . غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو في مفاهيمهم . خرجوا بها عن الموازنة التي أقامها القرآن بين العقل والقلب . وبذلك أعلوا من شأن العقل . وبلغوا به مبلغاً خطيراً . ولما كان الإيمان في الاسلام يقوم على الإيمان بالغيب والشهادة والوحي والعقل ، ويتشكل من ذلك في وحدة واحدة . فإن إعلاء شأن العقل وحده كان خروجاً على مفهوم الاسلام ، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة . وعرض فكرهم للانهيار تحت أضواء الاسلام الصحيح .

ومن هنا جاءت تعديلات وتصحيحات قام بها ابن حنبل والأشعري قامت على التحرر من نفوذ الفلسفة اليونانية . ولذلك فقد كانت هزيمة المعتزلة في حقيقتها اتجاهاً طبيعياً . ونصراً لأصالة الاسلام وتعديلاً لمسار فكره ، وربما كان رثاء الفكر الغربي لهزيمة المعتزلة راجعاً الى ما فقدوه من احتواء الفكر الاسلامي لمنطق اليونان .

(٢)

إن أخطر ما عزل منهج المعتزلة عن مجرى الفكر الاسلامي الأصيل أنهم أخرجوا الاسلام « دين الفطرة » عن البساطة والسهولة واليسر . وأنهم غالوا في شأن العقل وانقسموا الى طوائف انحرفت عن مفاهيم الاسلام ، ويرى كثير من الباحثين أن المعتزلة ، بسيرهم وراء سلطان العقـــل قد نقلوا الاسلام الى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ، وليس الاسلام نظريات رياضية أو هندسية ، إذ قصرت مفاهيم المعتزلة عن تعمق الروح والعاطفة والوجدان في نفس الوقت الذي رفعت فيه قدر العقل . ومن هنا فهي لا تستطيـع الانفراد بالنظرة الشاملة. ويمكن القول إن المعتزلة كانوا شديدي التأثر بالفلسفة اليونانية، يدعون الى تحكيم العقل في كل أمور الاسلام .

(٣)

ولقد كان من أخطر مفاهيم المعتزلة : القول بخلق القرآن . وهو من مفاهيم اليهودية أساساً وقد شهد بذلك أحمد أمين حين قال : ويختلف الباحثون في أن المسلمين تأثروا في قولهم بخلق القرآن باليهودية كما روى ابن الأثير أو بالنصرانية تقليداً لقولهم في عيسى أنه كلمة الله[١] .

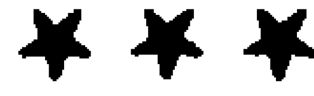
وقد اعتنق هذه الفكرة المأمون وحملها على رقاب الناس . ومضى في ذلك المعتصم والواثق وأدخلوا هـذه الفكرة الفلسفية في نطاق عقيدة الدولة وقتلوا من أجلها وعذبوا . وكان رجالهم يأملون من ورائها سلطاناً ونفوذاً[٢] .

وقد وقف أحمد بن حنبل في مواجهة هذه المحنة موقفاً صامداً كريمـاً حتى انحسرت في خلافة المتوكل وبعد سبعة عشر عاماً . وكانت كلمة أحمد بن حنبل في مواجهة هذا الموقف هي : هو كلام الله لا أقول مخلوق . وقـد ضرب ابن حنبل بالسياط حتى سالت الدماء من جسمه ولصق قميصه بلحمه وأغمي عليه . ولقد عسف المعتزلة بالناس وبالمحدثين والعلماء واستباحوا دماءهم وملأوا منهم

١ - ضحى الاسلام جـ ٣ .

٢ - نفس المصدر ص ١٩٦ .

السجون ونحن ننقل هذا من كلام واحد من مؤيديهم ومن أتباع المنهج العلمي الغربي الوافد هو : أحمد أمين .



هذه الصورة القاسية الغريبة على الاسلام في سماحته ويسره . هي التي كانت موضع رثاء المنهج العلمي الغربي للاعتزال وهزيمته . ويؤكد بعض الباحثين[1] أن الفكر اليهودي التلمودي الذي حملته الباطنية وقاده عبدالله بن سبأ قد استطاع أن يعمل من خلال المعتزلة : وان بشر المريسي الذي استولى على عقل المأمون هو يهودي أظهر الاسلام . قال الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد : رأيت بشر المريسي مرة فوجدته شيخاً قصيراً دميم المنظر وسخ الثياب وافر الشعر أشبه شيء باليهود ، وكان أبوه يهودياً صباغاً بالكوفة في سوق المراضع ثم قال : لا يرحمه الله فقد كان فاسقاً . وقال الخطيب أيضاً : دخل الشافعي على أمير المؤمنين وعنده المريسي ، فقال أمير المؤمنين للشافعي : ألا تدري من هذا ، هذا بشر المريسي فقال الشافعي لبشر : أدخلك الله في أسفل سافلين مع فرعون وهامان وقارون . فقال المريسي : أدخلك الله أعلى عليين مع محمد وابراهيم وموسى . قال محمد بن اسحاق : فذكرت هذه الحكاية لبعض أصحابنا فقال لي: ألا تدري أي شيء أراد بقوله ؟ انه يقول ليس ثمة جنة ولا نار .

وجملة القول في المعتزلة : انهم جعلوا العقل هو المهيمن على الشريعة وعلى القرآن والسنة . فما وافق العقل قبلوه ، وما لم يقبله رفضوه إن كان حديثاً وأوّلوه إن كان آية من الكتاب ، فيخرجون الآيات عن مواضعها[2] . وقد أنكروا رؤية الله يوم القيامة ، وعذاب القبر ، ومنكر ونكير ، والميزان والصراط .

---

١ – عن نص للاستاذ سعدي يس (مجلة رابطة العالم الاسلامي ١٣٧٩ هـ) .

٢ – نفس المصدر .

أما أهل السنة فإنهم لم يهملوا العقل ، ولكنهم جعلوا الوحي دليله فاستفادوا منه في الميادين التي ينجح فيها فيرتب المقدمات المسلمة ويستخلص النتائج المقنعة. ولم يزجوا بالعقل فيما ينهك قواه من متاهات ما وراء المادة ، لأن ما لم يقع تحت حواس الانسان لا يستطيع أن يبحثه (والحكم فرع عن تصوره) . وهذا هو رأس الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة أو المتطرفين منهم .

فأهل السنة يحترمون العقل لأن القرآن العظيم أثنى على أهله وكرمهم في غير ما آية من كتاب الله . فقال تعالى في سبعين موضعاً ونيفاً (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) . (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ) . (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) . (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ) . ومتطرفو المعتزلة يحكمون العقل في الشرع ويجعلونه مهيمناً عليه .

ونقطة الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة هو سلطة العقل . فالمعتزلة يرون أن العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله تعالى مما لا يعلم إلا عن طريق السمع أي النقل عن المعصوم ﷺ . فلا حدود للعقل عندهم . ولا زلل ولا خطأ متى صح البرهان . وهكذا تراهم يحكمون العقل ويسيرون خلف البرهان ويثيرون أصعب المشاكل وأعقدها ، ثم يتعرضون لحلها . فإذا اعتقدوا بحلها تأولوا آيات القرآن على مقتضاها .

أما أهل السنة فإنهم رأوا أن « العقل » له حد يقف عنده ، وأن من أمور الدين ما لا سبيل الى معرفته إلا عن طريق السمع . وذلك هو الإيمان بالغيب بما فيه الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وبالصراط والميزان والبعث والحشر. وبما فيه الإيمان بالملائكة والرسالة على العموم، ورسالة نبينا محمد ﷺ على الخصوص . والعقل لم يمنح هذا كما أنه لم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته .

وقد أقام الله تعالى في هذا العالم أدلة واضحة على قصور العقل وعدم استطاعته تعدي حدوده ، فها هوذا العالم المتمدن اليوم ، ومن قبل اليوم، عجز عن اكتناه معرفة الروح الذي به يحيـــا الانسان ويتحرك ويأكل ويشرب ، كما عجز عن معرفة حقيقة الجاذبية . وهذا النور الذي يملأ الفضاء ويُظهر الأشياء اختفى عنا وعجز العقل عن معرفة كنهه .

وأهل السنة لم يهملوا العقـل ولم يعطلوه . ولكنهم أطلقوه في ميدانه الذي يمكن أن ينتج فيه بينما زجّ به المعتزلة في حلبة لا يستطيـع الجري فيها مع بحوث الإلهيات العصيبة ولقد أساؤوا للاسلام السمح الفطري حيـــنما مزجوا عقائده بفلسفات دخيلة وعقيمة ، والفلسفة من شأنها أن تعقد ما نفهمه حتى لا نفهمه .

أراد مثيرو الفتنة وحاملو هذه المحنة أن ينكروا الخالق البرّ الرحيم. ولكنهم لو قالوا ذلك صراحة لكانوا طعمة للسيف، فعمدوا الى طريقة ودعوا الى ما يلزم منه نفي الإله (تَعالَى ٱللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً) وذلك بأنهم نفوا عنه تبارك وتعالى صفات الحي الموجود . فنفوا عنــــه السمع والبصر والكلام والاستواء والنزول والغضب والرضا . وكل ما وصف به نفسه سبحانه وتعالى في كتابه . وما وصفه به رسوله في سنته . وقالوا إن الله تعالى قال : « ليس كمثله شيء » والسمع يحتاج الى صماخ وأذن ومحارة وهي صفات الانسان المخلوق . والله ليس بمخلوق . والأبصار تحتاج الى حدقة وأجفان وهي صفات المخلوقين . والكلام يحتاج الى لسان ولهاة وحلق وهي صفات المخلوقين[1] .

---

١ - عن بحث عن المعتزلة للاستاذ سعدي ياسين .

- ٩ -

٣ ـــ أخطاء التصوف

ويقف المنهج العلمي الغربي الوافد من التصوف موقفاً مماثلاً لموقفه من الاعتزال بل أشد عنفاً وأكثر مطمحاً ، ويركز على التصوف الفلسفي ، ويعلي من شأن مفاهيمه واعلامه الى الحد الذي يبلغ بعالم كبير مثل (ماسينيون) أن يركز حياته كلها على دراسة الحلاّج وآثاره وأخباره، كما يركز الكثيرون من مفكري الغرب على وحدة الوجود والاشراق والاتحاد والحلول والفناء ، ويعتبرون هذه المفاهيم مفاهيم إسلامية بينما هي في الواقع مفاهيم وافدة . كما أولى الكثيرون اهتمامهم بدراسة الحلاج وابن عربي والسهروردي وابن سبعين وهم ممن تأثروا بالأفلاطونية الحديثة والفلسفة اليونانية والغنوصية ، وأحيوا العناصر التي أدخلها إخوان الصفا من مفاهيم إغريقية ومسيحية وفارسية الأصل . ومنها المذهب المانوي والزرادشتي وفلسفة فيلون اليهودي ، وفلسفة الرواقيين .

ولقد كان واضحاً في احتفال الفكر الغربي ومنهجه الوافد بالتصوف . وفي إحياء التراث القديم له ، إحياء ذلك الخيط الذي يربط بين هذا الفكر كله وبين الفكر الغربي قديمه وحديثه . مما يخرج عن مفهوم الاسلام وجوهر التوحيد . والجبرية من أخطر الأهداف التي أدى إليها انحراف التصوف ودخول عناصر غريبة عنه إليه ، وخاصة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، وتعني السلبية والانحراف عن مفهوم الاسلام في إيجابيته وإيمانه بالحياة والعمل ، ومعارضته لقيمة أساسية في الاسلام هي المسؤولية والجزاء .

فالانسان في مفهوم الاسلام مسؤول مسؤولية كاملة عن أعماله وتصرفاته

وسلوكه . ومن حقه أن يتصرف في حرية ، ويختار أفعاله . ومجاله في الاختيار واسع على ألا يتعدى حدود الله . ومن هنا فإن جزاءه على قدر مسؤوليته وعمله.

أما مفهوم وحدة الوجود فهو يطمن هذا المعنى ويقيم مفهوماً من الجبرية ؛ يجعل الانسان غير مسؤول . ومفاهيم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود هي مذاهب زائفة وافدة ترى امتزاج الله والعالم . وهو ما يخالف مفهوم الدين الحق. ومفهوم الاسلام : الله واجب الوجود ، فالله خالق والعالم مخلوق . والله مدبر الكون والعالم مدبَّرٌ له ، وليس الله (جل جلاله) حالاً في العالم . وإنما هو خالقه ومدبره . والله بيده عاقبة الأمور .

وقد فصل ذلك الإمام ابن تيمية في الرد على أصحاب هذا المذهب حين قال: إن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع . لأن الخالق والمخلوق اذا اتحدا . فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله، وهذا تعدد وليس باتحاد . وإما أن يستحيلا الى شيء ثالث كما يتحد الماء واللبن . أو النار والحديد . فيلزم أن يكون الخالق قد استحال ، وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره . وهذا ممتنع على الله تعالى إذ الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً . والله تعالى (واجب الوجود) بذاته وصفاته الملازمة له ، التي هي كمال ، والتي اذا عدمت كان ذلك نقصاً تنزه الله عنه .

والاسلام ينكر مذهب الحلول ووحدة الوجود ولا يقر مذهباً يقول بحلول الله في جسد إنسان ولا يقر العقول بفناء الذات الانسانية في الذات الإلهية ، ولا يقر القول بأن الله سبحانه وتعالى هو مجموعة هذه الموجودات والكون بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله . كما لا يقر القول بحلول الله في جسد الانسان ، كما يرفض الزهد والرهبنة ووراثة الملك وحياة الانقطاع . بل إن قهر النفس والانقطاع عن الدنيا ونبذها ليس من مفاهيم الاسلام أصلاً . بل هي من السلبيات التي شجبها شجباً كاملاً .

والاسلام لم يدع الى الرهبنة، بل هو صريح في إنكارها في القرآن والحديث، ولكنه دعا الى العبادة والورع والصوم والصلاة، وقد جعل الاسلام الزواج أساساً للزهد: يقول عبدالله بن عباس: لا يتم نسك الناسك إلا بالزواج. ومن هنا يتبين مدى الخطر الذي واجهه الفكر الاسلامي منذ ألقى المنهج العلمي الغربي الوافد بمفاهيمه في ساحة التصوف، وحرص على الاهتمام بشخصيات معينة منه، هي الشخصيات المنحرفة التي لا تمثل مفهوم الاسلام الصريح والتي التبس مفهومها بفلسفة الاشراق اليونانية كالحلاّج والسهروردي وابن عربي.

والمعروف أن الآراء التي أذاعها دعاة التصوف عن الجبرية ووحدة الوجود ليست أصيلة في الاسلام وإنما هي ثمرة الفكر الباطني الوافد من النظريات الفارسية واليونانية والهندية. فمذهب وحدة الوجود مذهب هندي برهمي، ومذهب الإشراق مذهب يوناني مستفاد من الأفلاطونية الحديثة.

وقد أشار الباحثون المسلمون [١] الى مدى خطر اهتمام المنهج العلمي الغربي الوافد بآثار الصوفية بهدف إغراق المثقفين المسلمين والعرب. فكتب الصوفية المنحرفة تصرفهم عن ميدان الكفاح الحقيقي. وان التأويل الفلسفي قد دخل على التصوف من الفلسفة اليونانية. أما الحلول والاتحاد فقد جاءا من نظرية التناسخ الهندية.

---

١ – عن نص للدكتور عمر فروخ.

(٢)

يقول الدكتور عبد القادر محمود: ان التصوف في مفهوم الاسلام لا يقر مذهباً يقول بحلول الله في جسد إنسان أو فنـــاء الذات الانسانية في الذات الإلهية. كما لا يقر القول بوحدة الوجود. أو أن الله هو مجموعة هذه الموجودات. وإذا جاز للمسلم المتصوف معنى من معـــاني الوحدة. فهي وحدة التوحيد المزاوجة بين الروحية والواقعية. وبين الظاهر والباطن. ومن هنـــا شط المستشرقون والتابعون لهم حين أكدوا أن التصوف هو مذهب الاتحاد ووحدة الوجود. ولم يدركوا بحكم اتجاههم الروحي والعقلي أن التصوف الاسلامي قد أثمر ثمراته من القرآن والحديث، وأن النظريات الفلسفية المنحرفة لم تقف على قدميها إلا في عهد انهيار الفكر الاسلامي الخالص وضياع السلطان السياسي وتمزق الخلافة، كما لم تثمر ثمارها إلا في عهد الصليبيين والقرامطة والتتار.

(٣)

ومن الحق أن يقال إن المنهج العلمي الغربي الوافد كان متجاوزاً للحق في إعلاء أمور لا يقرها الفكر الاسلامي ، وتتعارض مع أصله الأصيل (التوحيد) ، وان تلك الفرحة بهذه المفاهيم . وإعلاء هذا النوع من التصوف الفلسفي ونشر آثاره وإذاعة أخباره . وتخصيص الأساطين حياتهم كلها (نيكلسون ، ماسينون، جولدزيهر ، فلهوزن ، الخ) . ليكشف عن تلك الرغبة الحاسمة ، وذلك الهوى المكين في إخراج الاسلام عن مفاهيمه الأصيلة . والاسلام في مواجهـــة هذا الفكر الصوفي الفلسفي يقيم ثلاث دعائم أساسية :

الأولى : هي التوحيد الخالص فلا يقر وحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد بوجه من الوجوه .

الثانية : انه لا يقر العزلة عن الحياة والتحرر من الكفاح فيها باسم العبادة أو النسك .

الثالثة : ان أيناً من الناس مهما بلغ قدره في الإيمان بالله ارتفاعاً وعلواً لا يحق له أن يكف عن أداء فرائض الله . فإن الإسلام لم يرفع هذا التكليف عن أحد من الناس حتى رسول الله نفسه .

الباب الثاني

أخطاء التاريخ والحضارة

أولاً ــ مفاهيم التاريخ

ثانياً ــ علم الأجناس والقومية

ثالثاً ــ مفاهيم الحضارة

الفصل الأوّل

مَفاهِيمُ التَاريخ

إن المنهج العلمي الغربي : وقد قام على أسس أصيلة من الفكر الغربي ، وفي سبيل الدفاع عنه ، وإعلاء مفاهيم الغرب الأوربي ذي البشرة البيضاء المسيطر بالحضارة وأسرار العلم ، والزاحف بالنفوذ السياسي والعسكري على العــالم الاسلامي ، يقف من التاريخ البشري كله موقفاً واضحاً . ويقف بالتالي من تاريخ الاسلام والعرب موقفاً خاصاً باعتبار أن تاريخ الاسلام من وجهة نظر الغرب ؛ هو تاريخ الصراع بين القوة الاسلامية العربية التي صاولت الغرب وسيطرت على مناطق كثيرة في إفريقيا وآسيا كانت تحت نفوذ الامبراطورية الرومانية ، ثم هي القوة التي زحفت إلى شبه جزيرة اسبانيا واستقرت في الأندلس ثمانمائة سنة . ووصلت إلى حدود نهر اللوار . ثم زحفت من النــاحية الأخرى فنزلت في البلقان . ووصلت إلى أسوار فِينَـّا فاستقرت هناك ثلاثمائة عام . وفي خلال فترة الصراع هذه التي استمرت حوالي ألف عام زحف الغرب بجحافل الصليبيين على العالم الاسلامي . وأقام معه معركة ممتدة زهاء قرنــين كاملين ، ثم أعاد الكرّة بعد ذلك بالدوران حول العالم الاسلامي وتطويقه والسيطرة عليه على امتداد من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر حيث أحكم سيطرته على أغلب أجزائه حتى سيطر على بيت المقدس في أواخر الحرب العالمية الأولى ، وأحس الغرب بأنه باحكام هذه السيطرة قد ثأر لهزيمة الحروب الصليبية حتى قال بيبرس سميث في كتابه سيرة المسيح : « ان هذا الاستيلاء على بيت المقدس

كان حرباً صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها » وقام من مؤرخي الغرب وكتابه من يقول : لو أن العرب لبثوا في جزيرتهم العربية لما وقعت الحروب الصليبية . وان على العرب أن يعيدوا الأجزاء التي كانت للغرب أولاً .

ويقرر المنهج العلمي الغربي الوافد أن التاريخ يبدأ من الغرب وينتهي إلى الغرب . وأن دور الأمم الأخرى ليس شيئاً أساسياً أو رئيسياً .

وقد صور هذا المعنى كثير من المؤرخين والباحثين وعلمـــاء الأجناس من خلال المنهج العلمي الغربي وفي ضوء أصوله ومقاييسه التي تتأثر بالعاطفة والعنصر ولا ترتفع عن الهوى والتي تكوّن كل شيء بميول الغرب ونزعاته وتتحرك في دائرة استعلائه وطموحه .

فالانسان الأبيض في المنهج العلمي الغربي « لا الانسان عامة هو تاج الخليقة . وإن الغلبة له في كل صراع ينشب على وجه الأرض ، سواء أكان بينه وبين غيره من الأجناس الملونة أو بينه وبين مظاهر الطبيعة كالجبال والغابات والبحار أو بينه وبين الوحوش» . ويردد شتاينبك عبارته التي تجري مجرى الأمثال «الرجل الأبيض لا يغلب » . « وهم عند ما يكتبون تاريخهم يبدأونه بشعب أبيض هو شعب اليونان . وينقلون زعامة البشر من بعده بين أجناس بيضاء من رومان وطليان وجرمان . فإذا ظهر شعب ملوّن . وارتفع إلى مستواهم نظروا إليه بإيمان الذي يعتقد ان هبوطه لا بدّ منه يوماً . وذلك لانه ليس من الجنس الأبيض » .

ولا ريب أن هذه النظرية لا تمثل المنهج العلمي الأصيل في قليل ولا كثير . فهي تغض النظر عن التاريخ البشري كله قبل نهضة أوربا وخلالها وبعدها ، وتنكر فضل المعطيات التي أخذوها من الشرق قبـــل الاسلام . وكلها من معطيات دين إبراهيم الحنيف ، كما يغضون الطرف تمامـــاً عن دور المسلمين والعرب خلال ألف سنة كاملة لم يكن لأوربا فيها ذكر ولا اسم منذ سقطت روما في القرن الخامس إلى أن بدأ عصر النهضة الأوربية في القرن الخامس

عشر . ويطلقون على هذه المرحلة الضخمة من التاريخ : العصور المظلمة . وهي عصور مظلمة بحق ولكن في أوربا وحدها ، أما في أنحاء العالم كله (آسيا وإفريقيا) فقد كانت عصوراً مضيئة مشرقة .

ولقد كشف التاريخ موقف الغرب من العالم كله ، وموقفه من الاسلام عندما اقتحم أوربا من الغرب ثم من الشرق ، فالأوربيون لا يقبلون مزاحمة الاسلام لهم في قارتهم ، فهناك قاعدة لم تتخلف هي أن ينتهي المسلمون من أوربا بالهجرة أو بالتنصير . وقد وضعوا لذلك سياسة بالغة العنف . حدث هذا من ناحية الأندلس . ثم حدث من ناحية آسيا الصغرى والبلقان .

وقد عمل مفكرو الغرب على نقل الفكر الاسلامي مع إهدار طابعه الاسلامي وتحويله إلى فكر غربي . ثم أقاموا على الاصرار على انكار فضل المسلمين والعرب . وهناك نماذج كثيرة ، أبرزها تجربة توماس الأكويني الذي عمل على فصل الثقافة العربية الاسلامية وهو يترجمها لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية عن أصلها الاسلامي من حيث طابع التوحيد والتكامل . ومضت حركة الترجمة والنقل على أساس الانتفاع بكل ما قدمه الاسلام للفكر الانساني دون نسبته إليه . ونقل المنهج العلمي التجريبي وتحويله إلى منهج غربي مع عدم الاعتراف بفضل العرب والاسلام ، مع القفز من الحضارة الرومانية إلى الحضارة الحديثة مع تجاهل فترة ألف عام هي المرحلة الاسلامية ، وتعمُّد مخالفة الأسس وتجاهل الأثر العربي الاسلامي ومعارضته واتهامه والحقد عليه ونقده في تعصب (هذا مع التحفظ بأن هناك أفراداً قلائل من الباحثين خرجوا على المنهج العلمي الغربي الوافد . ونظروا إلى الأمور بإنصاف منهم : كارليل ، ولوبون ، وهونكه) .

وهؤلاء قلة قليلة بالنسبة لكتاب الغرب الذين يحكمهم المنهج العلمي الغربي الوافد . والذين تقطر أقلامهم سمًّا وكراهية واحتقاراً واستعلاء للعرب والمسلمين وللبشرية كلها .

ومن أخطر صور الازدراء والاحتقار ما يقوله مؤرخ غربي كبير هو : موريس كورديه في كتابه تاريخ الحضارات « ان المسلم يتمثل عند الأوربي : هو ذلك الذي يرسم عندما يجثو حركة يشمئز منها الأوربي ، لأنها تنم عن العبودية . فالمسلم هو نقيض الأوربي والاسلام نقيض أوربا » .

ومعنى هذا أن السجود لله وهـــو عنصر أصيل أساسي في الاسلام . فيه الإكبار لله وإعلان العبودية لله ، والخضوع لوجهه الكريم وحده ، هذا المعنى الذي يشمئز منه الأوربي هو أعلى مظاهر التحرر مـــن عبودية المادة ، ومن الوثنية ، ومن عبادة الذهب والحضارة ، ومن الخضوع للأهـــواء والشهوات والمطامع ، ومن الذل للإنسان أميراً أو بطلاً أو حاكماً . فهو أرقى مظاهر الحرية العقلية والروحية . والاسلام هو الذي حرر البشرية من الانحناء للنار . وللصور وللتماثيل وللبشر المؤهلين . وأطلقها من عبادة الأبطال والآلهة وأنصاف الآلهة ، ولا ريب أن هذا الخلاف العميق في العقائد بين الاسلام والفكر الغربي يجعل المنهج العلمي الغربي الوافد عاجزاً عن استيعاب الاسلام ، وغير قادر على النظر فيه . بله الحكم عليه ، ولا ريب أن الهوى العقائدي والهوى التاريخي يشتركان معاً في الحكم بالعجز عن الوصول إلى أحكام علمية خالصة من العواطف والعنصرية والميول والرغبات .

- ٢ -

ليس للفكر الغربي منهج واحد لدراسة التاريخ . ولكن هناك منهج واحد للبحث يحكم كل هذه المناهج العلمية ، ذلك المنهج مستمد من العقلية والعقيدة والجنس وهو يجري في نطاق طابع الفكر الغربي في آخر مراحله ، وهو المادية الخالصة التي فصلت عنها كل ما يتصل بالروح أو عالم الغيب أو ما وراء الحس والظواهر .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الغربي الوافد لا يعتبر حاكماً . لأنه لا يستطيع أن يقف موقف العدل في النظر المنصف المجرد بين وجهتي نظر مختلفتين ليقول أيهما أصدق وأيهما أعدل وأيهما أحكم وأيهما خير للبشرية في حاضرها ومستقبلها . ولكنه حاكم بمعنى أنه يرجح وجهة النظر الغربية . ويحاول دائماً إيجاد الأدلة على أنها الأصح والأقوى وأن وجهـــة النظر الأخرى هي الأضعف والأبعد . ومعنى هذا أنه يدخل حلبة البحث بفكر مسبق وبعقيدة مسبقة ، وبإصرار على مناصرة وجهة نظره ، والتماس كل الوسائل التي تكفل انتصارها ، وهزم وجهة النظر الأخرى . ويحكمه في هذا أمران : الاستعلاء العنصري الذي يحمل معه كل فلسفاته ومفاهيمه معتقداً أنها : مصدر نفوذه وسيادته وسلطانه .

أما الأمر الثاني فهو تبرير وجوده واستعماره لعالم العرب والاسلام . ودعوة

هذا العالم الى فكر هو مصدر السلطان والحكم ، وفي هذا ما فيه من الإشارة الى أن الفكر والعقيدة التي تحكم عالم الاسلام هي مصدر التخلف والهزيمة .

ولا ريب أن في ذلك افتئات كبير على الحقيقة وعلى المنهج العلمي الأصيل . فليست قيم الغرب هي مصدر نصره واستعلائه . ولكن مصدر ذلك هو تطويق العوالم المستعمرة وتجريدها من كل عوامل القوة المادية . واستمرار الحيلولة بينها وبين امتلاك إرادتها ، ثم العمل من داخل هذه الدائرة على هزيمتها فكرياً بطرح هذه المفاهيم .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي يؤمن ، وأهله يؤمنون ، بأنه أصلح المناهج لهم وللانسان جميعاً وأنه يقوم على أساس فكرة العدل والانصاف وتحري الحق. حتى ولو كان هذا الحق معارضاً لموقف من مواقفه، أو تصرف من تصرفات أهله (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) .

فالفكر الاسلامي يقوم على أساس الحق المطلق الذي ليس له أكثر من أسلوب . أو أكثر من طريقة ، أو الذي يحاور ويداور عن طريق « التأويل » أو « التبرير » . فقد قدم الاسلام معطاة رئيسية هي فكرة الحق في كل شيء . في النظر والبحث عن الله سبحانه وتعالى ، وعن الكون ، وعن المعرفة ، وهي أساس الحكم على الأشياء ، بعيداً عن التقليد والتبعية أو الجمود ومأثور الباطل ، والرأي القائم على الظن ، والحكم بالهوى .

وحين يتاح للفكر الاسلامي أن يقوّم الفكر الغربي والحضارة الغربية بإرادة مطلقة فإنه سوف يكون أكثر إنصافاً وأقل تعصباً أو تحيزاً . وخاصة في مجال النقد الذاتي .

والمنهج العلمي الاسلامي يصدر عن فكرة أصيلة واحدة تنتظم مناهج

البحث في كل العلوم والقيم وتكشف عن منطق واحد واضح ، ساطع الضوء بعيد عن الظلال والرمزية والإيماءات التي تحمل أكثر من تفسير وأكثر من تحليل.

أما المنهج العلمي فإنه يقدم عدداً من المدارس والمذاهب في تفسير التاريخ : لاهوتيًّا وماديًّا واقتصادياً وجغرافياً وجنسياً . ويقصر عن النظرة الكاملة التي يعتمدها المنهج العلمي الاسلامي في أن يقيم نظرية في تفسير التاريخ على أساس الدين والجنس والاقتصاد والمناخ . ويجعل للعقائد والأديان والفكر وبطولة الفرد والإيمان عاملاً هامًّا أساسيًّا .

والمنهج العلمي الاسلامي يصدر في منهجه في تفسير التاريخ من طبيعته التي تقوم على التوحيد والتكامل وارتباط الدنيا بالآخرة والجزاء . وأبرز معطيات المنهج العلمي الاسلامي في تفسير التاريخ هو : « أن نهـــاية وجود التاريخ يوم تقوم الساعة »[1] .

وان أبرز ضوء يوضع تحت نظر الباحث في التـاريخ هو الموت والمسؤولية الفردية والجزاء الأخروي . وان خطأ المنهج العلمي الغربي الوافد (غربياً أو ماركسياً) هو ناشىء عن تجاهل الموت والتنكر للقيم[2] .

فالمنهـج العلمي الاسلامي « لا يقر النظرية الفردية الغربية المتطرفة لتفسير التاريخ . ولجعل التاريخ من رسم أفراد معدودين » وهو « لا ينكر أثر الأفراد كعامل من عوامل رسم التاريخ بما أودع فيهم من قوة سواء السير على الطريق الصحيح أو الطريـق الخاطىء : وأمامنا أثر ابراهيم في الطريق الأول وفرعون في الطريق الآخر »[3] وهو في نفس الوقت « لا يقر النظرية الجبرية الماركسية

---

١ — من بحث للعلامة علي الفاسي .

٢ — نفس المصدر .

٣ — عن بحث لاستاذ كبير في مجلة حضارة الاسلام .

للمجتمع لأنه ينكر أية نظرية تثبت جـبرية الانسان ، وتعطل إرادته . حيث أنه يؤكد مشيئة الانسان ومسؤوليته عن أعماله . ومع ذلك فإنه لا ينكر أثر المجتمع في سير التاريخ» ولا يقر نظرية منفصلة تجعل العوامل الجغرافية والطبيعية مصدراً أساسياً للتاريخ يقوم على أثر الأنهار والجبال . وإن كانت هذه العوامل إحدى العوامل المؤثرة .

فالإرادة الانسانية عامل لا ريب فيه يحرك التاريخ من داخـــل إرادة الله ومشيئته .

- ٣ -

قام تفسير التاريخ في الفكر الغربي على عـــدة مناهج ، وتحرك في دوائر مختلفة ، وتطور تطوراً كبيراً من خلال الفلسفات اللاهوتية والمثـالية والمادية التي تتابعت على الفكر الغربي .

أولاً : تفسير مسيحي قوامه أن المسيحي يعيش بشخصية مزدوجة أو عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط . فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق . والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثـــل الأعلى المنشود ، ويسير هـــذان الخطان في نفسه متجاورين أو متباعدين . ولكن بغير اتصال. والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه[1] .

ثانيـاً : تفسير مادي ويقوم على أساس تطبيق القوانين البيولوجية مثل نظرية دارون وما يتعلق بها على التاريخ وعلى المجتمعات البشرية باعتبار أنها نوع من الكائنات الحيـة ، وهم يرون أن الأشياء الحقيقية هي الأشياء المرئية فقط . وما يسمى بالروح ليس إلا أسطورة . وأن الحس والشعور طاقة من طاقات المادة ، ورفض ما وراء الطبيعة[2] .

---

١ – عن ولفرد كانتول سميث في كتابه (الاسلام في التاريخ الحديث) .

٢ – عن بحث للدكتور جواد علي .

ثالثاً : تفسير غربي : يؤمن بأن البشرية هي الغرب وحده ، وأن التاريخ الغربي هو تاريخ البشرية وحده ، وأن التاريخ البشري بدأ بالرومان وانتهى بالغرب . وهذه هي النظرية التي تقوم على تبرير الاستعمار وأفضلية الجنس واللون والامتياز العنصري الذي أعطى لأوربا مكانتها في السيطرة . ويفرق هذا التفسير بين الشعوب الآرية والشعوب السامية . ويقرر تفوق الأمم الأوربية على سائر أمم العالم .

رابعاً : تفسير ماركسي : (التفسير المادي للتاريخ) وهو يقوم على نظرية أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ، ويعرض هذا التفسير عن جانب المعنويات والقوى الذاتية ، وعن القيم سواء منها العقائد أو الأخلاق .

ويقول ولفرد كانتول سميث ان التاريخ في النظر الماركسي : هو الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي الى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس . بل في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده وكل شيء عداه باطل ، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

خامساً : النظرية القائمة على تأثير الجغرافيا والطقس والمناخ والتي يتزعمها «بكل» ويتخذها كثير من الباحثين أساساً لتفسير التاريخ .

سادساً : النظرية الجماعية التي تقول بأن التاريخ ليس من صنع الأفراد والأبطال بل من صنع الجماعات وأن الفرد لا قيمة له في سير التاريخ .

سابعاً : النظرية العالمية للتاريخ : وقد سيطر على هذا الاتجاه دعاة التلمودية الصهيونية وقد قصد به الى تفسير التاريخ تفسيراً عاماً يخضع لنظرية التطور المطلق ، وإعلاء شأن الحضارات القديمة والوثنيات والسحر

والخرافة والأسطورة . وقد سار في هـذا الاتجاه ولزوول ديورانت الذي يظهر عطفاً كبيراً على اليهود في التاريخ . فقـــد عرض تاريخ اليهود في موسوعة قصة الحضارة عرضـــاً جذاباً مشرباً بالعطف والمحاباة .

ثامنـاً : التفسير الجنسي : وهو غير التفسير العنصري . ويقوم عـــلى أساس أخلاقيات القـــادة ويرد أصحاب هذا المنهج تفسيرات التاريخ الى علاقات الغرائز والمواقف الجنسية ومواقف الحبّ والغرام والرغائب الجنسية . ويعتمد هذا التفسير في الأغلب على نظرية فرويد التي تقوم على أن الجنس هو مصدر تصرفات الانسان كلها .

- ٤ -

وهكذا يضطرب المنهج العلمي الغربي الوافد بنظريات متعددة . ووجهات نظر جزئية ومنفصلة . يقف أصحاب كل منها موقف الحسم في أن مذهبه وحده هو التفسير العلمي الصحيح للتاريخ . ويتصل بهذا الافتراض الذي يقوم في الفكر الغربي مقام المسلمة التي لا سبيـــل الى معارضتها تقسيم الغربيين للعصور من جهة وللأمم والشعوب من جهة أخرى :

أولاً : العصور الوسطى هي عصور الظلام ، لأن أوربا كانت تعيش في ظلام حالك ، وقد تجاهل الغربيون الحضارة الاسلامية التي كانت متألقة في تلك العصور .

ثانيـاً : تاريخ افريقيا السوداء يبدأ عندهم حينما دخلها الرحـالة الأوربيون . أما قبل ذلك فليس لها تاريخ .

ثالثـاً : العالم هو الغرب ، والفكر العالمي هو الفكر الغربي ، والعالم قد عاش حضارة اليونان والرومان ، ثم عاش حضارة أوربا منذ عضر النهضة .

رابعـاً : العالم مقسم الى أجناس عليا وأجناس دنيا ، ودماء زرقاء ودمـــاء سوداء ، والقول بأن أسباب تخلف الأمم مصدره وجـود خصائص أصيلة في عقلية تلك الأمم تمنع تقدمها ، وبأن هنـــاك شعوباً مختارة كالشعب اليهودي .

★ ★ ★

ولا ريب كان لهذه النظرية أثرهـا البعيد المدى في النفس العربية الاسلامية والعقل العربي الاسلامي . وكان لها رد فعل في الريب القائم والشك الدائم في كل المقررات التي يقدمها الفكر الغربي تحت اسم المنهج العلمي الغربي (الوافد) .

وقد أشار هاملتون جب الى هذه الظاهرة حين قال : إن المسلمين والعرب يعترضون على محاولة تصوير الحوار بين الشرق والغرب على أنه حوار بين غالب ومغلوب . وأن ذلك العامل كان له أكبر الأثر في عقول الشعوب الشرقية اليوم. وهو أن الغرب الذي أمسك بزمام المبادرة في الخمسمائة سنة الأخيرة كان ولا يزال ينظر الى الشعوب الشرقية و كأنها وسائل لغاياته الخاصة .

ولقد جاء الغربي الى الشرق فاتحـــاً أو مستعمراً أو تاجراً أو مستغلاً أو مرسلاً في المقام الأول . وكان دافعه الرئيسي الكسب والاقتناء . فاستخدم في الأغلب القوة التي وضعها العلم والتقنية في يديه في سبيل مصالحه الخاصة[1] .

إن هناك محاولة لاخضاع الشرق ووضعه دائماً في دائرة النفوذ . وفي حلقـة مغلقـة لا تمكنه من الحركة الحرة ، ولكن فكر العرب والمسلمين لا يستطيـع أن يقبل التبعية والتقليد فضلا عن أنه هل يقبـل الشرق هذه الحضارة الغربية وهي تمر الآن بمرحلة أزمتها الخطيرة وتفككها وتمزقها البالغ وشعبها المتصارع ؟

* * *

ولا ريب أن هنـاك عدة ظواهر بعيدة الأثر في عجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن الوصول الى الحقيقة الكلية :

أولا : ذلك الصراع الضخم القائم بين المدارس الغربية وتمزقهـــا (وخاصة ذلك الصراع بين المدرستين الأدبية والعلمية) وقصور نظرهـــا على جزئية واحدة ، أو أفق محدود . دون أن يكون قادراً على النظرة

---

١ ـ النص عن مقال . م ١٢ سنة ١٩٥٩ مجلة الأبحاث ص ٤٨٥ .

الكلية والآفاق الواسعة والأبعاد المتكاملة والتي لا يحققها غير النظرة الاسلامية .

ثانياً : محاولة الحكم على العصور والأمم على أساس مفـــاهيم عصر آخر (فالحضارة اليونانية لا تقاس بمفاهيم الحضارة الرومانية) .

ثالثاً : محاولة تطبيق المناهج الخاصة بالأنبياء والرسل على الأبطال والقادة . ذلك لأن بطولة الأبطال والقادة إنما تقوم على غـير الأسس التي تقوم عليها عظمة الأنبياء والرسل . بل لربما كانت تقوم على عكسها فسرُّ عظمة نابليون والاسكندر وهانيبال « إنما تكمن في ضخامة الأنانية وفرط الدنيوية » وهي في هذا مغايرة تماماً لروح الإيثار وإنـــكار الذات التي عرفت عن الأنبياء والرسل. فضلاً عن أن الرسل والأنبياء لهـــم جوانب لا تخضع للمقاييس المادية ، وتتصل بالوحي وتأييد الله لهم .

- ٥ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفـــق الفكر الاسلامي « تصوراً » للتاريخ الاسلامي مستمداً من مفاهيم الغرب وقائماً على أساس قيمه. وقد عجز هذا التصور عن الإحاطة والاستيعاب ، بـل والفهم للاسلام وتفسير تاريخه وحركة انطلاقته وأحداثه .

ولا ريب أن هناك عوامل كثيرة ، تحول دون النظرة الصحيحة المنصفة والاستيعاب الكامل ، ترجـــع الى طبيعة المؤرخ وجنسيته ودينه ونظرته العقائدية . وفي أشد الحالات تحرراً من هذه العوامل . فإن الباحث الغربي يعجز عن فهم روح التاريخ الاسلامي وأسراره نتيجة اختلاف وجهـــة النظر الأساسية بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي ، وأول هـذه الاختلافات هي : تجزئة الكون والطبيعة أو الفصل بين (الله والطبيعة) وبين العـــلم والدين في الفكر الغربي . والمنهج العلمي الغربي الوافد .

أما الفكر الاسلامي فيقوم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها . فالاسلام هو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام ، لأنه يجمـع بين الروح والجسد في نظام الدين والسماء ، والأرض في نظام الكون . ويسلكها في طريق واحد هو الطريق الى الله . وان الاسلام – والاسلام وحـده – هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة غـــير متنافسة . والتاريخ الاسلامي

حافل بأسماء الألوف من الأفذاذ الذين كانوا مناراً في العقيدة ومرجعاً في البحث العلمي . ولا تجد مثل هذه الكتب في تاريخ غير المسلمين[1] .

ويكشف الباحث المسلم محمد أسد (ليوبولد بولس) عن الفرق بين وجهة النظر الاسلامية . ووجهة النظر الغربية مقارناً بينهما فيقول : « إن وجهة النظر الاسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية ، إذ أن الاسلام يعتبر وجود الامكان الروحي لمجموع البشر صفة كامنة . أي أنه شيء وضع في بناء الطبيعة البشرية ، ولا يسلم أبداً – كما يفعل الغرب – بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائي كالذي يحدث للشجرة في نموها ، ذلك لأن أساس تلك الطبيعة (أي النفس الانسانية) ليس كمية عضوية فحسب . والخطأ الأساسي في التفكير الأوربي الحديث ناتج عن اعتبار التزايد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفاً للترقي الروحي والأدبي ، وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها . أما الاسلام الذي بني على أوجه من الادراك المطلق . فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش ، والسبب في هجر الأوربيين للأفكار المطلقة ، هو أن الفكر الأوربي في هروبه من الكنيسة ورغبته الخفية والظاهرة في خلع نيرها . قد مال الى فكرة نفي الثبات على الاطلاق ، واستعاض عنها بفكرة التطور على الاطلاق . وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم ولأصل التصور الذي ترجع إليه القيم فكرة تناقض الأصل الواضح في بناء الكون وفي بناء الفطرة الانسانية . فمادة الكون سواء كانت الذرة أم الإشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها . أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية تتحرك حول محور ثابت لا يتغير مطلقاً ، ولما كانت الأمة المسلمة ذات حضارة ناتجة عن نظام خاص بحياة المسلمين ومشاعرهم ومعتقداتهم وألوان سلوكهم : أمة ذات ايدلوجية خاصة في نظرتها الى الكون والحياة والانسان .

---

١ – عن بحث للدكتور أحمد نصيف الجنابي ، مجلة الأقلام الواقعة مارس سنة ١٩٦٩ .

ولما كان من المستحيل تصور إمكان دراسة الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامي دون ربطها بالعقيدة الاسلامية . لأن الحياة الاسلامية والتاريخ الاسلامي انبثقا عن هذه العقيدة أدركنا بعد الشقة بين مناهج البحث الغربية والاسلامية .

ويظهر أهم أوجه الخلاف بين المنهجين في ابعاد الجانب الروحي عن مفهوم الفكر الغربي واختلاف زاوية النظر تبعاً لذلك بالإضافة إلى أن الغربيين يعتبرون أوربا محور العالم ، فكل ما هو غير غربي فهو غير جدير بالاعتبار . وليس بذي قيمة ، وليس له من « الأصالة » شيء . وهذه النظرة المتحيزة ذات أثر بعيد في بحوث الغربيين في التاريخ « ولما كان كتاب الغرب ومستشرقوه لا يمكن أن يستوعبوا خصائص التصور الاسلامي ومقوماته الانسانية فهم لا يستطيعون أن ينفذوا إلى أعماق الحياة الاسلامية . وبالتالي فهم لا يدركون الأمـــور ذات الطابع العقائدي التي أثرت في سلوك المسلمين فيشوهون تفسيرها »[1] اهـ .

---

١ ـ محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق .

- ٦ -

وإذا كان محمد أسد قد استطاع أن يستوعب مفهوم المنهج العلمي الاسلامي في تفسير التاريخ لأنه أسلم واستوعب الاسلام وفكره ومفاهيمه . فإن باحثاً غربياً آخر . لم يدخل في دائرة الاسلام . ومع ذلك فقد استطاع أن يفهم بعمق مفهوم المسلم للتاريخ . ذلك هو (ولفرد كانتول سميث) الذي يقول : « إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ . إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً . يسير البشر في الأرض على مقتضاه ، ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو اجتماعي ، وكل شعور فردي أو اجتماعي بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض . لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض . ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو اجتماعياً ذو أهمية بالغة . لأن الحاضر هو نتيجة الماضي ، والمستقبل متوقف على الحاضر .

« وما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة . كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع . وإن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وإن الغربي لا يفهم الاسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً » .

٢ – ويقول العلامة تريتون : إذا صح في العقول أن التفسير المادي للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً في تعليل معظم الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً ، حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم . وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة . رأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الاسلام . « رأوا أن الاسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة ودنيا مليئة حية ، وهو علة العمران وسبيل الحضارة ، وهو الطريق إلى جمع الكلمة ونشر السلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب » .

٣ – ويقول البان وايدجراي : أما وجهة نظر المسلمين للتاريخ . فإنها نظرة بناءة أكثر مما سبقها . فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي القرآني ، فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله ولا يعود يوجد من يعصي أوامره ، ويعم الرخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ، ويعلم أن لا مرد لإرادة الله .

- ٧ -

إن نظرات المؤرخين الغربيين للتاريخ الاسلامي تكشف عن قصور واضح عن فهم الاسلام ومنهجه العلمي الأصيل وخير مثال لذلك أرنولدتوينبي . ذلك أن توينبي لم يتناول الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامي وحـــدة حضارية متكاملة . بل عزل حوادث التاريخ الاسلامي عزلاً ، وخالف المنهج العلمي الذي يفسر التاريخ على أساسه ، كما أنه انتخب من الحوادث ما يروق له . ويتضمن كلام توينبي أولاً : ان مبدأ الوحدانية في الاسلام مأخوذ من الروم . ثانياً : ان مبدأ النظام والقانون نقله محمد ﷺ عن الدولة الرومانية . ثالثـاً : ان هجرة النبي وصحابته الكرام كانت خروجاً على مبدأ الاعتكاف[١] .

وقد واجه الباحثون هذه الأخطاء : أما مبدأ الوحدانية في الاسلام فهو بعيد جداً عن روح الحضارة الرومانية التي تعبد آلهة متعددة بعيدة عن مبدأ التوحيد . وأما القول بأن مبدأ النظام والقانون في الاسلام قد نقله محمد عن الدولة الرومانية ، فإن هذا الزعم يبدو متهافتاً إذا أثبتنا أن النبي كان أمياً وأن مرد التشريع في الاسلام إلى الله . ومن الأمور المسلّم بها أن النبي كان أمياً لحكمة تتمثل في سد الطريق أمام المتشككين في الوحي والظانين أن النبي أخذ من أهل الكتاب . ومن أهم ما ينقض هذا الزعم الطريقة التي ظهرت

---

١ - أحمد نصيف الجنابي : مجلة الأقلام الواقعة مارس ١٩٦٩ .

بها قواعد التشريع الاسلامي . فقد كان التشريع الاسلامي في حياة الرسول يعتمد على مصدرين : القرآن والسنّة . وقد اشتمل القرآن على القواعد الاقتصادية والتشريعية وعلى القواعد المتعلقة بالعقيدة الدينية والأخلاقية . كما أن القواعد القانونية في الاسلام تكونت تدريجياً وبمناسبة وقعت فعلاً ، ولم تكن هناك قواعد قانونية . شرعت لحالات افتراضية . كما أمكن تبني بعض التقاليد العرفية التي سادت المجتمع العربي وتعديل بعضها لتلائم روح التشريع الاسلامي . وهذا كله بعيد عن كل تأثر بالقانون الروماني .

أما ما يتصل بأن هجرة النبي وصحابته كانت خروجاً على مبدأ الاعتكاف . فهو زعم متأثر بالنظرة الغربية المسيحية . ولا شك أن وجود توينبي (الانسان المؤرخ) في مجتمع مسيحي غربي يؤثر في نظرته إلى الاسلام حتى في الكلمات التي يستعملها . وبناء على نظريته المسيحية الغربية . يرى أن سيرة النبي في الفترتين (المكية والمدنية) متناقضة لأن النبي شغل في الفصل الأول برسالته الدينية بطريقة سليمة من الدعوة والتبشير . وشغل في المرحلة الثانية ببناء سلطة عسكرية وسياسية ، والنظرة المسيحية الغربية هنا واضحة إذ إنها ترى أن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . والصريح في تعاليم يسوع وحياته نبذ الأخذ بالسيف ، أو استخدام القوة . وهذه النظرة تختلف عن النظرة الاسلامية أساساً إذ إن الدين والدولة لم ينفصلا في الاسلام ، وليس في الاسلام نبذ الأخذ بالقوة . وخير ما يستشهد به في هذا المجال ما قاله (نوراندريه) في كتابه عن حياة محمد ودعوته حيث قال : إننا معشر الكتاب المسيحيين الغربيين نقيس حياة محمد عن شعور وغير شعور بحياة المسيح . ووفق المبادىء الموجودة في الكتاب المقدس ، وهي نظرة مخالفة على كل حال للنظرة التي يراه أصحابه ومعتنقو دعوته بها[1] .

---

١ ـ هذا الدفاع من قلم الاستاذ أحمد نصيف الجنابي .

- ٨ -

تتعدد مناهج المؤرخين والكتاب الغربيين الذين يتصدون لتفسير الاسلام ، ولكنها لا تخرج عن التأثر بالمذهب المادي في دراسة التاريخ . وهو ما تقوم الإرساليات بتدريسه في الجامعات التي أنشأتها في العالم الاسلامي ، أو التأثر بمفهوم المسيحية نفسها ومحاولة تطبيقه على الاسلام ، أو تتأثر بأهواء الدين أو الاستعمار أو هما معاً . ونجد (بروكلمان) في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » يذهب هذا المذهب الذي ذهب إليه (توينبي) في القول بتأثر النبي بالكتب القديمة . وبأن القرآن من تأليفه .

وهو نفس ما يذهب إليه (مرجليوث) وإن كان هذا يحمل معه تعصباً أشدّ عنفاً . ويجري مجراه (لامنس) وكثـــير من المستشرقين . مما يتصل بالتعصب الديني أو القومي الذي يعمي عن الحقائق . أو يدفع إلى قلبها على حد تعبير الدكتور زكي محمد حسن ، الذي يقول عن لامنس : انه جمع بين التعصب الديني والتعصب لبني أمية : وان ذلك كان يدفعه في كثير من الحالات إلى إهمال بعض النصوص والاكتفاء بنصوص مبتورة يعمل على أن يحملهـــا من المعاني ما لا تحتمل ، كما كان يدفعه في حالات أخرى إلى إهمال بعض الجوانب من الموضوع الذي يعرض لدراسته . ويقول : كان الأب لامنس من أشد المتعصبين على الاسلام ، وهو بعد ذلك من المعجبين ببني أمية لأن الدولة التي أقاموها كانت

تعنى بمظاهر الملك وبالعصبية العربية أكثر من عنايتها بالدين وشؤونه لأنها قامت في الشام ، وتأثرت بالمدنيات القديمة التي قامت في ربوعه[1] .

وعندما يراجع الباحث آثار أرنست رينان[2] وصمويل زويمر ولورنس وجبرائيل هاناتو ودوق داركور ولويس شيخو ولويس برتران ووليم وبلكوكس وفنسنك وجلوب وجولدزيهر فيما عرف عنهم من كتابات عن الاسلام بالاضافة إلى عشرات الكتاب الغربيين يجدها لا تخرج عن أنها :

١ – خطأ في الفهم وتطبيق على مفهوم المسيحية .

٢ – استعلاء بالجنس أو بالعنصر أو بالحضارة .

٣ – محاولة لإثارة الشبهة وتزييف الرأي لإخضاع الأمم . وكلها في مجموعها لا تتقيد بمنهج علمي ، ولا تخضع لنظرة موضوعية ولا تستهدف الوصول إلى حقيقة . وإنما تقوم على فكر مسبق وهوى غالب .

يقول الدكتور حسين الهراوي : إنهم في التاريخ يتكلمون بروح المؤرخ ، أما عن سيدنا محمد وعن الاسلام والقرآن فهم يتكلمون بروح المنفر الذي يخيف الناس من الاسلام ، وبروح المتحامل الذي يكيل الشتائم من غير وزن وتنقصهم في مباحثهم عن الاسلام الروح العلمية . ولهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم ، وهي أنهم يفرضون فرضاً ثم يلتمسون أسبابه . فإذا وجدوا في القرآن آيات تتناسب في معانيها مع فرضهم اقتبسوها وإذا وجدوا الآيات لا تتناسب مع أغراضهم تجاهلوها ، وقالوا إنها غير موجودة في القرآن . فإذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه . والتمسوا الآيات التي تتناسب والمعنى المراد . ولا مانع من بترها إذا اقضى الحال . وتحريف معناها حسب الرغبة .

---

١ – مجلة كلية الآداب م ١٢ سنة ١٩٥٠ .

٢ – راجع دراستنا عن هذا الاتجاه في كتابنا (الاسلام والثقافة العربية) .

- ٩ -

ولقد أمكن الحصول على إشارات متعددة وإيماءات سريعة تكشف عن هذا الانحراف في المنهج العلمي الوافد ، وتؤيد الاتجاه الذي يحكمه الهوى والعنصر والاستعلاء باللون . من ذلك ما أشار إليه أحد أتباعهم (نبيه أمين فارس) حين قال : إن الجزء الأكبر من مؤلفات الغربيين عن الاسلام قد صدر عن أولئك الذين يتحكم في تفكيرهم الاعتقاد بأن الاسلام دين متخلف . وقد تقدم كثير منهم نحو فهم الاسلام . ومع ذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء المغرضة تلازم موقفهم من الاسلام[١] ويصل دكتور (أدوين كالغربي) إلى حقيقة أساسية حين يقرر في بحث مطول[٢] أن الغربيين استقوا معارفهم عن الاسلام من مصدرين :

(أحدهما) يتمثل في الشائعات التي روجها بعض المحاربين والتجار الغربيين وغيرهم ممن زاروا المدن الاسلامية بعد عودتهم إلى بلادهم . (والآخر) يتمثل في المعلومات التي أذاعها الغربيون القليلون الذين اطلعوا على القرآن وغيره من كتب الدين الاسلامي . وعنده ان أبرز هذه الأخطاء أن المسلمين يعبدون محمداً . ويقول : إنه ليس عسيراً أن يتقبل الغربي هذه الفكرة . فكما أن بعض المسيحيين يعبدون المسيح – مؤسس المسيحية والشخصية المركزية التي يدور

١ – مجلة الأبحاث ، ١٩٥٦ .

٢ – الهلال م ١٩٥٦ .

حولها هذا الدين – فكذلك يظن بعض الغربيين أن المسلمين يعبدون محمداً مؤسس دينهم الذي يطلق عليه الغربيون لهذا السبب اسم « المحمدية » .

وقد اتصلت أخطاء المنهج العلمي الوافد في تاريخ الاسلام فشملت قضايا متعددة ، منها : (معركة بلاط الشهداء) حيث حاول الغربيون تصوير المسلمين فيها بصورة مخالفة للحقيقة التي اعترف بها بعض المنصفين من بعدُ حين اعترفوا بأن هذه الموقعة التي أوقفت الفتح الاسلامي قد أخرت أوربا ثمانية قرون عن اللحاق بركب المدنية الذي كان قياده بيد المسلمين . ومنها محاولة الادعاء بأن حريق مكتبة الاسكندرية تم بأيدي العرب . وقد كشفت الوثائق التاريخية الأصيلة زيف هذه الدعوى . كما حاول الكتاب الغربيون أن يردوا أسباب تخلف المسلمين إلى الاسلام . وقد سقطت هذه الدعوى أيضاً . ويتبين أن هذه محاولات لإثارة الغبار في وجه الفكر الاسلامي الأصيل . كما جرت الدعوة إلى تجزئة الاسلام والحديث عنه على أنه دين عبادة فحسب .

ولقد حمل لواء هذه الشبهات وطرحها في أفق الفكر الاسلامي عدد من التابعين للفكر الغربي ، والموالين له من العرب عن هوى وتحيز . ومنهم جرجي زيدان ، وفيليب حتي ، وطه حسين ، وسلامة موسى ، ونبيه أمين فارس ، وأحمد أمين ، وجورج أنطونيوس . وقد تابع هؤلاء المنهج العلمي الغربي الوافد في عثراته وأخطائه وأهوائه بالرغم من أنهم شرقيون ، ومنهم من حاول تفسير الاسلام تفسيراً عنصرياً قومياً زاعمين أن النبي محمداً ﷺ ، إن هو إلا بطل من أبطال العرب ، وأن الاسلام مجرد تعبير من تعابير عبقريتهم . ويستهدف هذا الاتجاه إعلاء الطابع القومي في الفكر لإحلاله مكان الطابع الاسلامي الجامع .

ولقد تابع أحمد أمين المنهج العلمي الغربي الوافد في تقبل رأي (أرنست رينان في العرب) وما ادعاه من خيالهم المحدود العاجز عن خلق الأساطير . وكان هذا الاتجاه أيضاً مما يستهدف به دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد إلى التهوين من العقلية العربية التي تقبلت القرآن ونزل منهج الاسلام بها . ومن خلال

بيانها المعجز ذلك أن « العقلية العربية هي نواة النظام الاسلامي كله » وفي إثارة الشبهات حولها محاولة لتهديم الاسلام نفسه .

ومن ذلك محاولة جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب التركيز على وجهة نظر الاستعمار الغربي في تفسير الأحداث التاريخية . أو محاولة فيليب حتي : الإشارة إلى أن الاسلام ظهر بعد أن شاخت الدولتان الرومانية والفارسية ، وانتهى دورهما وهو من الشبهات المضللة . فقد كانت الدولتان في أوج القوة الحربية . وكذلك محاولة اعتماد الأساطير وإدخالها إلى مجال التاريخ الاسلامي بعد أن ظل المسلمون يحررون تاريخهم من زيفها قروناً طويلة — وهذا هو ما عمد إليه طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) أو محاولة تفسير التاريخ الاسلامي تفسيراً اقتصادياً مادياً على النحو الذي كتب به (الفتنة الكبرى) بالإضافة إلى محاولته استنقاص الصحابة وتصويرهم على هيئة السياسيين والأمراء الأوربيين المتصارعين .

ومن ذلك ما ذهب إليه (العقاد) من تفسير بطولات الصحابة تفسيراً مادياً خالصاً معتمداً على نظرية (لامبروزوا) وغيرها من النظريات إلى تفسير الشخصيات في إطار الوراثيات والملكات والأمزجة . وهي تعجز تماماً عن أن تفهم أثر التوحيد في تحويل هذه الشخصيات وإخراجها من جلدها القديم وتكوين فكرها الجديد القائم على الإيمان والخلق والحق والعدل .

ومن ذلك ما حاوله طه حسين من تفسير عصر من العصور الاسلامية الزاهرة من خلال طائفة من شعراء المجون .

* * *

وتبدو تفسيرات المنهج الغربي العلمي الوافد في مخالفتها لمفهوم الاسلام في عشرات المواضع في دائرة المعارف الاسلامية ، والمنجد ، والموسوعة العربية الميسرة . وكلها تصدر عن مفهوم لا يستوعب الاسلام ولا يمثل تفسيره الحقيقي .

ويدخل إلى هذا الجانب التاريخي زيف كثير يتصل بأهـــواء اليهودية التلمودية الصهيونية في موقفها من قصد إبراهيم وإسماعيل ، وفيما يتعلق ببناء الكعبة . ويهدف تحريف حقيقة إبراهيم إلى إقرار الأيدلوجية التلمودية القائمة على إنكار انحدار العرب من إسماعيل بن إبراهيم الأول السابق على ابنه إسحاق جد اليهود والنصارى . ويتصل بهذا محاولات كتابة تاريخ الرسول تأثراً بأمثال أميل درمنجم ومرجليوث وغيرهم .

- ١٠ -

ويتصل بهذا الضعف والقصور في المنهج العلمي الغربي الوافد : ذلك التركيز العجيب بالتقدير والإعجاب البالغ لعصر مـــا قبل الإسلام ، والإذاعة به ، وتوسيع البحث فيه . وذلك عن طريق بعث الفرعونية والفينيقية والبابلية والبربرية ، وتزيين الماضي الوثني وإعلائه عن طريق علوم الأنثرولوجيا والآثار وإحياء الأنماط القديمة . ويتبع ذلك إحياء الأساطير والسحر من خـــلال دراسات التراث اليوناني الاغريقي بما يحمل من ملاحم وفلسفات تتعارض مع التوحيد ، بالإضافة إلى إحيـــاء الجاهلية العربية التي قامت على عبادة الأوثان والأصنام ، وما يتصل بذلك من الفلسفات المجوسية الفارسية القديمة والغنوصية القائمة على وحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ .

وقد أشار إلى هذه الظاهرة الدكتور إبراهيم العدوي حين قال : إن تزييف التاريخ العربي الاسلامي هو أحد الأسلحة الخطيرة والمدمرة للاستعمار ، ومن هنا كانت الحاجة إلى قيام مدرسة عربية تكشف عمليـــات التزييف وتقوم بإزاحة الغبار عن تاريخنا ، وإسقاط كل أقنعة الزيف التي صنعتها الكتابات والمناهج الأوربية والصهيونية . ويصور الدكتور العدوي المنهج العلمي الغربي الوافد في التاريخ فيقول : إن منهج الغرب في كتابـــة التاريخ والذي سار في البداية على آثار هيردوت وديودور . وخاصة بالنسبة لأخبار الشعوب الأخرى يعتمد عـــلى الأساطير وخدمة الملوك والقواد والكهان ، وأفراد الطبقات المسيطرة والقوى الاقتصادية الفعـــالة إلى اليوم . وبالنسبة للتاريخ العربي الاسلامي وبخاصة بعد الحروب الصليبية ، ونشوء مدرسة الاستشراق بأهداف استعمارية ، وتغلغل النفوذ اليهودي الصهيوني في كل فرع من فروع الفكر والثقافة في أوربا ، فقد برزت فيه النزعة إلى اقتناص الشوارد الصغيرة المثيرة وتكبيرها مع ثبوت كذبهـــا بالاستحالة أو ضعف الرواية . وذلك لتكون أساساً لنشر وترويج بعض النظريات الهدامة عن العرب والمسلمين والاسلام ، مما يكون تأثيره فعالاً بصفة عامة في إضعاف إمكانية أي بعث عربي على أساس العقيدة .

ومن أمثال هذه الشبهات : قيام الاسلام بالسيف ، وما يلقنه الاستعمار لطلاب المغرب من أن خروج العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون زاهرة . هي

حركة طرد للمستعمرين العرب . ومحاولة التشكيك في عروبة فلسطين لكثرة ما قرأوا من الكتب الغربية وسمعوا ورأوا في الأفلام الاستعمارية عن أرض الميعاد وعن مُلْكِ سليمان من التهاويل .

ومن هنا فإن الهدف من كتابة التاريخ الاستعماري هو : تنشئة أجيالنا على مفاهيم تاريخية خاطئة . يصعب اقتلاعها ، حيث تقـــوم الصهيونية ببناء امبراطوريتها الوهمية على أساس أن معركتها مع العرب تاريخية ، أي أنها تقوم خلالها بتزييف التاريخ العربي لصالحها .

- ١٢ -

يركز بعض الباحثين المسلمين[١] فساد المنهج العلمي الغربي الوافد في تفسير التاريخ في عدة أمور أهمها : (التشويه) وذلك بعرض مواقف مختارة من التاريخ الاسلامي كالمعارك مثلاً وتصويرها على غير حقيقتها لتزول عنها صفة الجهاد في سبيل الله . (التجهيل) وهو إهمال أحداث ذات عبرة هامة . (التشكيك) : وجهت السهام إلى التاريخ الاسلامي ورجاله وإلى المؤرخين المسلمين أنفسهم منها : فرية لامنس : بوصف النبي بعدم الشجاعة ، وتأويل الكثير من دوافع وأهداف الوقائع كقصة خالد بن الوليد مع مالك بن نويرة ، وذهاب الرسول بعد وفاته . وقالوا عنها إنها كانت مؤامرة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة . (التجزئة) وهي محاولة تجزئة التاريخ الاسلامي إلى مقاطع ، وتفريق أوصاله إلى أشلاء فـــلا يدرس ككائن حي مكتمل سليم . بل يدرس على أنه أوصال وأجزاء وتفاريق لكائن مشوه . (الإهمال) إهمال كل ما هو مدعاة للفخر أو لإعطاء هذا التراث طابعه الاسلامي المشرق ، وإقحام أمور واختلاق غيرها لجعل الخلاف قائماً بين المسلمين محكومين وقادة . ومنها اختلاق الخلاف بين عمر وعلي (تكلم فيليب حتي عن الحجاز قبل الاسلام ضعف كلامـــه عن الرسول والرسالة) . ومن المفتريات الكبرى :

أولاً : محاولة اعتبار الغنيمة دافعاً أساسياً ، ففسروا الفتوحات الاسلامية

١ - الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دراسة التاريخ الاسلامي .

بدافع الغنيمة . وفي هذا سلخ الاسلام والمسلمين من الأهداف النبيلة التي قدموا لها أرواحهم فكانوا يتسابقون إلى الموت من أجلها .

ثانياً : قطع الدعوة الاسلامية عن السماء واعتبارها دعوة أرضية .

ثالثاً : فرية التفسير المادي لتاريخنا والنظر من خلالهـــا فقط . وقصد أصحاب هذا المذهب في ربطه بالاسلام إلغاء صفته الإلهية وطبيعته الربانية .

رابعاً : فرية انتشار الاسلام بالسيف .

خامساً : التفسير القومي للتاريخ وتفسيره على أنه تاريخ للعرب . وليس على أساس أن العرب كانوا إحدى الأمم التي دخلت الاسلام ، وأن بقيـــة الأجناس شاركت في حمل أمانته وإنتاجه الفكري والأدبي والعلمي .

- ١٣ -

مفهوم الاسلام للتاريخ

إن المنهج العلمي الاسلامي له أسسه وقيمه وأصوله الـــتي تشكل تفسيره للتاريخ الاسلامي والتاريخ العالمي والبشري كله من خلال : الإنصاف وإنكار الأهواء ، والتجاوز عن عوامل العنصرية والغرور المستمد من السيطرة الحضارية أو الاستعمارية المعاصرة .

أولاً : التاريخ الاسلامي جزء من الاسلام ككل ، وغـــير منفصل عنه . والتاريخ الاسلامي قبـــل أن يكون تاريخ حوادث وفكر ، هو تاريخ عقيدة شاملة لها سماتها وخصائصها المميزة . وان التاريخ يحكمه قانون مـا ، وليست أمور البشر خاضعة للمصادفة العمياء ، والحياة البشرية ذات معنى وهدف .

ثانياً : الاسلام لا يعتبر الانسان مجرد كائن حيّ . بـــل يضعه في منزلة رفيعة هي منزلة الاستخلاف في الأرض . وان كل ما هو موجود في هـــذا الكون . إنما هو لمنفعة الانسان . وان هذا الاستخلاف يستوجب مسؤوليات . وقد منح الانسان حرية الإرادة ضمن حدود معينة . وعليه أن يختار سبيلاً ويترك أخرى .

ثالثاً : الاسلام لا يعتبر الأرض مكاناً للعذاب سجن فيـه البشر الآثمون في أصل تكوينهم بسبب خطيئة أصلية ، وان المعصية الأولى التي ارتكبها الانسان كانت هي أول عمل مارس به حرية الاختيار . وقد غفر الله له خطيئته الأولى .

رابعاً : يقرر الاسلام قوانين معينة ترتقي بمقتضاها الأمم وتنهار ، ولم يترك شيئاً وليد المشيئة العمياء . إن الأمم التي ترتفع فتبلغ أوج التقدم والرفاه الاقتصادي إنما ترتفع بعد أن تنمي في أنفسها صفات خاصة ، بينما الأمم الأخرى التي زحزحت عن مجال الوجود ، إنما أصابت هذا الحظ ، لأن فيها مواضع ضعف نخرت بنيان مجتمعها . ان الذي ينظر نظرة سطحية الى هذا الانهيار يرى أنه نتج عن هجوم خارجي أو عن خيانة بعض رؤسائها . والحقيقة أن التدهور نتيجة فساد بطيء وانحطاط نخر في قوة الأمة ، إن نهاية الأمم يمكن أن يؤجل بعض الوقت ، ولكن لا يمكن الإفلات منه (سُنَّةَ ٱللهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلًا) .

خامساً : يقرر الاسلام أن الانسان في الاسلام هو محور فلسفة التاريخ : ليس مجرد مركب ، إنه شيء أكبر من مجرد مختبر كيماوي تسيره غريزة الجنس أو غريزة الجوع . والانسان ليس خالق هذا الكون ، ولكن لديه الإرادة والمقدرة على تسخيره لمصلحته ، وان هذا التقدم المادي الذي حققه ، وسيطرته على قوى الطبيعة ، لم يستطيعا أن يمنحاه الأمن والسعادة خيراً مما كان في العصور السالفة . هذا فضلاً عن ان الانسان اليوم لا يختلف عن الانسان في أقدم العصور الحجرية في صراعه مع الحرب والمطامع والحضارات والسيطرة والربا والاستبداد والانتحار والقلق ، ومعنى هذا أنه ليس هناك تقدم في حياة الانسانية الأخلاقية والروحية مُوازٍ للتقدم المادي .

سادساً : يقرر الاسلام أن القانون الثابت للتاريخ هو أن حياة البشرية في تغيّر مستمر . وأن التاريخ هو عملية الصراع المستمر بين قوى الخير والشر . وأن تاريخ البشرية هو سلسلة من فترات متعاقبة من السلم والحرب ، وهذه الدورة مستمرة الى قيام الساعة مهما حاول المصلحون ورجال السياسة والقانون الدولي أن يحولوا دون قيام الحروب . هذه الدورة من السلم والحرب مستمرة حتى

تنتهي قصة البشرية ، ذلك لأن الحرب من طبيعة البشر نتيجة لغريزة القتال .

وقد تنتصر قوى الشرّ في بعض المعارك . ولكن النصر لقوى الخير في النهاية .

سابعاً : يقرر الاسلام أن الزعماء والقادة يغيرون مجرى التاريخ ، قام الأنبياء والرسل وقادة الفكر بالدور الأول على مسرح التاريخ في قصة البشرية والحضارة الانسانية . ولكن ليس الزعماء والقادة وحدهم هم الذين يؤثرون في التاريخ ، وإنما هناك عوامل كثيرة . منها عوامل لها طابع الاستمرار والثبات كالعوامل الطبيعية من بيئة مناخية ، وموقع جغرافي ، وثروة ، وعوامل بشرية كالجنس والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسيكولوجية والثقافة الدينية . وينكر الاسلام المغالاة في تفسير التاريخ على أساس اقتصادي . أو من خلال أي عنصر آخر . وإنما يكون التفسير جامعاً للعوامل الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية مرتبطة بالدين والأخلاق والعوامل النفسية والروحية .

وقد اعتمد الاسلام على الأثر النفسي في قانون التغيير .

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

ثامناً : ان أهم ما يقرره أن التفسيرات المختلفة للتاريخ (جغرافية ، اقتصادية ... الخ) تتجاهل شخصية الانسان تجاهلاً تاماً مع أنه محور التاريخ .

تاسعاً : ان تقدم العلم غير تقدم الانسانية . إذ ليس في حياة الانسان الأخلاقية تقدم حتمي فهي معرضة للتأخر كما هي معرضة للتقدم . وان ماضيها لا يضمن مستقبلها ، والانسانية ليست مستقرة دائماً ، بل هي في حركة دائبة . ولكن حركتها ليست تقدماً دائماً . وان التقدم العلمي لا يضمن التقدم للبشر .

وان القوة التي لا تقيدها الأخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية . وإنما يكون التقدم في مفهوم الاسلام بسيطرة المبادىء الأخلاقية على قوى الطبيعة .

عاشراً : يقرر الاسلام أن سنن الله في الأمم والحضارات . أي (قوانين الله) لا يمكن تغييرها ، فهي ليست ناتجة عن ظروف المناخ في الدولة التي تعيش فيها الأمة ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية . وهي لا تختلف من زمن الى زمن . (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلاً . وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَحْوِيلاً) إن هذا الطابع العالمي للقوانين الخلقية يرجع الى أن طبيعة الانسان لا تتغير . فالحوافز الانسانية لم تزل نفسها الى اليوم كما كانت منذ فجر الانسانية . والغرائز التي هي محور عمل الانسان لم تزل باقية كما كانت بالرغم من أن مجال النشاط الانساني قد اتسع[١] .

الحادي عشر : «الجبرية التاريخية» في الاسلام غير موجودة . لأن الانسان ليس خارج التاريخ . بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمنفعلة . وليست عمليات التاريخ دون غاية[٢] .

الثاني عشر : التاريخ في مفهوم الاسلام يمتد الى ما بعد الموت ، الى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير وشر ، وفي هذا الإطار يبقى الانسان عاملاً مختاراً ، وعمله أن يوفق بين نواميس الكون وتعاليم القرآن . والانسان هو الذي يصنع تاريخه وتاريخ البشرية[٣] .

---

١ – اعتمدنا في هذه النصوص على بحث عبد الحميد صديقي (تفسير التاريخ) وعبد الرحمن علي الحجي ، « دراسة التاريخ الاسلامي » .

٢ و ٣ – بحث للعلامة علال الفاسي .

الفصل الثاني

(أولاً)

مَفاهِيمُ الأجناسِ وَالقَوْميّاتِ العُنْصُريّة

مَن أخطر مقررات المنهج العلمي الغربي الوافـــد نظريات العنصرية وعلوم الأجناس المتضاربة وما اتصل بها من مفاهيم القوميات والأقليات . وقد روجت الحضارة الغربية لهذا الفكر ترويجاً كبيراً ، حتى سيطر على جميع الدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان واحداً من الدعوات التي حاولت أن تحل محل الدين ، وتشكل أدياناً قومية وإقليمية تستعلي بها الشعوب وتتميز وتتصارع . وكان أكبر آثارها في قارة مثل أوربا مثلاً أن انتقلت من وحدة الفكر الغربي المسيحي إلى عنصريات متعددة استعلت بدمائهـــا وأجناسها . فظهرت في أوربا وحدها نظرية الدم الأبيض وانحطاط السلالات غير البيضاء وأسطورة الجنس اليهودي . ونظرية الجنس الآري أو تفوق العناصر النوردية (المانيا) . ونظرية الجنس السكسوني (انجلـــترا وأمريكا) والنظرة الكلية (فرنسا) .

ومن ثم أصبحت نظريات العنصرية والأجناس واحدة من مصادر الصراع والخصومة التي أججت الخلافات العالمية والحروب الدامية بعد أن بردت صراعات المذاهب الوثنية التي اجتاحت أوربا في العصور الوسطى ، وتعد نظريات العنصرية والأجناس هي الوجه المضاد لنظريات الرأسمالية والماركسية أو الليبرالية والاشتراكية .

واستمدت مفاهيم العنصرية والقوميات مـــادة بنائها من عدد من العلوم والدراسات الحديثة منها : علم الأنترولوجيا (علم الأجناس البشرية) وعلم اللغات (السامية والآرية) . ونظريات القومية في تفسيراتها المختلفة بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا والمتضمنة نظرية اللغة والتاريخ ونظرية المشيئة .

وقد برزت فكرة القومية في الغرب مقترنة بفكرة التفـــوق الإقليمي واحتقار الأمم الأخرى . وتقوم « المفاضلة بين الأجناس على أساس دعوى تقرر أن لكل جنس خصائص تميزه عن غيره » على النحو الذي أورده (أرنست رينان ، كرستيان لاس ، ليون جونييه ، جونبيو) . وتحاول هذه النظرية أن تسبب أسباب القوة والعظمة للدول البيضاء استمداداً من الواقع . وهو السيطرة على الحضارة ، بينما تسبب أسباب الضعف والتخلف إلى الشعوب الملونة . وقد ثبت فساد هذه النظريات وانحدارها أمام التجارب العلمية الأصيلة التي كشفت ضلال القول بأن حجم مخ الزنجي أقل من حجم مخ الأوربي ، بل لقد تبين أن الذين اشتهروا بقوى عقلية ممتازة لم يكونوا ذوي أمخاخ كبيرة الحجم أو أثقل وزناً ، كما تبين أن عوامل الانحطاط والارتفاع ترجع إلى القدرات الاقتصادية والحضارية والعلمية المتاحة ، لا إلى السلالات البيضاء والملونة . وتلك كانت من أكبر التحديات التي تعرض لها المنهج العلمي الغربي . والتي كشفت عجزه عن اطراح الهـــوى أو العصبية ، وقيام أحكامه على أساس فروض مسبقة يجري البحث حول إيجاد الأدلة والبراهين لتأكيدها مع الإغضاء والحجب لكل الدلائل التي تنقض النظرية المسبقة .

وتتصل نظرية الاستعلاء العنصري بالفكر الغربي منـــذ المرحلة اليونانية الرومانية التي دافع عنها فيلسوفان كبيران : هما أرسطو وأفلاطون . وقد كان الإغريق القدامى يعتبرون كل ما عداهم (برابرة) أما أرسطو فقد نادى بسيادة الجنس الإغريقي للعالم . وقال إن جماعات معينة تولد حرّة بالطبيعة وأخرى تولد لكي تكون مستعبدة .

ولقد حطم الاسلام هذه النظرية ، وكشف عن زيفها ، وأطلع البشرية على حقيقة خالدة هي وحدة الجنس البشري الذي تشكل كله من نفس واجدة ، والذي تنوع وتوزع في شعوب مختلفة دون أن يكون لذلك الاختلاف في اللون والجنس والعنصر والوطن أثر في جوهر القيمة الانسانية الذاتية التي ليس لها إلا ميزان واحد في المفاضلة هو : « العمل » وهو ما عبر عنه الاسلام بكلمة التقوى :

(يا أَيُّها ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقاكُمْ) .

- ٢ -

حاولت مقررات المنهج العلمي الغربي الوافد التأكيد بأن هناك سلالات بشرية نقية، استطاعت أن تحتفظ بعناصرها منها الآرية، والكلت، والجنس اليهودي. وقد أكدت وقائع التاريخ البشري والأبحاث المتحررة من نفـــوذ الاستعمار ومطامع السيطرة زيف هذه النظريات، وكشفت عن أنه لا يمكن القول بأن سلالة بشرية واحدة استطاعت أن تحتفظ بنقائها. وأن اختلاط الأجناس قد جرى منذ بدء الحياة البشرية، وما زال مستمراً. وأن امتزاج الأجناس عملية مستمرة لم تتوقف، وأن الهجرة قديمة قدم السلالات البشرية. بل إن التاريخ يشير إلى أن جميع الحضارات قد تمّت عمليات غزو لها من جماعات البدو الرحل انتهت بانهيار القسم الطبقي وتكوين خليط من السكان. وأن سكان أوربا متعددو الأصول لدرجة أنه من الاستحالة تصنيفهم. كذلك ثبت أن القول بأن اختلاط الأجناس يهدد الانسانية بالتقهقر والتدهور لا يستند الى أقل دليل علمي بل إن العكس هو الصحيح[1].

---

١ - من بحث للدكتور السيد محمد بدوي (كتاب التطور).

- ٣ -

ارتبطت نظرية العنصرية وإعلاء الأجناس والسلالات البيضاء عن طريق المنهج العلمي الغربي بالاستعمار، واتخذت من مقررات العلم مبررات لها ومحاولات لتبرير السيطرة الاستعمارية على البلاد المتخلفة في إفريقيا وآسيا . وكانت هذه النظرية التي لم تثبت للبحث العلمي الصحيح والأسانيد التاريخية الحقة — عاملاً من عوامل الاستئثار بالأراضي المكتشفة حديثاً . وبخاصة في إفريقيا وأمريكا . وفي ظل جلب أعداد غفيرة من رقيق إفريقيا إلى الولايات المتحدة .

وقد استغل دعاة العنصرية نظرية (دارون) في القـــول ببقاء الأصلح منطلقاً الى اضطهاد الشعوب الملونة . وغالوا في ذلك حتى أنكروا حق النفس السوداء في الوجود على نحو ما عبر عنه (مونتسكيو) في كتابه .

يقول الدكتور بدوي : استطاع العنصريون أن يتخذوا من نظرية دارون البيولوجية أساساً لنظرية اجتماعية دارونية «بمعنى أنهم نادوا بما يسمى بالاختيار الاجتماعي ليقابل مبدأ الاختيار ، ومن ثم فإن المجتمع يختار أصلح من يقود هذه المجتمعات كما تمثلت في امتياز بعض الشعوب عن بعضها الآخر » .

وكذلك ارتبط الاستعمار الغربي لإفريقيا بالعنصرية . فقد كان مجتمع الدول المستعمرة يعامل الوطنيين معاملة سيئة لأنهم في نظرهم ليس لهم دين ولا قانون ولا أخلاق . لذا فقـــد نظروا إليهم على أنهم ليسوا من نوع البشر الذي ينتمون إليه .

ويقول جوان توماس[1] : إن الاستعمار يحاول تبرير القول بأن الزنجي ليس أحط من الرجل الأبيض فحسب ، بل إنه لا يختلف إلا بقـــدر يسير عن الحيوان . وان نظرية دارون الخاصة ببقاء الأصلح رحّبَ بها البيض واعتبروها وسيلة لتدعيم سياسة التوسع والعدوان على حساب الشعوب المنحطة .

وبناء على ذلك اعتقد الأبيض أن استبعاد أو إفناء المجموعات البشرية المنحطة بواسطة الرصاص الأوربي ليس إلا تنفيذاً لنظرية استبدال مجتمعات راقية بأخرى منحطة . وقد استغلت النظرية العنصرية في مجالات السياسة الدولية لتبرير الأعمال العدوانية . والواقع أنه « ليس ثمـــة أساس علمي على الاطلاق لتصنيف الأجناس تصنيفاً عاماً على أساس من الرقي النسبي » ولذلك فإن التمييز الجنسي وخرافاته وأساطيره ليست إلا وسائل لإيجاد كبش فداء حين تتهدد الأخطار مركز بعض الأفراد أو تماسك بعض الجماعات .

---

١ – في كتابه (خرافات عن الأجناس) .

- ٤ -

إن طرح فكرة (الآرية والسامية) في أفق الفكر الاسلامي على أنها نتاج المنهج العلمي الغربي الوافد ، هو عمل سياسي وليس منهجاً علمياً . وهو سلاح يراد استعماله لإبراز تفوق الاستعمار الأوربي المسيطر وتبرير سيطرته على أجناس أقل تفوقاً . وقد ثبت أن أجناس البشر على اختلاف ألوانها متساوية في قواها العقلية .

وتستمد النظرية (الآرية والسامية) وجودها من النزاع القديم المتجدد بين الشرق والغرب . وهو نزاع ليس حربياً ولا سياسياً فحسب ، ولكنه نزاع فكري أيضاً . والغرب حين يريد أن يقلل من شأن الشرق ما أمكن يستعمل في سبيل ذلك مختلف الوسائل ، وليس المادية وحدها . وقد استطاع المنهج العلمي الغربي أن يضيف الى السامية باعتبارها تمثل الشرق والعرب والمسلمين كل صفات الضعف والنقص والتخلف .

ومن الحقائق العلمية ، أنه لا يوجد في مجـــال نظرية الأجناس ما يسمى بالآرية والسامية ، وإنما نشأت هذه الفكرة في مجال الدراسات اللغوية . وان هذه القصة بدأت بدراسات حول اللغات الهندية تبين منها أن هناك جذوراً مشتركة بينها وبين اللغات الأوربية ثم جاء علماء الأجناس فاستغلوا هذه القضية لحساب الفلسفة السياسية الاستعمارية .

ويُقرر الباحثون أن أول من استعمل لفظ آري هو ماركس مولر . الذي

سرعان ما قرر أن تشابه اللغات يفترض أن أصل الأجناس التي تتكلم هذه اللغات المتشابهة لا بدّ واحد . ومن ثم اتخذت وحدة اللغة أو تشابهها وحدة بين هذه الأجناس . ولما كان ماركس مولر أول من روّج لهذه الفكرة يهودياً ، فمعنى هذا أن اليهود تلقفوا الفكرة لمصلحتهم ، ولتكون مقدمة لإعلان فكرة الجنس اليهودي المتفوق . ولم تسلم آراء ماركس مولر من المعارضة الشديدة . وقابلها كثير من الباحثين بفتور وإعراض[1] ومع ذلك فقد روج اليهود لهذه الآراء الباطلة . كما روجوا من بعد لفكرة فرويد التي خرج عليها زملاؤه ورموها بالنقص والقصور .

ولا ريب أنه مما ينقض نظرية تخلف الساميين : والمقصود بها الجنس العربي ما ثبته التاريخ من دور ضخم استمر أكثر من ألف سنة . وامتد على نطاق العالم كله من الصين الى فرنسا في وقت كانت فيه أوربا تعيش في ظلال التخلف وظلمات القرون الوسطى .

والمعروف أن نظرية تفوق الآريين ، أو تفوق الجنس الأبيض : تقوم على أساس تفسير التاريخ تفسيراً تحكمياً وفق الجبرية التاريخية التي تستند الى الأنانية المطلقة وازدراء كل ما هو ليس أوربياً أو غربياً . وإذا كان المنهج العلمي الغربي الوافد قد ساق هذه المفاهيم استمداداً من الهوى والتعصب والاستعلاء بالجنس . فإن أساتذة علماء الاحياء اعترفوا بفساد النظرية بعد أن وجدوا أن الجماجم الآرية تشبه جماجم أقزام إفريقيا الوسطى ، وأن شعورهم وجلودهم ومميزاتهم الجسدية يتمتع بها كثير من القبائل والشعوب في أنحاء الارض . وليس يطعن في نظرية السلالات إلا كونها قائمة على المفاهيم المادية ومقاييس الاجساد والجماجم ، وليس على مفاهيم الفكر والثقافة والعقائد .

---

١ - دكتور محمد عبد المنعم الشرقاوي .

- ٥ -

يقرر الباحثون أن استعلاء نظرية العنصرية والأجناس إنما كان محاولة لهدم وحدة الجماعة المسيحية الأوربية ، وأن محاولة تحطيم نفوذ الكنيسة الغربية كان مقدمة لطرح مفهوم الاستعلاء بالأجناس . فقد كانت المسيحية أساساً تقوم على الأخوة البشرية غـــير أن سيطرة اليهودية التلمودية على الفكر الغربي من خلال الثورة الفرنسية وبعدها قد أحيا مفهوم العهـــد القديم الذي يشير إليه جوان كوماس حين يقول : في العهد القديم نجـــد اعتقاداً بأن الاختلافات الجسمانية والعقلية بين الأفراد وبين المجموعات على السواء ترجع الى المولد . وأنها اختلافات موروثة لا تتغير . ويشتمل سفر التكوين على عبارات تفترض فيما يبدو انحطاط جماعات معينة بالنسبة لغيرها ، هـذا الى جانب أن التفوق البيولوجي قد تضمنه التأكيد بأن (يهوه) قد عقد عقداً مع ابراهيم ونسله[١] . ومن الحق أن يقال إن اليهودية التلمودية قد أثارت قضية الأجناس كلها وأسقطت الأخوة الانسانية التي جاءت بها الأديان من أجل التمهيد لمقررات بروتوكولات صهيون بالسيطرة التامة وبالاستعلاء بالجنس اليهودي . وإن إحيـــاء حركات استعلاء الكلت والسكسون والألمان إنما كانت محاولات لتبرير الدعوة الى الجنس المختار ولتحقيق الانعتاق من « الجيتو » ومن الاضطهاد المرير الذي واجهـه اليهود في كل مكان في أوربا .

---

١ - (ك) خرافات عن الأجناس .

ويقرر الباحثون ان اليهود قد انتهوا كشعب وأمة واحدة منـــذ استولى (تيتوس) على القدس عـــام ٧٠ ميلادية ، حيث لم يلتئم لهم شمل الى اليوم ، وان سلالة المهاجرين القدماء من فلسطين منذ ذلك العهد البعيد هي فئـة ضئيلة جداً . وان اليهود اليوم هم يهود بالديانة فقط وليس هناك ما يربطهم إطلاقـاً (من الناحية الأنثرولوجية) بيهود فلسطين القدماء . ويتكون هذا النوع غالباً من أفراد سلالة أخرى اعتنقوا الديانة اليهودية[١] .

ويرى هانس كهن في كتابه القومية أن صراع الأجناس والقوميات ، قد كلف أوربا أكثر مما كلفها صراع المذاهب الدينية ، وأن الثورة الفرنسية التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام قد ألقت أوربا في أتون حرب أطول أمداً وأشدّ تدميراً من أيّ حرب مضت منذ عهد الحروب الدينية .

١ ـ عن بحث جوان كوماس عن الأجناس .

- ٦ -

وجدت النظرية العنصرية انتقاضات عدة أهمها : (أولاً) ما أثبته التاريخ من أن اشتراك الأوربيين في الحضارة البشرية جاء متأخراً. فقد ظهرت مدنيات عريقة قبل أن تعرف الشعوب الشمالية معنى الحيـــاة . وأن الجرمان ليسوا صانعي الحضارة وأن مصادر الحضارة البشرية معروفة . وهي وادي النيـل ، ووادي دجلة والفرات، وحوض البحر المتوسط . (ثانياً) ثبت خطـــأ وفساد منهج تفسير الظواهر الاجتماعية عن طريق أحجام الرؤوس والجماجم والألوان . كما أكدت وقائع التاريخ أن الحاجز بين الرجل الأبيض والرجل الملون لا يستند الى أساس علمي . (ثالثاً) ان أجناس البشرية على اختلاف ألوانها متساوية في قواها العقلية (رابعاً) ان وحدة الجنس البشري حقيقة تاريخية . وان اختلاط الأجناس منذ عصور ما قبل التاريخ نتيجة الهجرات العظيمة للشعوب قـــد أحدثت امتزاجاً واسعاً سواء في إبان فترات الحرب أو السلام . (خامساً) ان أثر الخصائص النفسية والأخلاقية كان مقدّماً على أثر العناصر البيولوجية .

- ٧ -

إن موقف الاسلام من قضية العنصرية والأجناس بالغ الإنصاف والسلامة . وان مفهوم المنهج العلمي الاسلامي كان غاية في العدل والحسم . فقد أطفأ الاسلام جذوة العنصرية ، وحرر البشرية منها على أساس صحيح من العلم والفطرة . ذلك أنه كشف عن حقيقة وحدة البشرية، ووحدة الجنس البشري. وجاء تطبيق الحضارة الاسلامية لذلك علامة مميزة في التاريخ الانساني كله . فقد عمد الى تقارب الأجناس وتداخلها بالزواج المختلط فامتزجت الأجناس العربية والفارسية والرومية والهندية في بوتقة الاسلام ، ثم عمد الاسلام الى العقول والقلوب فصهرها في مفاهيم التوحيد والأخوة وكان ذلك أكبر أسرار النهضة التي عمت العالم كله ، والتي شملت مختلف نواحي الفكر والمجتمع . « فلم يعد الأمر أمر سياسة عنصرية حنيفة متحزبة للعرب على غير العرب ولا كراهية من الموالي لنفوذ العرب السياسي . بل لقد جر هذا الإعجاب كثيراً من الموالي والأعاجم الى انتحال النسب العربي تشرفاً وتعظيماً »[1] وقد حال مفهوم وحدة الجنس البشري في الاسلام دون التفاخر بالنسب حيث جاء الاسلام قاطعاً في هذا الأمر : [إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء : كلكم لآدم وآدم من تراب] .

---

١ – عبد الحميد العبادي – الاسلام والمشكلة العنصرية .

وقد أقام الاسلام مجتمعه على نظام الأخوة بديلاً عن نظـام القبيلة فانصهر فيه الفارسي والرومي والحبشي وأصبح (أمة واحدة من دون الناس) وتقرر في هذا النطاق : إنما العربية اللسان . فمن تكلم العربية فهو عربي . وفي هــذا الاتجاه الذي نفى فيه القرآن العنصرية نفياً باتاً أقر الفقه كفاءة العربي للأعجمي، فتصاهر المسلمون واختلطوا وامتزجوا . فالقرآن يعترف بأن الانسانية وحدة ولا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل ، ولا يقر أي تفرقة بسبب الأجناس أو الألوان أو الأنساب .

وقد اعترف بهذا النموذج الفريد كثير من الباحثين . وأشار أرنولد توينبي الى هذا المعنى فقال « إن انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين يعــد ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الاسلام . وفي العــالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة الى نشر هذه الفضيلة الاسلامية . ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالعنصرية لم تكن قاعدة عامة ، بل حالة شاذة في طبيعة العلاقــات المتبادلة بين الأجناس البشرية المختلفة ، فإن من سيئات الحالة الحاضرة أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقتطــع لنفسها – ولو مؤقتاً على الأقل – حصة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في القرون الأربعة الأخيرة .

ولا ريب أن روح الاسلام هي القوة المدخرة التي تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام .

ولا ريب أن هناك إجماعاً على أن تلك الهزة الفكرية والاجتماعية الخطيرة التي أحدثتها موجة السلالات هي التي أشاعت الاضطراب في العلاقة بين العروبة

والسلام ، وأن اليهود قد أحدثوا هذه الفكرة لإعــلاء عنصرهم وإسقاط نفوذ الكنيسة الذي وحد المسيحية في أوربا . وإسقاط نفوذ الخلافة الذي وحــد المسلمين في الشرق .

وقد استخدمت العنصرية من أجل فك الرابطة وحل العروة فقـد وضعت الوطنية المحررة والإقليمية الضيقة في مواجة الوحدة ، وكانت عاملاً هــاماً في تمزيق الحزام الرابط بين الأمة الواحدة التي جمعها التوحيد والقرآن .

(ثانياً)

مُقارنات الأجْناس

إن محاولة وضع الفرضيات والتفاسير التي يقدمها بعض الباحثين في إطار المنهج العلمي الغربي للأجناس لا تستطيع أن تشكل نفسها في منهج أصيل ، إلا اذا تحررت من الهدف الذي ينحرف بها لمحاولة إقرار فكر مسبق ، وتشكيل نظرية تريد أن تعلي من شأن التراث القديم المختلط الذي يشمل الأساطير والخرافات والسحر ، وآثار بابل وآشور والفراعنة والفنيقية . وقد كشفت المراجعات الدقيقة عن أن علم الأجناس من التحديات التي أقامها المخطط الاستعماري والصهيوني . وأن دراسة الديانات الفتشية والطوطمية والشامانية والتابو في محاولة لاستخراج قوانين تحاكم بها الأمم وترسم بها مخططات دراسة الأديان من الأمور الدخيلة الخطيرة التي لا تصل بالبحث العلمي إلا الى الزيف .

ذلك أن هذه الأديان جميعها أديان وضعية . وأنها ظهرت في فترات مضطربة من خلال الأديان السماوية التي بعث بها الأنبياء بالحق ، ومن ثم فهي تحمل أوهام البشرية وأهواءها ومطامعها وشهواتها . ولا تستهدف إلا تحقيق الرغبات . ومن هنا فإن الاعتماد على مثل هذه الأساطير لا يستطيع أن يقدم الحقائق المرتجاة لكي تسلك البشرية طريقاً الى النور . ولعل أخطر ما وصل اليه علم مقارنات الأجناس هو نظرية تطور الدين وهي نظرية تقوم على أساس القول بأن البشرية بدأت وثنية ومعدّدة ثم عرفت التوحيد .

وتستهدف دراسة هذا التراث القديم الموغل في القدم الى إحيائه وإعادة

بعثه . وصهر هذه الأساطير في صور ونظريات عصرية براقة حتى يكون ذلك مدعاة لترويجها .

ولما كانت اليهودية التلمودية حين أعادت صياغة فكرها ودينها من جديد خلال النفي البابلي ، قد استوعبت كل الفكر البابلي القديم القائم على السحر والخرافات والأوهام القديمة التي تقوم على حساب الاعداد وغيرها مما يتصل بالأفلاك والكواكب والأبراج ، وكلها من الزيف الذي كشفت عن فساده الأديان السماوية .

ومن خلال سيطرة الفكر التلمودي الصهيوني على دراسات علم مقارنات الأجناس أمكن طرح مقارنات بين الأديان السماوية وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير . وذلك في محاولة الاستنتاج بأن الأديان ليست إلا مجموعة أساطير لا تصلح إلا للتلهية وإمتاع الخيال .

وكذلك حاول بعض علماء الانثربولوجيا إعلاء افتراض العامل الغربي والادعاء بأنه العامل المسيطر في تكوين شخصية الانسان .

ولقد جرت محاولات كثيرة في مجال مفاهيم العلوم الاجتماعية (النفس والأخلاق والاجتماع) التماس الأساطير القديمة مدخلاً لإقرار هذه المفاهيم وركيزة لإقامتها من جديد ، من ذلك ما ذهب إليه فرويد من عقدة أوديب وعقدة الكترا ، وما ذهب إليه سارتر من اتخاذ الأساطير الإغريقية منفذاً الى تصوير فكرته .

- ٢ -

السحر

من الفكر البشري القديم الذي أعيدت صياغته وإذاعته وتجديده في العصر الحديث : تراث السحر والاسطورة . ولم يقف أمر إحيائه الى أن يكون قصصاً ولكن الذين أرادوا توجيه الحياة به أرادوا أن يدخلوه في مختلف المفاهيم الاجتماعية والنفسية والاخلاقية حتى نرى عديداً من الفلسفات تعتمد الاسطورة مصدراً من مصادر المعرفة تبنى عليها نظرية من نظريات السلوك الانساني في العصر الحديث بينما لا تزيد قيمة الاساطير عن أنها تمثل طفولة الانسان الحيواني وقصور عقله وسذاجة فكره .

ولقد كان للبشرية أن تتطور وتتقدم وترتقي في مجال الفكر والعقل بعد أن تجددت لها رسالات الأديان وألقت اليها فيضاً من المفاهيم الأصيلة والعلوم المستيقنة المصدر ولم يكن لها أن ترتد ناكصة أعقابها مرة أخرى لتجدد هذا التراث الضال المضلل الذي تجاوزته بالمناهج العلمية بعد وحي الأديان .

لقد كان السحر من تراث الفكر البشري الوثني حتى جاء الاسلام بضوئه الساطع فقضى على ذلك التراث كله ، وقضى عليه بالحق الذي أعلنه في مواجهة الزيف والاسطورة والخرافة والوهم الذي كانت تجدده العصور التي تتراخى فيها رسالة الدين الحق ، الذي عارض السحر في كل رسالاته والذي كانت تخبو شعلته تحت ضوء الدين الحق .

وكان لليهود في مختلف العصور عنـــاية كبرى باحياء السحر والاساطير وتجديدها وإعادة صياغة خرافاتها ولهم في عصرنا الحاضر أكبر اهتمام لتجديد هذا الميراث الخطير الذي حرصوا عليه وقاموا على حمايته في كل مكان .

ولقد كان السحر ذائعاً عند العرب قبـــل الاسلام ، أخذوه من الفرس والآشوريين والمصريين وغيرهم من الأمم القديمة المجاورة التي ازدهر فيها السحر ، وكان يتخذ لديهم صوراً مختلفة : كالعرافة والكهانة ومعرفة أسرار الطلاسم . وكان للسحرة والكهنة مكانتهم ونفوذهم في مجتمعات الجزيرة في تلك العصور ، فلما جاء الاسلام فقد السحر مكانته كفن من فنون الخفاء والغيب . أعلن الاسلام عليه حرباً عاتية وكشف زيفه ودعا الناس في العالمين جميعاً الى التماس الخير من الله وحده ، وعارض بالحق كل ما كان من حساب الكواكب أو الأرقام أو غيره من الاساطير ، وطـــارد الاسلام السحر والسحرة في كل العصور ، وكشف عن قدرة الله الواحد الاحد في إدخال السكينة والطمأنينة على النفس الانسانية من دون كل هذه الوسائط المضللة . ومن ثم فقـــد السحر مكانته « وغدا من القوى الشريرة التي يخشى شرها وبأسها وغدا السحرة من العناصر الممقوتة التي يخصها المجتمع ببغضه ويطاردها ويعتبرها خطراً على أمنه وسلامته » فلقد فهم المسلمون أن رياضة السحر كلها معارضة للتوحيد الخـــالص لله في توجهها « الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بـــأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل » مما لا يجوز للمسلم أن يقع فيه إذ لا تكون العبادة إلا لله وحده .

أما في المجتمعات غير الاسلامية فقد استشرى هذا الخطر وبلغ الى غـــاية مداه ، في غيـــاب مفهوم صحيح مستمد من الدين نفسه لمواجهته وتحطيمه . ويقول المؤرخون إن حركة السحر الأسود اجتاحت المجتمعات النصرانية في العصور الوسطى، وذاعت في بعض الاقطار نماذج ملفقة للنظر على نحو ما عرف في القرن الخامس عشر في فرنسا من قصة المارشال (دي رتز) الذي ارتد عن

دينه وحاول أن يتوسل الى محالفة الشيطان بأروع الوسائل كتعذيب الاطفال، وقتلهم قرباناً ، وتدنيس الشعائر الدينية وإقامة القداس الأسود، وارتكاب أشنع الجرائم وقد اشتدت الكنيسة في مطاردة الحركة. وأعدم المارشال ولكن الحركة لم تخمد بسرعة بل لبثت زهاء قرن تجتاح المجتمعات الأوربية وتفتك مبادئها ورسومها الخبيثة بعقول الكافة والخاصة معاً » .

وفي أوائل القرن السادس عشر هبت على المجتمعات الأوربية ريح شاملة من الدعوة الى الخفاء ، وظهر السحرة في كل مكان ، وذاعت مزاعمهم ووسائلهم ذيوعاً كبيراً ، ونشطت السلطات الدينية والمدنية في مختلف الدول لمطاردتهم ، وأحرق في مدينة جينيف وحدها عام ١٥١٥ م. خمسمائة ساحر . وفي بامبرج ستمائة ، وفي فونمبورج ثمانمائة . وقضى برلمان تولوز باحراق أربعمائة وبلغ عدد السحرة في هذا العصر زهاء مليونين » .

ويجمع الباحثون على أن حركة السحر كانت ولا تزال حركة منظمة ترعاها من وراء ستار شخصيات وقوى خفية وترمي الى غايات بعيدة. ويرى ان مبعثها تعاليم (الكابالا) اليهودية .

أما الاسلام فقد دعا الى بناء النفس الانسانية على نحو يجعلها قادرة على الاطمئنان بالله الى الغيب والمستقبل دون خوف من أي قوى غريبة أو مستورة ، ومن ثم فالمسلم الحق مستعلٍ عن الاعتماد على مثل هذه الأوهام الزائفة التي تدخل في باب الشعوذة والخداع .

وان التماس المعرفة بالوحي من القرآن وبناء مفهوم العقل المؤمن من شأنه أن يلاشي هذا الاتجاه الذي ارتبط بالهمجية والعصور البدائية خلال فترات ضعف الأديان السماوية وفساد تفسيرها .

ولقد كشف التاريخ ان الكهنة والسحرة كانوا ماكرين وأنهم لم يكونوا يقولون في الأزمات والأحداث التي يدعون اليها كلمة صريحة أو واضحة ولكنهم

كانوا يقولون كلاماً يحتمل أكثر من وجهة نظر حتى يفسروه حسب ما تقع الاحداث وكان أمثال الاسكندر وقيصر وغيرهم من الملوك يستعينون بالسحرة والعرافين في معرفة الأحداث ، فكان هؤلاء يشيرون على الملوك وقادة الجيوش بأشياء لا يمكن أن يؤاخذوا عليها مهما جاءت به الحوادث .

وبالرغم من هذا ، وبالرغم من أن العلم الحديث ساير مفهوم الاسلام بكشف هذا الزيف فإن المخططات اليهودية التلمودية سعت سعياً حثيثاً الى بعث هذا التراث وتحديده في مناهج علم النفس الفرويدية وقصص ومسرحيات سارتر ونظريات دوركايم ، وجعلت له علماً خاصاً قام عليه ليفي بريل اليهودي وغيره هو الانتروبولوجيا أو الفلكلور وغيرهما .

يقول سير جيمس فريزر (صاحب كتاب الغصن الذهبي) ان أساس السحر في نظر العلم هو اعتقاد في التوافق غير المقصود على انه ضن للسببية مهما تكن ، فقد يقع الحادث للاتصال بحادث آخر على أساس قانون المشاركة الوجدانية ، بفرض ان الاشياء يؤثر بعضها في بعضها الآخر ، ثم تنسب هذه المصادفة الى السحر .

ومن عجب أن ترى لدى المدرسة التي يطلق عليها الانتروبولوجية (تيلور ولانج وهانز ناومن) دراسات على أساطير الشعوب و كهوف العصر الحجري وأشهرها ما وجد في التاميرا باسبانيا . ومع ذلك فهي تترك تجربة صحيحة لها آثارها العميقة على تجربة الدين الواضحة الدلائل ، وتتجاوزها قاصدة الى الاهتمام بالأساطير واعلاء شأن السحر .

ومع هذا الوضوح في القصد والبعد عن المنهج العلمي الصحيح ، فإننا نجد الباحثين في أفق الفكر الاسلامي يولون اهتماماً لمثل هذه الأمور ، ويحارون فيها هؤلاء دون النظر الى الخلفيات الخطيرة القائمة فيما وراء هذه النظريات المطروحة والافتراضات الباطلة .

(ثالثاً)

القوميات والإقليميات الضيقة

من أخطر ما طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد نظرية القومية والإقليمية بمفهوم تشكل في أوربا في ظل تحدياتهـــا ووقائع تاريخها الخاص . ومن خلال عقائدها وقيمها . ولا ريب أن « القومية » مدرك غربي ظهر في القرن الماضي في أوربا في ظل تحديات مختلفة واجهت الغرب من خـــلال عصر النهضة ، وخروجاً من قيود الكنيسة وسلطان نفوذ أمراء الإقطاع ، فظهرت فكرة التشكيل القومي في إيطاليا وألمانيا .

ولقد قامت فكرة القومية في الغرب من خلال مفاهيم حددتها تلك الظروف والتحديات ، وكانت اللغة أبرزها، والتاريخ الخاص لكل أمة أساسها . وبذلك تناثرت وحدة أوربا التي كانت قائمة من خـــلال الفكر والدين المسيحي إلى قوميات متصارعة تستعلي كل منها بلغتها وتاريخها الخاص ، وبرزت فلسفات ومفاهيم لهذه القومية منها نظرية اللغة ونظرية المشيئة وقد كان أكبر أخطار مفاهيم نظرية القومية الغربية ذلك الصراع والعداء للقوميات الأخرى المجاورة والاشتباك معها .

وحين حاول الاستعمار تمزيق الوحدة الاسلامية أخذ يطرح هذا المفهوم الغربي للقومية في محيط الدولة العثمانية الجامعة بين الترك والعرب ، وتشكلت فعلاً نظرية تدعو الى العودة الى الاعراق التركية الطورانية القديمة والاستعلاء

بها ، في نفس الوقت الذي فرض فيه الاستعمار على الأجزاء العربية نظرية القومية الاقليمية على النحو الذي قام في مصر والعراق ولبنان والذي استظهر دعوات الفرعونية والأشورية والفينيقية .

فلما تجاوز العرب هذه المرحلة الإقليمية ، واستجابوا للعروبة باعتبارها الرابطة الجامعة للعرب في نطاق فكرهم وعقائدهم ، طرح المنهج العلمي الوافد مفهوم القومية الغربي القائم على أساس اللغة والتاريخ ، والذي لا يعتبر الدين عاملاً أساسياً في بناء القومية . بل ربما يراه عاملاً معوقاً .

كانت دعوة المنهج العلمي الغربي تستهدف تفريغ مفهوم العروبة من العامل الفكري والعقائدي الذي هو الأساس في قيام العروبة . وذلك من خلال مفهوم القومية الوافد . والواقع أن هناك خلافاً جذرياً بين العروبة والقومية ، فالعروبة نتاج إسلامي أصيل شأنها شأن كل القيم التي يتحرك فيها العرب من خلال ثقافتهم وعقائدهم ومفاهيمهم . ذلك أنه لم يكن للعروبة كيان حقيقي موجود قبل الاسلام . بل إن كلمة العرب لم ترد في أي شِعْرٍ أو نثر قبل الاسلام بمفهوم الجماعة .

أما القومية فكانت البديل لفكرة الدين في الغرب ، والإطار الذي تحرك فيه المجتمع الغربي بعد أن حطم إطار الوحدة المسيحية الغربية . ولذلك فقد كان هذا التضاد عاملاً هاماً في مفهوم القومية على غير الدين باعتبار أن الدين في مفهوم الغرب (عِبَادَةً وَلاهُوتاً) هو شيء مضاد للقومية (بمعناها أمة وكياناً قائماً على الجنس والعنصر) أما في الفكر الاسلامي فإن هذا المعنى يتلاشى تماماً على أساس أن الاسلام ليس ديناً (بمعنى العبادة) بل هو منهج حياة ونظام مجتمع، وهو في حقيقته منطلق المزاج النفسي والاجتماعي للأمة العربية . وليس ديناً بمفهوم الدين الذي عارضته القوميات الأوربية .

ومن هنا يبدو زيف النظرية الغربية التي طرحت في أفق الفكر الإسلامي

والتي تشكل القومية على أنها لغة وتاريخ . وذلك لأن الثقافة العربية وليدة الفكر الاسلامي ولا يمكن بشكل من الاشكال فصل اللغة أو التاريخ عن مفهوم الاسلام المتكامل الجامع .

ولقد اعترف كثير من الباحثين بفساد المنهج العلمي الغربي الوافد في نظرية القومية المطروحة . وشهد البعض بأنه لم تقم حركة وطنية في العالم العربي إلا وكانت الروح الاسلامية أساسها . وان وقائع تاريخ الشرق الأدنى الحديث تؤكد على أن القومية المجردة وبالمفهوم الغربي ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء، وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الوحدة. وتتوالى من خلال كثير من الأبحاث الإشارة الى أن العرب متمسكون بلغتهم وأدبهم ومعنون بمجد الاسلام ، وان من المستحيل أن يصرفهم صارف عن لغة القرآن التي تربطهم بالعالم الاسلامي كافة . وان الروح الاسلامية ستبقى تسود بلادهم . وتتقدم أبداً بلا كلل ، ولن يطرأ عليها أي ضعف أو وهنٍ .

وقد كشفت ثورة الجزائر عن اصالة الطابع الاسلامي في الاتجاه الوطني والعربي وكفاح الاستعمار والغزو ومدى عمقه في النفس العربية الاسلامية . ويقرر كثير من المراقبين المنصفين أن أزمة الخلاف بين مفهوم العروبة الأصيل وبين مفهوم التوجيه الوافد يتمثل في ذلك الجفاء المصطنع مع الفكر الاسلامي ، وقد حمل بعض الدعاة لواء قومية علمانية على الطراز الأوربي امتداداً للدعوة التي حملها الاتحاديون في تركيا ، وهو من التيارات التي ترفضها الأمـة العربية وتتجاوزها لما تحتويه من عوامل الانتقاص والقصور .

ولقد حاول الكثيرون تزييف العلاقة بين الاسلام والعروبة والتشكيك فيها، ومحاولة خلق جوٍّ من الالتباس بين المفهومين للمباعدة بينهما . غير أن وقائع التاريخ وهي أصدق من افتراضات المنهج العلمي الغربي الوافد تشير إلى مدى عمق الجذور المشتركة بين العروبة والاسلام .

وإن مفهوم العروبة (لا القومية) في الفكر الاسلامي والثقافة العربية هو

مفهوم حضاري جامع ، يقوم على أساس تعاقد روحي واجتماعي عميق ، دون أن يحمل معه اي معنى من معاني الاستعلاء بالجنس أو العداء للأجناس الأخرى، بل هو على العكس من ذلك يؤمن بالالتقاء مع القوميات المختلفة التي تجمعها معه وحدة فكر وأصول ثابتة وعقيدة أساسية وكتاب عربي هو منطلق الثقافة والعبادة لكل المسلمين .

ومن هذا المنطلق فقد عجزت كل المحاولات عن أن تجعل العروبة مناقضة للاسلام أو مصادمة له .

ومع أن الاسلام ليس ديناً فحسب (ولكنه دين ونظام مجتمع) مما يدل على افتئات النظرية المطروحة التي تحاول أن تبعده عن الاشتراك في تشكيل مفهوم العروبة . فإن النظرة السريعة الى القوميات الأوربية تكشف عن أنها لم تنفصل عن أديانها . فالبروتستانتية جزء لا يتجزأ من القوميات الهولندية والانكليزية بينما الأرثوذكسية جزء أصيل من القوميات اليونانية والبلغارية ، والاسلام كان ولا يزال جزءاً أساسياً من القوميات التركية والإيرانية والأفغانية والعربية والباكستانية والأندونيسية .

ومن الملاحظ أن كل دعاة القومية العلمانية هم من غير العرب الأصلاء دماً وفكراً ومن الذين تعلموا في معاهد الارساليات والتبشير . أما الذين عرفوا (اصالة الثقافة العربية) فقد ربطوا بين العروبة والاسلام . وهناك عشرات منهم لهم كتاباتهم وقصائدهم التي تؤمن بأرضية الاسلام الحضاري والثقافي للعروبة ، بل إن البعض قد وصل الى حد القول بأنه ليس من العروبة التنكر للاسلام أو التفتيش عن بعث عربي بغير دين العرب .

- ٢ -

ولقد جرت محاولات المنهج العلمي الغربي الوافد بإثارة الصراع والالتباس بين الوطنية والقومية ووحـــدة الفكر الاسلامي الجامعة ، وهذه التفرقة إنما تقوم على أساس مفهوم الغرب الذي يعلي شأن الانشطارية والتجزئة بينما لا يعرض الفكر الاسلامي مثل هذه التقسيمات في نطاق مفهومه الكامل الجامع الذي يجعل من هذه الجزئيات عناصر تتكامل وتتشكل في مجموع واحد .

ولقد استطاع الفكر الاسلامي أن يبلور هذه المفاهيم في حلقات ثلاث هامة متداخـــلة مترابطة هي الوطنية بمعنى الأرض في كل قطر ، والعروبة (بمعنى الأمة) وهي في المفهوم الغربي (القومية) ، ووحدة الفكر في مجال الثقافة التي ترتبط باللغة والتاريخ والتراث ذي المصدر الواحد . ولا سبيل الى فصل الحلقات الثلاث ، ومن المستحيل أن يتخلى العرب عن مصادر ثقافتهم ووحدتهم الفكرية ، ولا يزال الاسلام عاملاً أساسياً في بناء أرضية العروبة . وقد رفضت الثقافة الاسلامية العربية المفهوم الوافـــد للوطنية أو القومية . وعارضت أن تقبل تجربة الغرب لأنها لا تطابق ظروفها ولا معتقداتها . ولكل أمة لها فكرها وتراثها وجذورها العريقة في الثقافة ومكانها القائم تحت الشمس أن تلتمس تجربتها الخاصة التي صاغتها وفق ظروفها ومزاجها النفسي . وليست هي بالتالي قابلة لفرضها على أمة أخرى . وقد عجزت قوى التغريب عن صهر الفكر الاسلامي والثقافة العربية والعروبة في قوالبها التي أرادت بها أن تحتويها في بوتقة الثقافة العالمية أي ثقافة العالم الاستعماري المسيطر .

- ٣ -

قدم كثير من المتابعين العرب لمناهج الفكر الغربي الوافد مفاهيم في مجال الإقليميات والقوميات والتجزئة استمدوها من تجربـــة الغرب وفكره، وكان ساطع الحصري في مقدمة الأسماء التي لمعت في هذا المجال . فقد عرف بنظريته التي تقول باللغة والتاريخ . وقد استهدى ساطع الحصري في أبحاثه بالنظرية الالمانية وبمناخ البلقان في حركته القومية التي رفع فيها شعار اللغة في مواجهة الدولة العثمانية للتحرر من نفوذها . وكان من أكبر أساتذته (ماكس مولر ، وماكس نوردو) وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة الى إحياء القومية اليهودية . وقد اعتبر ساطع الحصري اللغة أساس القومية ، وعارض نظرية الارض التي دعا إليها أنطون سعادة . وقد جرى الجدل بينه وبين عدد من النظريات الاوربية في (القومية) دون أن يواجه الواقع العربي أو يفهم اصالة الفكر العربي في جذوره الممتدة الى الفكر الاسلامي أساساً ؛ هذه الجذور التي تجعل من العسير فصل اللغة عن الفكر ، واعتبارها (أي اللغة) مقوّماً منفصلاً ، أو الاعتماد على النظرية القائلة بأن بقاء اللغة أو ضياع اللغة هو بقاء الأمة أو ضياعها . ذلك أن الانطلاق من مفهوم الفكر الاسلامي نفسه يجعل مثل هذه الآراء على درجة كبيرة من السذاجة والبساطة ؟

والواقع أن ساطع الحصري كان غربي الفكر أساساً . بـــل وغربي الذوق والنطق أيضاً وأن تركيبه الثقافي والاجتماعي يحول بينه وبين تبني نظرية عربية

أصيلة مستمدة من واقع الأمة العربية وكيانها وذاتيتها وقيمها التي لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه . وفي ذلك مغالطة أو جهل : ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة ولكنها فكر أمة ولغتها في آن . وان تاريخ العرب لا ينفصل عن تاريخ الاسلام . بل إنه يمكن القول بدون تجاوز أو مبالغة ان العرب لم يكن لهم تاريخ حقيقي بمعنى التاريخ قبل الاسلام .

ويرجع ذلك الى أن ساطع الحصري نشأ في بيئة الاتحاديين الاتراك الذين كانوا صنائع الفكر الغربي والذين تربّوا في أحضان المنظمات الماسونية . وحملوا لواء الإيمان بالفصل بين العربية والمجتمع ، والذين فهموا الاسلام فهماً غريباً على أنه دين لاهوتي، وعلى هذا الفهم الخاطىء القاصر قامت نظرية ساطع الحصري . فهي نظرية مضطربة من أساسها . ذلك لأن كلمة واجب لو أنها صححت لكان موقف ساطع الحصري من نظريته مختلفاً كل الاختلاف : هذه الكلمة هي أن الدين الذي أقام عليه نظريته من أساسها ليس هو الاسلام دين العرب الذين أراد أن يطبق نظريته في محيطهم ولكنه دين أوربا في فترة من فترات التاريخ . ولذلك فإن كل التحديات التي تعالجها نظرية القومية الوافدة لا توجد أساساً في الفكر الاسلامي، هذا فضلاً عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم (القومية) واختلاف مفهوم الاسلام عن مفهوم الدين عند الغربيين .

وجملة القول أن ساطع الحصري نادى بمفهوم القومية الاوربية الوافد . وحاول تطبيقه على العروبة ذات الجذور الاسلامية دون أن يدرك عمق الاثر الذي تركه القرآن في اللغة العربية ، وبالغ الاثر الذي تركه الاسلام في الامة العربية ، ومدى ترابط ذلك الى أكثر من ثلاثة آلاف سنة (قبل الاسلام) بالأمة الوسطى الحنيفية وبدين ابراهيم واسماعيل في الجزيرة العربية ، وهو الذي يعد مصدر كل القيم والاخلاقيات الإيجابية في مجال الكرم والبطولة والنجدة والمروءة في الجاهلية .

وقد استوحى ساطع الحصري نظرية الانشطارية ؛ وهي نظرية معروفة

في الفكر الغربي ولكنها تسقط سقوطاً شديداً عندمـــا تطبق على الفكر الاسلامي (والثقافة العربية وليدته) الذي يقوم على التكامل الجامع وترابط القيم ؛ فقد ركز على اللغة كأساس لنظريته وعزلها عن مفهوم الفكر العربي الاسلامي الواسع كما ركز طه حسين على الأدب وعزله عن الفكر الاسلامي .

ونظرة طه حسين كنظرة ساطع الحصري ، نظرة ضيقة أوربية تتعارض مع المزاج النفسي والاجتماعي الاسلامي القائم على تكامل القيم وشمولها ، كما دعا الى اعتبار التاريخ مقوماً وبذلك عزله أيضاً عن اللغة والفكر والثقافة جميعاً .

وقد أخطأ ساطع الحصري حين فهم الاسلام فهماً غربياً خالصاً على أنه دين وروح ولم يستطع أن يتجاوز أفقه المحدود الى التفرقة بين الدين بعـــامة والاسلام بخاصة ولم ينظر الى فوارق العصر والبيئة والجذور الثقافية التي تختلف فيها القومية في أوربا عن العروبة في عالم الاسلام .

إن المنهج العلمي الاسلامي حين يفرق بين العروبة والقومية الوافدة ، إنما يكشف الفارق العميق بين مفهوم التلمود وبين المفهوم الانساني، ويكشف (هانس كوهين) جذور فكرة القومية ، وأنها نتاج عبري يهودي في كتابه (أساس القومية الحديثة) فيقول : ترجع القومية الحديثة في أصولها الى ذلك المصدر الذي يعتبر أساس المدنية الغربية بأكملها ، وهو المصدر العبري والهليني ، فهذان الشعبان كونا بعض المظاهر الجوهرية التي تميز القومية الحديثة لا من ناحيتها السياسية . بل من ناحيتها الثقافية ، فكل فرد من أفراد القوميات اليهودية والإغريقية كان يشاطر بني قومه الشعور بميزات تفرقه عن كل الشعوب الأخرى . فكلاهما أنشأ فكرة الملكية والكهنوتية بما يخالف كافة الشعوب القديمة ، كذلك نشأت بين اليهود مبادىء الثقافة والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة ؛ تلك المبادىء التي أصبحت من بعد عناصر القومية الحديثة . كما أن الإغريق أنشأوا مبادىء الوطنية للمدنية وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الهلينين والبرابرة .

ويشير هانس كوهين الى أن هذه الفكرة اليهودية الأصل قد انتشرت في فرنسا إبان الثورة الفرنسية ومنها انتقلت الى أوربا كلها . ويرتبط بهذا ما

روجت له اليهودية التلمودية من الصراع بين السامية والآرية في مخطط إعلاء الشعوب والأمم والأعراق والعناصر، وإحلال صراع الأجناس محل وحدة الأديان. ومن ذلك تزكية الالتباس بين العنصرية والجنسية والقومية، وأشار كثير من المصادر أن هذه الدعوات جزء من مخطط الثورة العالمية. وقد ارتبطت القومية في أوربا بأمرين خطيرين يتعارضان مع الفكر الاسلامي.

أولاً – العودة الى الجذور القديمة مع تعدي الآثار القريبة التي غيرت كل شيء.

ثانياً – ارتباط القومية بالعلمانية أو اللادينية أو نفي أثر الدين من الثقافة والتكوين الاجتماعي، وقد حاول المنهج العلمي الغربي الوافد تبرير الدعوات الوطنية والاقليمية والقومية الضيقة المجردة من الاسلام. والادعاء بأنها مصدر التحرر والتساوي مع الأمم العصرية والمتحضرة. وشجب زيف هذه الدعوات كثيرٌ من المفكرين المسلمين. فأشار الأمير شكيب أرسلان الى أن الدعوة الوطنية المجردة من الاسلام لا تخلق في قلب الوطني أدنى اعتقاد بأنه أعلى من الأوربي وكيف تخلقه وهي مجردة من العقيدة القرآنية معتمدة على المادة المحسوسة لا غير. ولا مراء في أننا اذا رجعنا الى المادة المحسوسة وجدنا الأوربي اليوم على وجه الاجمال أعلى بكثير من المسلم، فلا يكون من نتيجة لتلك الدعوة الوطنية المجردة من الاسلام سوى أن تجرد ذلك الوطني من عزة النفس الواقرة في صدره بكونه مسلماً موحداً. « أنتم الأعلون » وأن تسلبه ذلك الخلق الضروري في نهضات الأمم وهو الاعتماد على النفس الكافل تحفزها الدائم للوثوب. أضف الى ذلك أن المسلم المعتقد بدينه لا يزال موقناً بأن لا بد من أن يدال له من الأوربي ولو بعد زمن طويل (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) وان ما عليه الاسلام من الضعف إنما هو عارض مؤقت لا بد أن يزول وانه إنما وقع تمحيصاً للمسلمين بذنوبهم التي اقترفوها . وتهاونهم بأوامر الله ونواهيه . ومن المعلوم أن الأمل هو الشرط الأساسي للعمل . فليس من حافز للمسلم على النهوض مثل أن يعتقد أن الضعف الذي حل به اليوم طارىء لا أصل له ، وأن الأصل هو أن يكون سيداً عزيزاً في الأرض .

- ٥ -

ولقد حـــاول المنهج العلمي الغربي الوافد اذكاء مفهوم (السامية) ليجعله مشتبهاً بين العرب واليهود . والواقع أن الفكر الاسلامي في سبيل تحرير المفاهيم وتصحيح التفسيرات الزائفة المضللة يتحدث عن الجنس العربي لا السامي. وعندما نقول الجنس العربي لا نقصد المعنى الذي يميز الجنس البشري من الجنس الآخر بخصائص جسمانية في الدرجة الأولى وإنما نقصد المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب من أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة . وشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد حتى صارت حسًا واحداً .

لقد حكم اليونان والرومان مصر وبلاد الشام ألف سنة (٣٣٠ ق. م. الى ٦٤٠ م) ونشروا لغتهم وثقافتهم . وقـــد جمع بينهم دين واحد هو المسيحية قرابة أربعة قرون . وجاء الفرس وكانت لهم السيادة على العراق أكثر من ألف ومائتي عام ، وكان لهم دينهم وثقافتهم . ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم في حين أن الموجات العربية الصريحة التي جاءت الى الهلال الخصيب في حكمهم ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا أخذت تفرض طابعاً على البلاد وتمتزج بأهلها القدماء . ثم جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الاسلام . فلم تكد

تمضي بضعة أجيال حتى توطدت السيادة في هذه البلاد للطابع العربي الصريح ، وغدا شاملاً عاماً .

ومن هنا فإن أنسب الأسماء لهذا الجنس وأصحها هو الاسم الذي صار علماً له في دور العروبة الصريحة . وهو الجنس العربي لا السامي .

هذا فضلاً عن أن السامية تسمية أعجمية وافرنجية[1] .

---

١ ــ عن بحث للعلامة : محمد عزة دروزه .

- ٦ -

ومن هنا وفي ضوء هذه المحاذير جميعاً فقد كان موقف المنهج العلمي الاسلامي إزاء النظرية القومية الوافدة واضحاً صريحاً . فقد جاء الاسلام مصححاً للتطرف والتعصب في القوميات . الأمر الذي تشكو منه الانسانية اليوم ، وجاء مقاوماً للعصبيات القومية . فالاسلام يؤاخي بين القوميات الاسلامية فلا فضل لقومية على أخرى في الاسلام إلا بالتقوى . ذلك أن الاسلام رابطة أخوة روحية بين العناصر المسلمة المختلفة القوميات التي تعيش في الوطن الواحد مثل العرب والأكراد والأتراك والفرس .

(رابعاً)

العروبة والسامية

- ١ -

لقد ركز المنهج العلمي الوافد على العرب كافة والعروبة كفكرة وجماعة في محاولة استبدال مفاهيم أصيلة بمفاهيم زائفة وإيجاد التباس بين العروبة والاسلام. وقد كان للغزو الصهيوني القائم في قلب الأمة العربية دوره الخطير في طرح هذه المفاهيم في أسلوب براقٍ له مظهر البحث العلمي ، ذلك أن اليهودية الصهيونية في سبيل تبرير وجودها في فلسطين تحاول أن تصطنع بالتزييف نظرية الأمة المختارة والوعد الإلهي .

ومن هنا جرت محاولات لتزييف مفهوم العروبة بإحلال مفهوم البداءة محل العروبة على النحو الذي عمد إليه برنارد لويس المستشرق اليهودي، أو التشكيك في رحلة ابراهيم عليه السلام الى الحجاز ، وتقدم اسماعيل على إسحاق ، وبناء الكعبة بيت الله الحرام فضلاً عن الاسرائيليات الكثيرة التي حفلت بها الدراسات الاسلامية . ومنها اسرائيليات جديدة . ومنها ما يتصل باللغات السامية . ومنها الدعوة الى نبذ الماضي القريب ، وإحياء الماضي القديم الوثني السابق للاسلام بما يحتويه من عبادة النجوم والكواكب وصراع آلهة النور والظلمة وتأليه البشر .

ولقد حرص الاسلام على مهاجمة الوثنيات والخرافات والسحر والكهانة . كما أنكر العرافين وطارد الأوهام والمعتقدات الباطلة . وأنكر ادعاء علم الغيب

واعتبر السحر كفراً وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمـانه عن الضعف البشري . الذي يجعله ألعوبة في يد أوهام الطوالع وأضاليل العرافين .

وكان من أبرز مفاهيم الاسلام : الوضوح الصادق حيث لا تأويل ولا كناية ولا غمغمة ، وحيث لا يحمل اللفظ أكثر مما يطيق أو يؤدي أكثر من معنى ، وحيث الحق حـــق . والباطل باطل ، وحيث لا يكون الشيء في نفس الوقت حقاً وباطلاً .

- ٢ -

ولقد كشفت الحقائق التي تواجه زيف المنهج العلمي الغربي الوافد عن أن العروبة جزء من الاسلام . بــل هي نتاج الاسلام نفسه ، فالاسلام هو الحركة الاجتماعية الكبرى التي جمعت القبائل العربية المتفرقة المتصارعة على إيمان واحد، ولولا الاسلام لبقي العرب في جزيرتهم قبائل متفرقة لا مكان لهــا في تاريخ الحضارة الانسانية . فللإسلام على العرب فضل توحيدهم . ثم فضل إطلاقهم في معارج الحضارة وفي الحياة الانسانية . ان العرب توحدوا بالاسلام ، وان الاسلام جعل منهم قوة عالمية حملت لواء الحضارة الى العالمين .

لقد انتقل الاسلام بالعرب الى المجال العالمي . ومع ذلك فالاسلام ليس ملكاً للعرب وحدهم . ولا لأية أمة من الأمم . وإنما هو رسالة الله الواحد الحق الى الانسانية جميعاً . ولقد اختير العرب لحمل لواء هذه الرسالة ، وأعدوا لذلــك إعداداً صحيحاً فقاموا بدورهم ولا يزالون مؤهلين لتجديد القيام بهذا الدور .

لقد خلق الاسلام العرب خلقاً جديداً . وأقام وحدتهم على أساس العقيدة والفكر ، وليس على أساس الجنس والعرق . وكان بمثابة السور المنيع الذي رد عنهم العوادي وحطم الغزاة .

ولقد صحح الاسلام القيم الجاهلية التي كانت قد بدأت مع الحنيفية السمحة في عهد إبراهيم واسماعيل . ثم انحرفت ، ومنها بطولة الحروب ، وكرم الضيافة وحماية الذمار . وأعادها من جديد الى مفهومها الأصيل .

- ٣ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد إحلال مفهوم بديل مكان مفهوم أصيل ، حين فسر برنارد لويس (العربي) بمفهوم (البدوي) .

قال إن العرب بالنسبة لمحمد ومعاصريه هم البدو سكان الصحراء . وقد استعمل القرآن هذا النص (العرب) على التخصيص في هذا المعنى ولم يستعمله قط ليدل على سكان مكة والمدينة والمدن الأخرى .

وحاول لويس أن يعلي مفهومه هذا على جميع ما ورد في المعاجم العربية (لسان العرب ، وتاج العروس ، وغيرها) مدعياً أنّ تفسيرها خاطىء .

يقول جلال مظهر في مواجهة هذه الشبهة : نحن نعرف أن لفظ (عرب) اسم جنس يطلق على هذا الجنس من الناس الذين يقطنون بلاد العرب سواء كانوا بدواً أم حضراً وأن هنـــاك تفريقاً واضحاً بين عربي وأعرابي . وأن ذكر (الأعراب) تحديداً لسكان الصحراء الرحل جاء في القرآن عشر مرات ، وقد فسر جميع الذين ترجموا القرآن كلمة أعرابي هذه بساكن الصحراء أي البدوي . وقد ذكر القرآن كلمة عربي (أحدى عشرة مرة) ، ولم يقل بلسان أعرابي . وإنما قال : بلسان عربي .

ولقد نقل الاسلام العرب من البداوة الى العروبة . وجاء في الحديث : ثلاث من الكبائر منها : التعرب بعد الهجرة (أي العودة الى البادية والاقامة مع الأعراب) بعد أن كان مهاجراً من مكة . وكانوا يعدون من يفعل ذلك كالمرتد . وقال الأزهري : والذي لا يفرق بين العرب والأعراب . والعربي والأعرابي ربما تحامل على العرب بما تتأوله آية :

(الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً)[1] .

وقد تناول هذا المعنى الدكتور عمر فروخ . فأشار إلى أنه لا يوجد في الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا جذر (عرب) للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس ولا معنى يتعلق باللغة .

فلما جاء الاسلام ونزل القرآن ورد فيه جذر (عرب) في ثلاث صيغ . (عرباً) جمع عروب نعتاً للمرأة المتحببة الى زوجها (عرباً أتراباً) (أعراب) جاءت عشر مرات في سور مدنية فقط . منها : ست مرات في سورة البقرة وحدها : بمعنى البدو .

أما الكلمة الفاصلة فهي كلمة (عربي) التي وردت في القرآن إحدى عشرة مرة في سور مدنية ومكية . ثم وردت عشر مرات نعتاً للغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة مبينة .

(إِنّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون) .

---

١ - من بحث لجلال مظهر - مجلة العلوم البيروتية .

وان استعمال كلمة (عربي) دلت الشعراء على التعبير الذي لم نقع عليه في شعرهم قبل الاسلام . ومنذ السنة الثالثة للهجرة قال كعب بن مـــالك يذكر رسول الله :

بدا لنـــا فاتبعناه نصدقه   وكذبوه فكنا أسْعَدَ العربِ

وهكذا بدا في الشعر العربي مدرك لم يكن معروفاً من قبل ؛ وهو أن العرب جماعة واحدة في نطـــاق الوحدة الجامعة .

- ٤ -

ولقد أثار المنهج العلمي الغربي الوافد شبهة وجود إبراهيم، وولادة إسماعيل. وبناء الكعبة. وجاء من أتباع المنهج الوافد من طرح مثل هذه الزيوف في أفق الفكر الاسلامي. فقال طه حسين « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل والقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً. ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون الى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة. إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه في شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات ». ويتصل هذا اتصالاً واضحاً بشبهات اليهود على تاريخ الاسلام وعلى مفهوم العروبة المتصل تاريخياً بالحنيفية الإبراهيمية.

ويشير الباحثون الى أن التوراة عندما جددها (عزرا) إبان السبي البابلي قد صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية، بينما قدمها القرآن في قالب يؤكد الحنيفية. يقول الدكتور الفاروقي « ولكن المسألة ليست مجرد اختلاف وجهة النظر بين الكتابين. فالتوراة يوماً ما قدمت الحقائق من وجهة نظر الحنيفية إلا أنها غيرت نفسها بمرور الزمن. وهذا دليل على أن الحنيفية أو

الخبر التاريخي كما قاله القرآن الكريم هو الحق . فوجود الحنيفية في التوراة بشكل محرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم .

ويعني هذا أن التوراة حرفت لتحول الحنيفية الى عنصرية تمثل حزباً أو قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات ، واتباع نظام أخلاقي يقضي بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار في قبيلة أو شعب أو أمة أخرى . أما الحنيفية فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كذوي رسالة يحملونها الى البشر أجمع، ويحققونها بالانصهار في جسم البشرية، وبإهداء الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والإخاء لغتهم وثقافتهم ورسالتهم » ويكشف هذا الاتجاه أساس التحريف الذي زيف وجود العرب في البناء الابراهيمي الحنيفي، وإنكار وجود إسماعيل ورحلة إبراهيم الى الجزيرة العربية . وذلك لكي يفرد اليهودية بميراث ابراهيم كله من خلال إسحاق الابن الثاني لابراهيم بعد إسماعيل .

ثم تحاول التوراة بعد بلورتها العنصرية — على حد تعبير الدكتور الفاروقي — يقول بأن ابراهيم هاجر لأن (يهوه) أمره بذلك . ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه . فهي تقول انه أمر تلقائي عرفي . أي لا سبب له . فالله في نظرها فضله لأنه هو، وقد فضّل ذريته لأنها ذريته . بل قطع عهداً (لا ميثاقاً: والفرق بين العهد والميثاق أن الأول ذو اتجاه واحد أي يلزم جهة واحدة فقط) على نفسه بتفضيلها مهما حصل الى الأبد . حتى الإله تمثلته كإله هذا العنصر من دون الناس .

« أما القرآن الكريم فجاء يعلن أن الله إله الجميع لا قدرة وقهراً . بل حباً ورحمة وجاء يؤكد أن هجرة ابراهيم كانت لسبب وجيه هو التوحيد . وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجزيه أحسن الجزاء إذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات ، وأنه تعالى سيعاقبه أشد العقاب ، بل سيستبدله وقومه اذا لم يحققوا هذه الأمانة »[1] .

---

١ — مجلة كلية الآداب م / ٢١ / ١٩٥٩ .

- ٥ -

ويتصل بهذا ما كشف عنه بعض الباحثين من الخلاف الواضح في أبطال اليهود بين القرآن والعهد القديم [١] . يقول :

إن الصورة التي يتبينها القارىء من نصوص القرآن لموسى يختلف اختلافاً كبيراً عن الصورة التي يتبينها من تأمل نصوص التوراة ، فإن موسى المؤمن بالله الواحد غير موسى الذي اختص هو وقومه بعبادة « يهوه » مرة « وألوهيم » ومعناها الآلهة مرة أخرى .

وهذه الملاحظة لا تصدق على موسى ، والإله في نظره فحسب . بل تصدق على كل أبطال اليهود قبله وبعده ممن رسمت صورهم ، أو جوانب بارزة منها في القرآن والعهد القديم معاً . وقد يشتد الخلاف بين صورة البطل هنا وصورته هناك حتى يبلغ حد التناكر .

وهنا ينكشف جانب هام من محاذير علم مقارنات الأديان حين يركز العلماء اليهود على محاولة القول بأن اليهودية وأسفارها لهـا فضل على ما تلاها من الديانات والفلسفات . ومن الحق أن يقال إن هذا الاتجاه يبدو في السبعينات واضحاً أشد الوضوح من خـلال كتابات الكثيرين وخاصة كتب المقارنات المسيحية التي يكتبها من لهم ولاء الى اليهودية التلمودية . ويمكن أن يرد ذلك

---

١ - محمد خليفة التونسي : الرسالة م ١٩٥٨ .

الى هدف أكبر . وغايته[1] شر من هذه الغاية فهم يسيرون على هذا النحو المضلل . وهو تشكيك المسيحيين والمسلمين – وهم أقوى مزاحمي اليهود في الديانتين ، فالعالم إذا تمكن من تفتيت الدين ، وأعاد كل فئة الى مصدر قبله – ولو لم يكن المصدر يهودياً ، استطاع أن يمحق قداسة الدين في القلوب والعقول . وبخاصة عند المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن وحي من عند الله أنزله على محمد فبلغه من غير أن يكون له مشاركة فيه . وهذا يخالف ما يعتقد المسيحيون في الوحي ؛ إذ يرون أن كتاب الأناجيل هم كاتبوها بإلهام من الله وإشراق عليهم منه .

ومن هنا فقد قام اليهود « بعقد مقارنات بين كثير مما جاء في العهد القديم ولا سيما في التوراة ، وما جاء في الشرائع والعقائد السابقة له عند الأمم كالبابليين والمصريين والهنود وغيرهم فزعزعوا من مكانة العهد القديم ما زعزعوا ولكن في أنظار غير اليهود ويكشف وجه المقارنة بين صور الأنبياء في القرآن وصورهم في العهد القديم عن خلاف واسع قد يصل الى حد التناكر « وأهم مظاهره هو عصمة الأبطال في القرآن عما لا يليق بهم وعدم عصمتهم في العهد القديم من ذلك[2] » .

ومن ذلك أنهم يقسمون البشر الى يهود وهم الشعب المختار . وجوييم ، وهم من عداهم من البشر ومعنى الجوييم الكفرة والوثنيون والأنجاس والحيوانات ، وهي ما تعرف في العربية بكلمة الأميين .

واليهود يعتقدون أنهم غير ملزمين بأي شريعة في معاملة غيرهم فلهم قتل غير اليهودي وسرقة ماله وانتهاك عرضه[3] .

---

١ – محمد خليفة التونسي : الرسالة م ١٩٥٨ .

٢ و ٣ – نفس المصدر .

- ٦ -

وتركز الصهيونية العالمية على العرب والأمة العربية والحضارة العربية هادفة الى إزالتها لإحـــلال الصهيونية والحضارة الصهيونية مكانها . وقد كشفت تصريحات زعماء الصهيونية عن ذلك ، وعن موقفهم من الدين الواحد ومن اللغة العربية ، كما كشفت كتابات اليهود التلموديين عن ذلك الحقد الدفين الدائم الممتد للكنعانيين ، وقد حمل كثير من المواقف والمواقع إشاراتٍ الى الماضي القديم حيث أطلق على عملية ١٩٦٧ اسم (خيبر) وخيبر هي أرض في الجزيرة العربية كان يسكنها اليهود منذ ١٣٧٠ عاماً وأجلاهم منها نبيّ الاسلام .

ومن عجيب أن تركز الصهيونية على العرب الذين هم الشعب الوحيد الذي أنقذ اليهود من اضطهاد الأوربيين في العصور الوسطى ، وحمــاهم ثمانمائة عام في الأندلس ثم بعد ذلك في الدولة العثمانية .

ومن حيث استطاعت الصهيونية واليهودية والتلمودية احتواء الفكر الغربي ، والسيطرة على الدين والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة ، فإن من وراء طرح مفاهيم الفلسفات المادية في أفق الفكر الاسلامي ما يشير الى أثر الفكر التلمودي ومحاولته لاستيعاب الفكر الاسلامي واحتوائه .

ولقد حفلت دوائر المعارف العالمية ، والتي ترجم بعضها الى العربية . وفي

مقدمتها دائرة المعارف الاسلامية بوجهة النظر اليهودية التلمودية في مختلف المواد التي تتصل بالاسلام والعروبة وإبراهيم والقرآن وما يتصل بالتاريخ واللغة .

ومن هنا بدأت محاولات إثارة الشبهات حول اللقاء بين العروبة والاسلام ، وبين العروبة والبداوة ، وبين القومية والاقليمية وبين التراث القديم السابق للاسلام ، وبين الأديان وبين القومية والعالمية .

الفصل الثالث

مفاهيم الحضارة

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي تفسيراً للحضارة استمده من مفاهيمه وعقائده وقيمه . ثم حاول أن يحاكم الحضارة الاسلامية على ضوئه ، فجاءت نتائجه التي استخلصها غير علمية وغير مطابقة للحقيقة . ذلك أنه تجاهل أول ما تجاهل العامل الجوهري الذي دفع الحضارة الاسلامية في هذا الزمن القصير حتى بلغت آفاق المشرق والمغرب . وحاول أن يفسره تفسيراً مادياً محضاً . دون تقدير لأثر العقيدة ومضمون الأخلاق وأثر الجوانب الروحية والنفسية والفكرية على الأمم والحضارات ، وعلى بنـــاء البطولات والتضحية بالنفس والجهاد في سبيل الله . ولا ريب كان تجاهل هذا العامل أخطر تجاوزاتهم في تفسير الفكر الاسلامي كله . ولقد اختلف رد الفعل الذي وُوجِهَتْ به الأديان الأخرى من حيث ان الاسلام هو الذي قدم للبشرية فكرة تحرير العقل والنفس والجسم من وثنية العقيدة وعبودية الانسان بما يشبه أن يكون ثورة فكرية واجتماعية بالغة الأثر عظيمة الخطر .

ومما لا شك فيه أن من الأسباب الرئيسية في ازدهار الاسلام ونجاحه هو إصراره على محو العبودية ، وتأكيد مبدأ المساواة الذي يختلف اختلافاً تاماً عن المجتمعات العبودية والاقطاعية القديمـــة حين طرح مفهومه الصريح (الناس

سواسية كأسنان المشط) (لا فضل لأبيض على أسود ، ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى) اهـ .

ذلك أن نظرة الى أفق العالم قبل الاسلام تكشف في يسر وبساطة عن ذلك الطابع الوحشي القاسي الذي كانت الحضارات الفرعونية والفارسية والهندية واليونانية والرومانية تطبع به معاملاتها للإنسان .

(٢)

وخلاف آخر جوهري : ذلك أن الاسلام هو الذي صنع حضارته ومجتمعه وبناها منذ اللبنة الأولى . بينما وفدت المسيحية على المجتمع الغربي ، والحضارة الرومانية مشكلة قائمة ، غير أن النهضة الأوربية التي سميت بالحضارة الحديثة لم تبدأ إلا بعد ألف وخمسمائة عام من ظهور المسيحية . وألف ومائتي عام بعد دخول المسيحية أوربا . فلا صلة بين الحضارة الغربية وبين المسيحية ، بل إن البعض ليذهب الى أبعد من ذلك فيقول : « إن هذه الحضارة لم تعرف الطريق إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التي فرضتها على الناس ، وتخلصت من رجال الدين الذين حبسوا العقلية الغربية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التي تخالف اتجاهات الغرب التي تميل الى المادية . وان أوربا لم تتقدم فكراً وثقافة وعلماً إلا بعد أن قضت على سلطان الكنيسة وتحررت منه تحرراً تامـًّا[1] .

---

١ - عن نص للاستاذ أبي الحسن الندوي منقولاً عن بعض الباحثين الغربيين .

(٣)

ومن وجوه التباين والاختلاف أن الإسلام حين انطلق الى الشام ، والى المغرب عبر مصر وإفريقيا قد دخل عالمـــاً كان في قبضة الحضارة الرومانية وفكرها قروناً طويلة، فمسح فكرها ولغتها وشكـلها من جديد، مما كان موضع تساؤل الباحثين الغربيين ودهشهم حيث لم يجد تفسيرهم التاريخي والحضاري مبرراً لهذا التحول الخطير فيقول أحدهم : « تركت روما القديمـــة في بلاد الغرب (المغرب) آثاراً لا تمحى . وكانت من تلك البلاد ، افريقيا الشمالية . فتكلمت اللاتينية مدة ستة قرون . وأنشأت الكنيسة آباءً عظاماً أمثال القديس أغسطينوس . ومع ذلك اضمحلت فيها تلك الآثار الرومانية المسيحية وبسط الاسلام نفوذه فيها على كل شيء . فكيف حدث هذا التغيير الغريب البعيد الأثر في تاريخ شواطىء البحر المتوسط . هذا أمر مبهم غامض لم يحرب أحد فيما سلف أن يكشف القناع عنه . ولهذا دعيت تلك القرون بالقرون المظلمة [١] » . ويقول في هذا المعنى باحث آخر « قبل الميلاد : دخلت روما بلاد العرب فاتحة واستقرت في مشرقها وفي مغربها قروناً كثـــيرة متعاقبة واحتلت من الأراضي أكثر مما أحتل الفرنسيون . وبنت من القلاع والحصون أكثر مما بنى الفرنسيون واستوطنت مدناً عربية ، وغيرت أسماءها بأسماء رومانية على غرار ما فعلت فرنسا (من بعد) وبسطت سلطان لغتها وقانونها

١ — م (٢٦) مجلة المشرق .

وآدابها مثلما فعل الفرنسيون . ثم عصفت العاصفة بروما وهبت عليهـــا الرياح الاسلامية العربية ففقدت أثراً بعد عين».

* * *

ولا ريب أن المنهج العلمي الغربي الوافد المقايس بالماديات والأرقام يعجز عن أن يعلل انتصار الجيوش الاسلامية . وهي أقل عدداً . كما يعجز عن أن يعلل انبساط الاسلام في العالم في أقل من سبعين عاماً . ويعجز أن يعلل محوه للثقافات التي استمرت أكثر من ستمائة عام . تلك أمور تعجز المناهج العلمية القائمة على التقديرات المادية والمحسوسة وحدها أن تستوعبها . ولذلك فهي حين تفسرها تكبو وتسقط . ذلك أنها لا تجد الوسيلة ولا تجد الدافع . وربما غلب عليها اتباع الظن وما تهوى الأنفس . والأوربيون من المفكرين في الأغلب حين يواجهون مثل هذه الظواهر ، يتصورون كيف كانت هذه المناطق تابعة لنفوذ الغرب ، ثم انتزعها الاسلام . ولذلك فهم يعجزون عن ضبط النفس إزاء هذه المشاعر ، ولا يدفعهم البحث العلمي الى معرفة أسرار التغيير بين الحضارات ولا قوانين قيام الدول وسقوطها . ولكنهم يذهبون الى أهواء تنكر الحقيقة ، ولا تحاول أن تواجهها . ومن هنا يصدق الدكتور ناصر الخاني حين يقول : اننا لا نعرف في التـــاريخ البشري حضارة هوجِمَت بشراسة وضراوة كالحضارة العربية (الاسلامية) لقد أقامت عصوراً طويلة تحت وطأة الاحتلال الأجنبي ، وظلت دوماً تجابه مشكلات وأزمات لا نشك أنها لو جابهت حضارة أمم أخرى ليس لها الجذور العميقة في التاريخ لطوحت بها .

- ٢ -

ومن هنا نرى أن المنهج العلمي الغربي الوافد حريص على إثارة الشبهات حول القيم العليا للحضارة الاسلامية . فيقف الكردينال لافيجري في أول يوليـــو ١٨٨٨ في كنيسة سان سوليبس في باريس ليلقي محاضرة عن الرقيق في الاسلام . فينكر فضل الاسلام على محو العبودية البشرية التي كانت تنتظم الحضارات المصرية والرومانية والفارسية والهندية ، ولكن الكردينال وأتباعه يتهم الاسلام بأنه يدعو الى النخاسة ويوصي أهله بارتكاب الفظائع التي يرويها عن أواسط إفريقيا ، ويغض الطرف عن الملايين التي حشدها أهله الأوربيون لتصديرها الى أمريكا. ويذهب كرومر الى القول بأن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم ويدعوا القرآن وأوامره وراء ظهورهم لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ، وأن الاسلام يناقض مدنية هذا العصر من حيث المرأة والرقيق ، وأن الشريعة الاسلامية هي شريعة صحراوية ، وأن أكبر أخطاء الاسلام إباحة الطلاق وتحريم الربا والزنا . وهناك من رجال المنهج العلمي الغربي الوافد من يحاول أن يصور الحضارة الاسلامية عالة على حضارة الرومان والفرس ، والواقع أن الحضارة الاسلامية من حيث هي مدنية قــد قدمت للبشرية ما لم تقدمه حضارة سابقة : تحرير العقيدة والعقل من الوثنية وتحرير الانسان من العبودية . أما من حيث الجانب العلمي ، فقد قدمت للبشرية المنهج العلمي التجريبي الذي خرجت به عن مفهوم الحضارة اليونانية . والواقع أن الحضارة الاسلامية أصابت الغرب بنوبة هستيرية لظهورها ، وأن أشد

ما خشيه الغرب من الحضارة الاسلامية الناشئة أنها كانت تستند الى مثل أعلى فوق المادة لا ينفع في دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية [1] وأن الغرب الذي عجز عن تقبل عقيدة الاسلام ، قد تأثر بالاسلام في عشرات المواضع من حياته ومجتمعه وفكره :

١ – تأثر به من خلال دعوة لوثر وكلفن الى تحرير الدين وتفسير الكتاب المقدس .

٢ – تأثر به من حيث الدعوة الى حقوق الانسان وتحرير الرقيق .

٣ – تأثر به من حيث مفاهيم الاجتماع والتاريخ والفروسية والتربية .

٤ – تأثر به من حيث التماس المنهج العلمي التجريبي .

ولقد كشف بريفولت في كتابه : (**Making of Humanity**) عن هذه الحقيقة بعد أن أخفاها (المنهج العلمي الغربي الوافد) سنوات طويلة وأنكرها المفكرون الغربيون ودحضوها في استهانة واحتقار ، ثم جاء من تحرروا من هذا القيد الدامي ليقول بريفولت : « ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي يمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة ، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة . ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، إنه مدين لها بوجود نفسه » .

---

١ – عن نص لتوينبي في كتابه الحضارة في فترة اختبار .

- ٣ -

من أخطاء المنهج العلمي الوافد تلك النظرية التي أذاعها جورج سارتون في كتابــه : (The unity and Dinersaty of the mediterranean World) والتي حاول فيها أن يجعل للبحر المتوسط شخصية حضارية أساسية . ويجعل الحضارة الاسلامية جزءاً منها ، فهو يرى أن في العالم ثلاث حضارات رئيسية حية هي : الحضارتان الصينية والهندية ، وحضارة ثالثة ينتمي إليها ما بقي من العالم المتمدن . وأن هذه الحضارة مزيج من عناصر مختلفة ، منها ما هو مصري وسومري وإيراني وبابلي ويوناني وروماني وعربي، وأنه لا يحق لنا أن نطلق عليها اسم عنصر من هذه العناصر ، ولا نقدر أن ندعوها آرية أو سامية ، ولا نستطيع أن نسميها : وثنية أو يهودية أو نصرانية أو اسلامية ، وإنما اسمها حضارة حوض البحر المتوسط . ويرد سارتون هذه الحضارة الى أصول ثلاثة :

أولاً : الفكر اليوناني .

ثانياً : النظام الروماني .

ثالثاً : الدين السامي .

وفي مادة الدين السامي يقول : إنه عناصر وآثار تعود الى أصول هندوسية وفارسية ومصرية غير أن الساميين صهروها بحرارة أرواحهم .

وقد قال بأن هذه الحضارة قد تشكلت في بحر إيجة ثم انتقلت الى روما ، ثم قال: وفي القرن السابع دخل العرب معترك التاريخ. وكانت فاتحة أعمالهم أن قضوا على امبراطورية الفرس وزعزعوا أركان الامبراطورية البيزنطية فجردوها من أغنى ولاياتها (المغرب ، الشام ، مصر) وما لبثوا أن نازعوا الروم وما بقي من الرومان على ملاحة البحر الأبيض وتاريخه ، والعرب لم يقضوا على وحدة البحر المتوسط الاقتصادية والثقافية ، بل عززوها . ثم نشر العرب ما ورثوه من الفرس ، ومـــا اقتبسوه من البيزنطيين والأقباط ، وما أخذوه من النصارى واليهود وصائبة حران الوثنيين . ثم استولت حضارة البحر المتوسط على العرب فدخلوا في مجراها وأدخلوا فيها ما كانوا قد استقوه من مياه الثقافات الأخرى. وأن الدور الذي قام به العرب تجاه هذه الحضارة هو : الدور الذي قام به من سبقهم من شعوب المتوسط كالأيجيين والفينيقيين واليونان والرومان » اهـ .

والواقع أن هوى متبعاً لم يبلغ بالمنهج العلمي الغربي الوافد أبعد مما بلغ به في هذه الصورة التي رسمها باحث غربي وأقامها في إطار علمي براق ، وحاول أن يخدم بها أهدافاً بعيدة . تجري في ذلك المجرى الزاخر الذي يحـاول طمس الحضارة الاسلامية ودور العرب عن طريق الاسلام في بنـــاء فكر التوحيد الخالص الذي اختلف وتجاوز وتباين مع الفكر البشري كله . ولو أن المنهج العلمي الغربي الوافد كان منصفاً وكان متحرراً من الظن ومـــا تهوى الأنفس لأدار هذه الصورة الحضارية كلها حول الحنيفية الإبراهيمة التي تعد المصدر الأول للتوحيد وبناء الحضارة الانسانية الحقة ، والتي واجهت التحدي مرات كثيرة خلال ذلك التاريخ الطويل ، حتى جاءت رسالة الاسلام لتقدم حضارة التوحيد في مواجهة حضارة الوثنية .

لقد كانت الأمـــة العربية التي أنشأها إبراهيم في الشام والجزيرة العربية (إسماعيل وإسحاق) هي التي أقامت الحضارة الانسانية بمفاهيم التوحيـــد

والحنيفية والأخوة ، ثم تحولت عبر فلسفات الشرق البابلية ، وفلسفات الغرب الهلينية إلى فكر وثني وإلى حضارة تقوم على العبودية .

أما الدين السامي الذي يعود الى أصول هندية وفارسية ومصرية ، فليس هو دين إبراهيم ، وليس هو رسالة موسى التي أنزلت الى بني إسرائيل ، ولا رسالة عيسى التي جاءت مكملة لها ، وإنما هي ذلك الدين التلمودي الذي صاغه اليهود في مفاهيم في بابل من تراث الوثنيات القديمة والسحر والكهانة والأساطير .

إن الدين السامي ليس هو دين السماء المنزل ولكنه الدين الذي يرسم فكرة الشعب المختار . وكيفما تكن الحضارة التي نشأت قبل الاسلام ، وما يتصل بها من تجارة وفكر وحروب ، فإن الاسلام حينما جاء ، قدّم للبشرية شيئاً جديداً في منهجه وفكره وأسلوبه ومفاهيمه سرعان مـــا فصل به بين العقول والأمم والمجتمعات على نحو لم يلبث بعد عشرين عاماً أن أعلن الصورة المتميزة التي تقوم على ذاتية خاصة وعلى فكرة واضحة لم تلبث أن جاوزت الجزيرة العربية الى العالم كله شرقاً وغرباً حتى أصبح شاطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبي بعد سبعين عاماً مستقلاً له : له طابعه وآثاره التي تدافعت الى كل آفاق القارات الثلاث ، وغيرت العقول والقلوب . وسرعان ما أقامت فيصلاً واضحاً بين الفكر البشري كله ممثلاً في العناصر البابلية والهلينية والفرعونية ، وبين الفكر الرباني المستمد من القرآن والقائم على التوحيد .

ومعنى هذا أن الاسلام لم يدخل في دائرة حضارة البحر المتوسط دخول الاحتواء ، ولكنه استقطع عالمه الخـــاص ، وأقام كيانه المستقل الذي لم يكن اندماجاً ولا انصهاراً في حضارة الوثنية . ومن ثم أقام اقتصاداً جديداً غيّر مجاري التجارة ومصادر الثروات . أما ما ورثه العرب من الفرس ، وما اقتبسوه من البيزنطيين ، وما أخذوه من النصارى واليهود . فذلك كله قد ذهب وتبدد . فقد قدم القرآن للعرب والمسلمين منهجاً جديداً وعلماً واسعاً عريضاً في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والقانون والتربية . ثم تشكل هذا

المنهج وتبلور قبل أن يختار الرسول الى الرفيق الأعلى . فلما ترجمت الفلسفات الفارسية واليونانية وغيرها لم تكن بالنسبة لهذا المنهج إلا شيئاً مقارنا . ليس هو الأصـــل الأصيل . وإنما هو الوافد الذي جرت المحاولات لاخضاعه لفكر التوحيد ، ثم تجاوزته لأنها وجدته وثنياً عبودياً مخالفاً للفكر الاسلامي في أكبر معالمه . ومن هنا لم يكن دور العرب كدور الأيجيين والفنيقيين واليونان والرومان . ولكنه كان دوراً مغايراً واضح الذاتية ، له طابع التوحيد والإيمان بالغيب والبعث والجزاء واليوم الآخر ، وله فكره القائم على أساس الترابط بين الدين والمجتمع ، وبين المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي .

- ٤ -

إن المؤرخ البلجيكي : هنري بيرين ، قد أشار الى دور الاسلام في حضارة البحر المتوسط فقال : « إن البحر المتوسط كان حلقة اتصال مستمر بين الحضارات التي نشأت حول شواطئه منذ العصور القديمة حتى اكتسب تلك الحضارات . وطبعها بطابعه . لكن الحدث الكبير الذي قلب الأوضاع رأساً على عقب ، هو ظهور الاسلام الفجائي في القرن السابع الميلادي على مسرح الأحداث . وما كان من استيلائه على الموانىء الشرقية والجنوبية والغربية من (البحيرة الأوربية) . ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر المتوسط سدًّا وحاجزاً بين الغرب والشرق ، بعد أن كان معبراً وأداة اتصال ، على الرغم من أن الدولة البيزنطية بفضل أسطولها استطاعت أن ترد المسلمين عن بحر أيجه والأدرياتيك والشاطىء الجنوبي من إيطاليا، إلا أن غرب ذلك البحر المتوسط سقط كاملاً في أيدي العرب فطوقوه من الجنوب ومن الغرب بفتحهم المغرب واسبانيا وباستيلائهم على جزائر البليار وكورسيكا وسردينيا وصقلية. وتبعاً لذلك فإنه منذ القرن الثامن الميلادي حكم على التجارة الأوربية بالموت في تلك المنطقة . وانتقلت حركة النشاط التجاري كلها نحو بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية . إن هذه الشواطىء التي قامت عليها في يوم من الأيام علائق ترتكز على وحدة العادات والحاجات والأفكار قامت عليها حضارتان ، بل عالمان متعاديان يواجه أحدهما الآخر . إن التوازن الاقتصادي الذي قام منذ العصور القديمة ، واستمر حياً بعد الغزوات الجرمانية قد انتهى أمام الغزو الاسلامي . ومن هذه الحقيقة الجوهرية ظهر بالضرورة نظام اقتصادي جديد » اهـ .

- ٥ -

إن أبرز اختلاف بين مفهوم الحضارة في الفكر الاسلامي والفكر الغربي يقوم على تفسير «التقدم». فالغرب يرى التقدم مادياً خالصاً، بينما يرى الاسلام أن التقدم معنوي ومادي، وأنه إنساني أصلاً وتوحيدي أساساً. فكل تقدم في مفهوم الاسلام يجب أن يقوم على التحرر من عبودية غير الله، ومن عبادة ما سوى الله فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه. والأصل في الوحدانية هو التحرر من عبودية غير الله، ومن كل سلطان غير سلطان الله فلا تفرقة بين الناس[١]. وأن تجري حركة التقدم كلها في إطار أخلاقي.

أما مفهوم الغرب للحضارة فيختلف عن ذلك اختلافاً واضحاً فهو يرتبط بالعلوم والمعطيات المادية وحدها، موجهة لخدمة الانسان ورفاهيته دون تقدير لإطار توحيد الله أو استهداف الغاية التي رسمها لبناء الحياة وحركة المجتمع داخل هذا الإطار.

ولذلك فإن خطأ المنهج العلمي الغربي الوافد يتمثل في أمرين: في عجزه عن تفسير الحضارة الاسلامية في نطاق معنوياتها التي يعجز عن تصورها، فهو يحاكمها في حدود مادياته. والأمر الآخر في هذه الدعوة التي يبثها في المسلمين والعرب حين يدعوهم الى اتخاذ الحضارة الغربية أسلوباً للعيش كوسيلة للوصول

---

١ - دكتور يوسف العش من بحثه عن روح الحضارة الاسلامية.

بهم الى ما وصلت إليه الأمم الغربية. وهي دعوى استشرت كثيراً ، وحاول أصحابها ومن تابعهم اذاعتها وتوسيع رقعة انتشارها. وقد جرت محاولات ترمي الى نقل الحضارة الغربية ، حلوها ومرها ، ما يحمد منها وما يعاب . وعمدت تمويهات كثيرة الى تصوير اقتباس الحضارة وكأنـــه أمر لا صلة له بالاسلام أو بالدين . واندفع الكثيرون الى تبرير الحضارة على وضعها الحالي ، وعمد آخرون الى تأويل النصوص لتبرير هذه الحضارة . بل لقد جرت محاولات لاستخدام النصوص الفقهية في خدمة هذا الهدف .

والواقع أنه بالرغم من سيطرة الحضارة الغربية على العالم كله . فإن الحضارة الاسلامية ما تزال قائمة بجذورها العريقة في المجتمع الاسلامي . وما تزال قيمها ومفاهيمها هي الحاكمة للنفوس والعقول والأذواق ، وهي بذاتيتها الخاصة لا تسقط أبداً أمام استشراء ظاهرة الحضارة الغربية وامتداد مظاهرها المادية الى كل مكان . والمسلمون يفرقون بين هذه المظاهر المادية وبين أسلوب العيش ومنهج الفكر ، فهذه المظاهر المـــادية من التحضر لا يرفضها الاسلام ولا يعارضها. وإنما يرفض محاولة إخراج المسلمين من أسلوب عيشهم ومنهج فكرهم. فالحضارة الغربية تقوم على فكر يؤمن بالربا ونسبية الأخلاق والتحرر من القيم الاجتماعية والنفسية، ويدفع الحياة الى الصراع والحرب ويجعل منجزات الحضارة قوى باغية للتدمير والتسلط . وقد ارتبطت الحضارة الغربية منذ يومها الأول بالاستعمار ونفوذه الذي سيطر على العالم الاسلامي كله وحاول إخراجه من مقومات فكره وعقيدته .

ومن هنا فإن مفهوم الحضارة الغربية يتعارض تعارضاً تامـــاً مع مفهوم الحضارة الاسلامية الذي يقوم أساساً على الاخلاق ، والذي يحدد أسلوبه ومنهجه في أمر المـــرأة والمجتمع وقضايا الرفاهية والترف ورجولة الرجـل وأنوثة المرأة وبناء الرجال للجهاد والمقاومة والربط الواضح بين الزينة وبين المسؤولية الفردية . وله مواقفه الواضحة في أرجـــاء الفراغ والخمر والزنا

ومفاهيم التحلل وغيرها مما يرتبط ارتباطاً أساسياً بالانسان من حيث هو بنية متكاملة .

والمنهج العلمي الاسلامي يفرق بين الحضارة وبين العلم . أما العلم فهو تلك المعطيات المادية التي تتحرك في إطار الأخلاق والعقيدة ، وتعمل في خدمة الانسان دون ما أن تكون عامل بغي أو ظلم أو تحكم أو إبادة .

فالاسلام يدير معطيات العلم في إطار التقوى والرحمة ، والأخوة الانسانية . وهو حين يقبل العلم الذي شارك في بناء قاعدته التجريبية أساساً، فهو يقف من أسلوب العيش الغربي ومنهج الفكر الغربي موقفاً مختلفاً . ذلك أن هذا البناء الفكري والاجتماعي يقوم على وثنية الترف والتحلل والرفاهية . بينما يقوم البناء الاجتماعي في الاسلام على أساس الصمود والقوة والقدرة الدائمة على المواجهة والتأهب للجهاد وحماية الانسان من الانهيار تحت ضربات الترف والتحلل والانحلال .

ومن هنا كانت يقظة الفكر الاسلامي وتنبهه للهدف الذي يختفي وراء المنهج العلمي الغربي الوافد . وهو محاولة صياغة عقلية الشعوب الاسلامية وأسلوب تفكيرها ونظرتها الى طبائع الأشياء في القوالب الغربية .

واننا في الواقع لسنا في حاجة الى أن تصرعنا هذه الحضارة . وليس من مصلحتنا أن نذوب في خضمها ، وأن تمزقنا باتجاهاتها الجماعية والفردية والوجودية ، وان علينا أن نتحرك من داخل إطار فكرها « وعلينا أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التي جرفت الشعوب الاسلامية فأبعدتها عن مفهوم التوحيد ومنهج القرآن وزعامة النبي » .

وان أخطر مفهوم للحضارة يواجهه الفكر الاسلامي هو محاولة إخراج الحياة

من تقدير الله وتعريفه باسم الانتصار على الطبيعة ، والغفلة عن صاحب القوانين التي يزدهي الانسان باكتشافها . ويظن أنه عرف مفاتيح الكون بينما إرادة الله قائمة وراء ذلك كله ، وفوق ذلك كله .

ولا ريب أن كل الغايات التي يطمح الانسان الى بلوغها عن طريق التقدم والعلم والمدنية قد قدمها له الاسلام ، ولا يزال يقدمها . وأبرزها العمران والعدل والحرية والاخوة الانسانية .

أما الحضارة الغربية ، فبالرغم من عطائها العلمي في مجال الماديات ، فإنها عاجزة تماماً عن أن تعطي شيئاً للنفس البشرية .

يقول العلامة محمد أسد[1] : ان المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الانسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية ، لقد تخلت عن آدابها السابقة دون أن تتمكن من أن تخرج من نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظرياً يخضع نفسه للعقل . وبالرغم مما حققته من تقدم ثقافي فإنها لم تستطع حتى الآن أن تتغلب على استعداد الانسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي أو نداء للحرب .

« لقد رفعت المدنية الغربية (منظمة) التقنية الى فن سامٍ ، ومع ذلك فإن الأمم الغربية تدلل كل يوم على عجزها المطلق عن السيطرة على القوى التي أوجدها علماؤها الرياضيون ، فالأمم الغربية قد وصلت الآن الى درجة أصبحت معها الامكانيات العلمية غير المحدودة تصاحب الفوضى العلمية . وإذا كان الغربي يفتقر الى كل توجيه ديني صادق ، فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبياً من ضياء

---

١ – الطريق الى الاسلام .

المعرفة التي تسلبه علومه ، وهي لا شك عظيمة ـ فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً » ومع ذلك فالغربيون مــع تعاظم عماهم يقتنعون بأن مدنيتهم هي التي ستجلب النور والسعادة للعالم . ومن هذا المنطلق فهم لا يسمحون للدين بأن يؤثر في الحياة العملية . وقد بدأوا بدلاً من الدين يبشرون بالرسالة المادية (لطريقة الحياة الغربية) التي تؤمن بــأن جميع المشاكل الانسانية يمكن حلها في المصانع والمختبرات ومكاتب الاحصاء .

- ٦ -

يقرر الباحثون المصنفون أن البشرية لم تعرف قبل الاسلام ديناً سماوياً أو غير سماوي قد قام على حضارة بالمعنى الكامل لكلمة حضارة ، ليست هنـاك حضارة يهودية قامت على الديانة اليهودية ، وإنما هناك ثقافة يهودية . ولم يكن هناك حضارة مسيحية ، بل ثقافة مسيحية . والفارق بـين الثقافة والحضارة ، أن الأولى محلية محدودة والثانية واسعة شاملة .

ومن أهم خصائص الحضارة الاسلامية بوجه عام اتصال العقيدة بالنظـام ، والنظام بالعقيدة . وكل فصل بينهما إفساد لخصائص هذه الحضارة ، والجمع بين الدنيا والدين بعيداً عن الشهوات الدنيوية وعن الرهبانية على حدّ سواء. لا تحتقر الأمور الدنيوية . ولا تجافي الأمور الروحية وتجمع بينهما في مثل أعلى رفيع .

وتتمثل الحضارة الاسلامية في شيء واحد هام . وهي أنها ربطت العلم بالدين وربطت السياسة بالخلق . والقيم الخلقية هي عماد بناء الحضارات ، فإذا انهارت انهارت الحضارة . وهي مصدر التفوق في مختلف مجـالات السياسة والاقتصاد . وتتمثل القيم الخلقية في الصدق والمساواة والتواصي بالحـق وتطبيق العدل على المسلم وغير المسلم وعلى الغني والفقير والصديق والعدو . وان سقوط الأخلاق هو أول أسباب سقوط الحضارات التي لا ينقذها ازدهـار القوة العسكرية . فالانحلال الخلقي يعرض النسيج الاجتماعي للخطر .

ومن مفاهيم الاسلام في الحضارة أن الأمم تمر بمراحل القوة والضعف ، فليس هناك أمة أو حضارة تملك السيطرة أو الغلبة الدائمتين . ولقد ضعفت الحضارة الاسلامية لأنها تخلفت عن مقوماتها . ولكنها لم تمت لأن وجودها مرتبط بفكر أصيل محكم، مرتبط بالفطرة والحق، ما يزال حياً متفاعلاً في الوجود البشري ، فضلاً عن أن كثيراً من قيمها ما زالت تنمو في داخل الحضارة الغربية .

والصدارة والتخلف في الحضارات له قانونه في الاسلام (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) .

- ٧ -

إن أبرز ما يمثل الحضارة الاسلامية وهو ما عجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن استيعابه . هو : « ذاتية الحضارة الاسلامية » . فقد [١] قامت الحضارات المختلفة ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضي بمـا حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر التي استغرقت في تبلورها الى شكلها الخاص وكيانها المحـدد آماداً طويـلة من الزمن ، بينما انفردت حضارة الاسلام وحدها بانبعاثها الى الحياة دون سابق عهد أو انتظار . وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة . فقامت في مجتمع واضح المعـالم ، له نظرته الخاصة الى الحياة ، وله نطاقه التشريعي الكامل ، وله منهجه المحدد لعلاقـات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع . ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي ، ولا وليد تيارات فكرية متوارثة . ولكن هذه الحضارة كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الحكيم ، وكان مردها الى رجل فذّ في التاريخ هو محمد رسول الله ﷺ . فلقد أدرك الذين آمنوا بالاسلام واتبعوا محمداً وصدقوا بالقرآن ، فاتخذوه قاعـدة حياتهم أن الدين الجديد الذي جاءهم بـه القرآن يتطلب منهم هجرة الى مـا جاءهم به عما توارثوه من عقائد في الحياة ، وما ألفوه من مناهج السير فيها ، فكان قبولهم لما جاء به بداية حدث جديد في حياة البشر وتاريخهم، إذ أنهم أدركوا أن الاسلام، وقد جاء نظاماً شاملاً للحياة

---

١ - من نص للعلامة محمد أسد .

قد افتتح حقًّا حضارة جديدة ، وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات أو الارهاص بها. فتبينوا كما تبين من جاء بعدهم أن مبعث رسول الله كان إيذاناً ببدء عهد جديد، بكل ما ينطوي عليه هذا البدء من حقائق ومعانٍ.

ولن نفهم من هذا أن الاسلام قد قطع كل صلة بين حضارته وبين الماضي . فذلك فهم لا يقبله العقل ولا يستسيغه ، لأن كل كائن عضوي لا يمكن أن يوجد دون أسلاف وآباء . فلن ندهش إذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله – على ما هو عليه من حدة في النظر الى الكون والحياة ، ومن استحداث نظام اجتماعي كامل – يتضمن كثيراً مما جاءت به الأديان ، ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التي كانت لدى من سلف قبله، ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الاسلام ، بل لقد كان القرآن الكريم ذاته أصرح ما يكون اعترافاً بها وتسليماً[1] .

---

١ – لعله قد غاب عن العلامة محمد أسد أن كل الفضائل التي اعترف بها الاسلام كانت من تراث الحنيفية الابراهيمية السمحة .

- ٨ -

ويعجز المنهج العلمي الغربي الوافد عن أن ينصف الحقيقة التاريخية الأساسية في عطاء الحضارة الاسلامية للحضارة البشرية وأثرها في الأمم ، ولا حتى مجرد الاعتراف بالأثر الذي تركه الاسلام حين هز الفكر الغربي اللاهوتي كله وحرره من عبادة الصور والطقوس وأعطاه التجربة . وكان اليونان يأخذون بالقياس . وكان الاسلام أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، وأدخل مفاهيم الفروسية والمروءة والنخوة ونصرة الضعيف ونجدة الملهوف . ولقد ظل المنهج العلمي الغربي الوافد يقف عند حدود الهوى الغربي الغالب إلا قلة قليلة ممن خرجوا على هذا المنهج . واعترفوا بأن مراكز الثقافة في الغرب مثلاً « كانت أبراجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان الذين كانوا يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشفوا بخشوع كتب الأقدمين النفيسة . فيكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة . وظلت همجية أوربا زمناً طويلاً ، ولم يبن فيها بعض الميل الى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر على الخصوص . فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ولّوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم[1] . وحين يعجز (المنهج العلمي الغربي الوافد) عن الاعتراف بالواقع التاريخي الذي تثبته الوثائق والأسانيد

---

١ - عن نص لجوستاف لوبون : حضارة العرب .

ويغضي عنه، وهو حق قائم، يحاول من ناحية أخرى أن يذهب الى التمويه البالغ في التعمية عن الفارق بين الفكرة والتطبيق ، ذلك أن من أخطر ما ذهب إليه المنهج العلمي الغربي الوافد هو محاولته الاستناد في محاكمة الاسلام الى موقف المسلمين والى المجتمع الاسلامي في انحرافه عن مفهوم الاسلام . ولا ريب أن المنهج العلمي الغربي الوافد لو أقام دعائمه على غير الهوى لاعترف بالفضل ولفرق تماماً بين « رأي الاسلام في شيء وموقف المسلمين منه » ولعزل تماماً قوانين الاسلام ومعطياته عن تطبيقات المسلمين .

- ٩ -

وإذا كان المنهج العلمي الغربي الوافد يقف مثل هــــذا الموقف من الجحود والتجاوز للحقيقة العلمية في شأن الحضارة الاسلامية ، فإنه يصل الى غـــاية الإفراط والهوى في شأن الحضارة الغربية، في محاولة للدعوة الى اصطناع أسلوب العيش وعقائد الفكر الغربي التي تقوم عليها الحضارة وهي : فصـــل الدين عن الدولة، ونسبية الأخلاق، وفصل العلم عن الضمير ، وتأكيد الجوانب المـــادية والحسية ، والاغضــاء والسخرية من الجوانب الروحية والدينية . وحـــين يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد وضع الحضارة المعاصرة أمام المسلمين على أنها السبيل الوحيد لتحررهم وتفوقهم لا يقدم لهم منهـــا إلا الجوانب الاستهلاكية والمتصلة بالغرائز والأهواء ، ويحجب عنهم تماماً الجوانب العلمية والتكنولوجية التي – هي وحدها – حاجتهم من هذه الحضارة .

ويذهب المنهج العلمي الغربي الوافد في الدفاع عن الحضارة وهي في أزمتها الكبرى ودور احتضارها بعد أن احتواها الفكر التلمودي اليهودي، وصرعتها المادية ، وفقدت توازنهـــا ، وأصبحت صورة قاسية من صور القلق والحيرة الذهنية والتمزق النفسي وفقدان الهدف حيث « تحول المجتمع الى قطيع يركض بلا هدف كما تركض القطعان » .

وحيث يقف المنهج العلمي الغربي الوافـــد إزاء الأزمة يعجز عن تفسيرها

تفسيراً صحيحاً ، شأنه في ذلك شأنه في تفسير التاريخ (لاهوتياً ومادياً وجغرافياً وجنسياً) كذلك موقفه من الحضارة . يقول السيد خوري : لقد حسب هيجل أن أزمة العالم سياسية فحاول حلها بالدعوة الى الدولة المثلى ، واعتقد ماركس أنها اقتصادية فحاول حلها بالدعوة الى تحقيق النظام الاشتراكي ، أما توينبي فالأزمة في نظره روحية .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي ، وهو الذي يقوم على أساس المنهج العلمي الأصيل الجامع المتكامل ، ليقف في حذر إزاء كل هذه الدعوات التي تدعوه الى الانصهار في حضارة الغرب وفكره . وذلك لأن له موقفه الصريح الواضح من هذه الحضارة ، كما أن له موقفه الصريح الراضح من كل القيم .

الباب الثالث

أخطار اللغة والأدب في الفن

أولاً ــ مفاهيم اللغة

ثانياً ــ مفاهيم الأَدب

ثالثاً ــ مفاهيم الفن

الفصل الأول

أخطاء اللغة

إن المنهج العلمي الغربي حين أقام علم اللغات افترض فيه قومية اللغة وتبعيتها للأمة ، كما خضع لمفهوم التطور المطلق الذي يخضع له الفكر الغربي كله الذي فرض عليه الاعتراف بتغيير أسلوب اللغة بين فترة وفترة ، بحيث تكون اللغة دائماً هي لغة العامة . ثم تدخل اللغة الفصحى القديمة فتقرأ آثارها بواسطة القاموس .

ومن هنا فإن اللغات الأوربية المتداولة اليوم لا يزيد عمرها عن ثلثمائة عام . وان الانتاج السابق لذلك أصبح غير ميسور تداوله أو دراسته إلا عن طريق الأكاديميات والمعاهد باعتباره تراثاً . ومن هنا جاء تفسير كلمة تراث بأنه الشيء الميت الدارس الذي يرى فيه الرأي من حيث صلاحية بعضه أو فساده .

وتلك الخاصية الأصيلة للغات التي قام عليها علم اللغات تتعارض مع طبيعة اللغة العربية وتاريخها وحركة نموها . ذلك أن اللغة العربية منذ ارتبطت بالقرآن الكريم كتاب الله الذي نزل بها للعالمين ، تغير موقفها تماماً من الخضوع للمقاييس العامة أي خضوعها للأمة أو خضوعها للتطور المطلق .

ومن هنا فقد نمت اللغة العربية دون أن تفقد نتاجها ، ولم تتحول عنه الى الدرجة التي يمكن أن يقال معها إن امرأ القيس لو عاد الى الوجود الآن لفهم العربية كما كان يفهمها قبل خمسة عشر قرناً . وإن أعظم آثار الأدب العربي وأبعدها في القِدم يمكن قراءتها دون قاموس مساعد ، بينما شكسبير وألفريد دي موسيه وغيرهما لا يقرآن إلا بعون من تفسير المصطلحات .

ومن هنا فإن المنهج العلمي الغربي الوافد حين طرح مفاهيمه في أفق الفكر الاسلامي والثقافة العربية وجد عسراً شديداً ، وعجزاً عن تفهم أبعاد اللغة العربية في التاريخ وفي المجتمع الاسلامي، فإذا أضفنا الى ذلك أن اللغة العربية ليست لغة قومية بالمعنى الحرفي، وأنها من حيث هي لغة أمة هي الأمة العربية، هي في نفس الوقت « لغـــة فكر وثقافة ودين وعبادة » السبعمائة مليون من المسلمين ، أحسسنا بمدى أبعاد اللغة العربية من حيث إنتاجها واستعمالها ، فإذا عرفنا أن إنتاجها لا يخضع لمفهوم التراث على النحو الذي تعرفه اللغـــات الغربية من حيث انفصاله عن اللغة المستعملة في هـــذا العصر ، وجدنا تبايناً عاماً وفروقاً عديدة تجعل من اليسير تطبيق المنهج العلمي الغربي الوافد على اللغة العربية .

* * *

غير أن أصحاب المنهج العلمي الغربي الوافد من حيث انهـــم عجزوا عن استيعاب اللغة العربية ومعرفة وجوه تميزها عن اللغات ، فهم أيضاً لم يكونوا صادقي النية في التعرف . وإنما كانوا على هوى ومطمع وخصومة في محاولة هدمها وتحطيمها وإعلاء العامية عليها . فمنذ اليوم الأول لاتصالهم باللغة العربية كانوا على حرص شديد على العاميات ودراستها ، ومحاولة إيجاد جذور لها من الأمثلة

والأغاني حتى ليقولون ان العامية لغـــة لها تاريخ وتراث ، وانها سبقت العربية أو حاذتها . وقد اختلقوا لذلك تاريخاً وقصة لا تخضع للحقائق العلمية أو الوقائع التاريخية . ولكنها صدرت عن هوىً شديد الكراهية للغة العربية : لغة القرآن . ومن ثم تشعبت أبحاث المنهج العلمي الغربي الوافد فتحدثت عن صعوبة اللغة ، وقصور اللغة عن ألفاظ الحضارة ، وبعد الفصحى عن التعبير عن المشاعر الشعبية. الى غير ذلك من شبهات واتهامات لا تخضع للبحث، ولا تثبت أمام الحق .

- ٢ -

حرص المنهج العلمي الغربي الوافد على إجراء المقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية . والمقارنة من الناحية العلمية غير صحيحة ، لأنها مقارنة بين لغة حية عاملة ما تزال تسيطر ولغة ميتة انتهى وجودها الفعلي منذ أربعمائة عـــام أو يزيد .

فاللغة اللاتينية لغة أمة وقد انتهت بانتهاء أمتها ، أما العربية فهي لغة أمة حية ، وهي الى ذلك لغة فكر لأمم وشعوب لا تنتهي. فهي لغة ثقافتهم ودينهم وصلاتهم .

أما اللغة اللاتينية فإنها لغة تاريخية تدرس اليوم من أجل إحيـــاء نصوص الأدب اللاتيني القـــديم . يقول الأب صالحاني في معارضة مفاهيم المنهج العلمي الغربي الوافد في المقارنة بين العربية واللاتينية : إن دعوى اتخاذ اللغـــة العربية العامية واسطة للانشاء. وذلك بتحويل العناية إليها، والعمل على إحيائها ونهضتها، هي دعوى مستغربة لم تكن منتظرة من ناطق بالضـــاد ، ومن براهينه الواهية ذكره اللغات الأوربية المشتقة من اللاتينية ومن غيرها . فأراد أن يقارن العربية بها وشتان بين خمر وخل ، فإن اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت كلغة للكنيسة والعلماء . أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ، ولم تكن

اللاتينية لغته الأصلية ، وإنما كانت أخرى : كالسلتية والسكسونية والجرمانية الهندية اقترنت بلغة اليونان . فلم تثبت تلك اللهجات إلاّ بتمادي الزمان وبتنوع الكتبة وفتح المدارس ، وتأليف الكتب ، وساعد الشعوب في ذلك انفرادهم في أصقاع متنائية ، ودول مستقلة . وعلى كل حال فليس من شبه بين اللغات المشتقة من اللاتينية التي كما قلنا كانت لغة ميتة . وبين اللغة العربية الفصيحة التي هي لغة حية منذ أربعة عشر قرناً لم تحط اللهجات العامية الكثيرة من قدرها مع شيوعها . ولو أمكنها أن تعزلها عن مرتبتها لفعلت ، ولكانت اللغات العامية سائدة بين الشعب لا تزاحمها المدارس والمطابع والأدباء بتآليفهم ومنشوراتهم العلمية المكتوبة باللغة الفصيحة . ا هـ .

- ٣ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد ثلاث محاولات في سبيل مواجهة اللغة العربية والإدالة منها :

أولاً – إعلاء شأن الترجمة من اللغات الأجنبية ، وتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية .

ثانياً – إعلاء شأن العاميات .

ثالثاً – دراسة اللهجات بأسلوب لغات أخرى . وليس من عيب في دراسة هذا كله في إطار الفهم الصحيح للغة العربية ، والتقدير الكامل لمكانتها العالمية ، ودورها البشري والانساني في الفكر والمجتمع ، أما اذا انفصلت الدراسات عن هذا الفهم فإنها تكون بمثابة حرب للغة العربية وانتزاع لجذورها وانتقاص لمكانتها ، ذلك لأن الترجمة من اللغات الغربية إنما تستهدف طرح فكر وأسلوب في فكر ، في ذات الوقت يكون بعيد التأثير في العقلية العربية والنفس المسلمة .

وموقفنا من أدب اللغات يتركز في أمرين: أمر إيجابي، نستطيع أن ننتفع به، وهذا يجب أن نصهره في دائرة فكرنا وأن نسيغه في محيط لغتنا، لا أن يظل قائماً بنفسه يمثل وجهة نظر مختلفة أو معارضة . وأمر يتصل بنا من حيث الدراسة أو البحث ، وهذا يحتاج الى أن نرد عليه ، وأن نكشف أخطاءه ونفند شبهاته .

أمـــا العاميات فهي أسلوب آخر من أساليب القضاء على اللغة العربية الفصحى ، وتوسيع نطاق العامية في اللسان بدلاً من ترقية هذا اللسان ليعمل مع الفصحى .

أما دراسة اللهجات فهي ليست في الحقيقة إلا محاولة لتقنين هذه العاميات وتصويرها بصورة العلم أو بصورة اللغة التي لهـــا خصائص تدرس وتستقصى . فضلاً عن أن المنهج الذي يستعمل في دراسة اللهجات ليس منهجاً عربياً . وإنما يفكر هؤلاء الباحثون للعربية بمفهوم اللغة الانجليزية . ويراد إلبـــاس العربية أثواباً لم تقدر على مقياسها ولم تطابق مفاهيمها وأصولها[1] .

---

١ - من نص للدكتور محمد محمد حسين .

- ٤ -

عجز المنهج العلمي الغربي الوافد تحت تأثير تشكيله وتكوينه. ومطامحه أن يفهم كثيراً من الحقائق عن اللغة العربية ، ومن أهم هذه الحقائق أنه ليس هناك لغتان : فصحى وعامية وإنما هناك لغة واحدة هي اللغة العربية ، ولهجة هي العامية . وان الفصحى هي اللغة المشتركة بين العرب جميعاً ، وانها هي القوة القادرة على المحافظة على بقاء المستوى البياني بين القرآن وبين اللغة العربية ، وان أخطر الأخطار أن يمس هذا المستوى أو تجري محاولة الانتقاص منه . والمعروف أن العامية مرحلية . وأن الفصحى هي الامتداد الطبيعي للفكر الاسلامي والثقافة العربية . وأن الروائع لا تكتب إلا بالفصحى ، وأن العامية إقليمية دائماً . بل أكثر من إقليمية ، بحيث يكون لكل بلد لهجته ، فنرى في مصر عدداً من اللهجات وكذلك في سوريا ولبنان والعراق والمغرب .

ولقد يركز المنهج العلمي الغربي الوافد على اللهجات العامية ويدرسها بعناية محاولاً أن ينفخ فيها لتكون لغة إقليمية فيتحقق بذلك اندحار اللغة العربية . ولكن المحاولة مضللة وغير علمية ، ولقد سجلت الأخبار كثيراً من بعثات أجنبية الى مختلف الأقطار لدراسة لهجاتها . وكيف أن عدداً من المستشرقين قد انبثوا هنا وهناك من أجل هذا الغرض .

فالدكتور سرجنت «يتحمل رياح السموم اللافحة ويكافح المتاعب في الصحارى

والقفار من أجـــل جمع القصائد الشعبية والأمثال العامية في حضرموت . والدكتور مانسنج أقام في مصر عشرين عـاماً ليجمع الأمثال العامية المصرية ، ويتجه الى البوادي في بلاد العرب لتسجيل الأغاني والأزجال والمواويل . هذا في حاضرنا هذا[1] . أما في الماضي فقد عمل في هذا المجـــال (سبيتا وفولرس وديلكوكس ووليمور) وكانوا يكتبون هذه الأمثال على أطراف قمصانهم حتى لا ينتبه إليهم الناس فيمتنعوا عن محادثتهم ، وقد عمدوا الى جمـع هذه الآثار في محاولة للتركيز على شبهة مضللة بأن هناك لغة عامية غير اللغة العربية وأنهـــا سابقة لها .

لقد عجزت كل هذه المحاولات أن تجعل من اللهجة العـــامية أو اللهجات العامية في البلاد العربية شيئاً . بل إن هذه الآثار التي جمعوها قـد كشفت عن عجز العامية عن معالجة الموضوعات الرفيعة[2] . ولقد كشف كثير من الباحثين عن خطـــإ الاحتمال الذي يستهدفه المنهج العلمي الغربي الوافد من التركيز على اللهجات العامية بحيث يطابق بين العربية واللاتينية .

قال الدكتور علي عبد الواحد وافي : ليس من الممكن أن تصل اللهجات العامية في المستقبل الى ما وصلت إليه اللهجات المتشعبة من اللاتينية فتصبح كل لهجة منها لغة مستقلة مكتملة التكوين صالحة للاستخدام في مختلف شؤون التعبير والكتابة . ذلك لأن اللهجات المتشعبة من اللاتينية قد سارت في طريق النموّ والرقيّ لما كانت تمتصه من أمها اللاتينية من حين لآخر ، فضلاً عن الجهود التي بذلت لتوسيع نطاقها وتكملة بعضها وتهذيبها من نواحي المفردات والقواعد والأساليب ، وتدوين آثارها ، واستخدامها في الترجمة والتأليف ، على حين أن

---

١ – مجلة قافلة الزيت – رجب ١٣٧٨ هـ .

٢ – دكتورة نفوسة : كتابها تاريخ الدعوة الى العامية .

لهجاتنا العامية قد جمدت على أوضاعها الساذجة . ولم يبد على أيّ لهجة منها جنوح الى مفارقة هذه الأوضاع . وقد وجد العالم العربي ما يبغيه في اللغة العربية الفصحى[1] .

ولقد أشار أكثر من باحث الى أن العامية لا تصلح أداة لأكثر من التخاطب في الشؤون العادية . فهل يجوز اتخاذها أداة للكتابة وما يطلب منها من أغراض البيان . وهي فضلاً عن قصورها تختلف باختلاف الأقطار في الأقاليم المتقاربة . فلهذا لا تصلح أن تكون لغة عامة[2] .

---

١ – الرسالة : ابريل ١٩٦٥ .

٢ – من نص : لإبراهيم عبد القادر المازني .

- ٥ -

إن المنهج العلمي الغربي الوافد يتجاوز عن حقائق كثيرة ويحجبها بحيث يعجز عن معرفة خصائصها وابعاد تاريخها . ومن ثم فإن أحكامه تكون قاصرة عن الوصول الى الحقيقة . ومن هذه الحقـائق التي يتجاهلها المنهج العلمي الغربي الوافد . أن اللغة العربية من أضخم اللغات ثروة وأصواتاً ومقاطع وحروفاً وتعبيرات ، حتى أنها تفوق اللغة الانجليزية في عدد الأصوات إذ بها (٢٨ حرفاً) غير مكررة في حين أن في اللغة الانجليزية (٢٦ حرفاً) منها مكرر .

ومن خصائصها أن جميع مشتقاتها تقبل التصريف إلا ما ندر ، وهي من الغنى بحيث تتألف من ثمانين ألف مـادة المستعمل منها عشرة آلاف فقط ، والمهجور منها سبعون ألفاً ، وتمتاز بضروب من النمو : منها الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية . وللفعل العربي صيغ تبلـغ الإثني عشر صيغة كل منها تختص بمعنى مختلف . وهو في نفس الوقت متصل بمعنى الفعل الأصلي .

والعربية تكتب كما تقرأ ، وفي لغات أوربا تختلف لغـة الكلام عن لغة الكتابة ، وهي لم تتراجع في أرض دخلتها ، وقد تغلبت على كل اللغات التي سبقتها . وفي نفس الوقت أثرت في كل قواميس اللغات الغربية والشرقية بحيث لم تبق لغة أوربية واحدة لم يصلها شيء من اللسان العربي المتين ، حتى اللغة اللاتينية الأم الكبرى فقد صارت وعاءً لنقل المفردات العربية . وقد امتازت

اللغة العربية بمزية خالدة ضمنت لها البقاء ألا وهي نزول القرآن الكريم بها . ولقد ماتت أمم كثيرة وماتت لغاتها كاللاتينية والسريانية والآشورية ، أما اللغة العربية ، لغة الأمة العربية من أواسط آسيا الى جبال البرانس فإنها ثبتت للزمن، ولم تثبت لغة أخرى في وجه لغة القرآن الكريم .

ولقد امتازت اللغة العربية بأنها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية والجرمانية . وليس لتعدد الكلمات في الاسم الواحد ما يعني الترادف ، بل إن لكل لفظ دلالته . وتختلف الدلالات باختلاف الألفاظ .

ولولا الاسلام لظلت اللغة العربية محصورة في الجزيرة العربية . ولقد كان للقرآن أكبر الأثر في المحافظة على وحدتها . وقد رفع من قدرها حتى صارت إحدى اللغات الرئيسية في العالم .

- ٦ -

ومن أخطاء المنهج العلمي الغربي الوافـــد دعوته الى كتابة « العربية » بالحروف اللاتينية وهي دعوة ألـحّ عليها الغربيون إلحاحاً شديداً وأغروا بها إغراءً شديداً ودفعوا أسمـــاء لامعة كبيرة الى احتضانها ، وما حسبوا أنها دعوة معارضة لطبيعة الأشياء . وأن الذوق العربي الاسلامي – الذي بنـــاه القرآن باللغة العربية – معارض لذلك ومخالف له . إن الحروف العربية ضرورة لازمة لا يمكن العدول عنها ، فكما أن الحروف السامية وضعت موافقة لطبيعة هذه اللغات . فكذلك الخط العربي وضع موافقاً لطبيعة العربية ، فالحروف لها أهمية كبيرة في اللغة العربية . لأن الألفاظ فيها ثلاثة : المادة في الغالب أعني ذات ثلاثة حروف بدون اختيار الحركات والمعنى ، والأساس محصور في تلك الحروف الثلاثة ، أما في اللغات الأجنبية فتشتمل المادة على حروف وحركات بدون اعتبار عدد الحروف . فلفظ كتب مثـــلاً يكتب بالخط العربي ثلاثة حروف بثلاثة حركات . ولكنه بالخط اللاتيني لا بـــد أن يكتب بشبه حروف . والحروف اللاتينية مبنية على أساس أن صوت الحروف واحد غير متبدل ، أما في العربية فهنـــاك أصوات لكل حرف ، ولا سيا فيا يختص بالحركات . فمادة الفعل الثلاثي تظهر جيداً بالحروف العربية ، لأن الحركات لا تقرأ بالكتابة ومع تغيير الأصوات واللهجات العربية على حسب الأشخاص أو على حسب الأفكار ، ثم إنه ليس هناك معادلة بين الحروف العربية واللاتينية

مع الحروف مثلاً في الألمانية . والروسية قريبـــة الشبه باللاتينية . أما في العربية فوجه الشبه بعيد جداً ، وإذا تغير الخط العربي بالخط اللاتيني أصبحت النتيجة خطيرة للغاية فكيف يكون مصير الكنوز القيمة التي خلفتها الآداب الاسلامية في الدين والفقه والفلسفة والعلوم والآداب والفنون وغيرها ، وكلها مدونة بالخط العربي[1] .

١ – من الأبحاث المقارنة لحروف العربية واللاتينية .

- ٧ -

هناك دعوات أخرى يرددها اتباع المنهج العلمي الغربي الوافد تحمل أسماء : « تطوير اللغة ، تطوير النحو » ، وهناك من يفسر هذا فيقول إنــه تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية لا العكس الذي هو من الأمور الطبيعية . وهذه دعوة مريبة يختلف أهلها في تسميتها . ولكنهم لا يختلفون في حقيقتها فهم يسمونها تارة تهذيباً . وتارة اصلاحاً وتارة تجديداً ، ولكنهم في كل الأحوال وعلى اختلاف الأسماء يعنون شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين والأصول التي صانت اللغة خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد . فكأنما القرآن قد أنزل فينا اليوم ، وكأن شعراء العربية وفقهاءها وفلاسفتها وكتّابهــا وأطباءها ورياضييها وطبيعييها وكيائييها على اختلاف أزمانهم قد كتبوا ما كتبوا وألفوا ما ألفوا في الأمس القريب ، وكأنما المتنبي أو البُحتُري يخاطب جيلنا ، لا تميز بينه وبين شاعر معاصر كالبارودي أو شوقي أو حافظ . وهذه ميزة مَنّ الله بها علينا ولم تحظ بمثلها أمة من الأمم . فإذا تحللنا من القوانين والأصول التي صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة تبلبلت الألسن ، وأضاف كل يوم جديد يطلع على الناس مسافة جديدة توسع الخلف بين المختلفين حتى يصبح بين الشامي والمغربي مثل ما بين الإيطالي والإسباني ، وتصبح عربية الغد شيئاً يختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الأول بل عربية اليوم والأمس القريب ، وتصبح قراءة القرآن والتراث العربي والاسلامي كله متعذرة على غير المتخصصين من دارسي الآثار

ومفسري الطلاسم . عند ذلك يصبح كل جهد سياسي أو حزبي أو أدبي مما يبذل اليوم من جمع شمل العرب عبثاً لا طائل تحته [1] .

ولا ريب أن الدعوة الى إبطال النحو وقواعد الإعراب أو الى تطوير النحو هي مثل دعوة تطوير اللغة شبهة وسوء فهم لخصائص العربية .

---

١ ـ دكتور محمد محمد حسين : مجلة الأزهر ١٩٥٦ م .

- ٨ -

ومن أخطاء المنهج العلمي الغربي الوافد محاولته إيقاف نمو اللغة العربية والتمكين للغات الأجنبية . فقد واجهت اللغة العربية منذ اتسع النفوذ الأجنبي للعالم الاسلامي مقاومة بعيدة الأثر من اللغتين : الفرنسية والانجليزية في أنحاء العالم الاسلامي، والهولندية في أندونيسيا. فقد قطع الاستعمار الغربي الطريق على توسع العربية بين مسلمي العالم حيث كان من الطبيعي أن تمتد بامتداد الاسلام الى مختلف المناطق بحسبانها لغة الثقافة والدين . وقـد استطاع النفوذ السياسي الاستعماري إيصال كثير من اللغات الى الحروف اللاتينية ، وفي مقدمتها اللغة الأندونيسية واللغة التركية ، وتوسيع نطاق لغته وجعلها اللغة الرئيسية كما فعل في الهند والباكستان وفي قلب أفريقيا. وكذلك تجميد اللغات الاسلامية القادرة على النمو كالأردية في الهند مع الحملة عليها . وتحريض الهنود على اتخاذ لغـة أخرى . كما عمد الى استخدام الدعوة الى العامية . وذلك بالإضافة الى المحاولات من أجل القضاء على الفصحى وبعث الحروف اللاتينية .

ولا ريب أن الأمة العربية أمة بلاغة وبيان ، وأن اللغة في حقيقتها هي الفكر ومخزن التقاليد والتاريخ والدين ، وانها جهاز الاجتماع في الانسان ، ومن هنا فقد كانت اللغة والأمة أمرين متلازمين ومتبادلين . وإذا كانت اللغة هي التي ترافق الفرد وتجدده وتحركه حـتى أعمق أغوار تفكيره ومشيئته – كما يقول فخته – فإلى أي مدى تكون محاولة المنهج العلمي الغربي الوافد في القضاء على

هــذه الرابطة . وتجري بعض المحاولات لتجريد مفهوم اللغة من مضمونه الحقيقي ، حين يتخذ بعض دعاة القومية اللغة العربية مقوماً لها ، وقــد غفلوا عن أنه ليس كل من يتكلم بالعربية هو عربي بــل إن العربي هو من يفكر بالعربية. وهنا خطر سيطرة اللغات الأجنبية على العقل العربي، حين يكون المثقف العربي على درجة قليلة من ثقافته العربية قبل اتصاله باللغات الأجنبية، فإن المزاج النفسي حين تشكله اللغة الأجنبية تجعل من صاحبه موالياً لغير الفكر الاسلامي العربي .

إن أخطر ما يعجز (المنهج العلمي الغربي الوافد) عن استيعابه في مفهوم اللغة العربية هو الصلة بين اللغة والشريعة الاسلامية ، بل ربما كان هذا الجانب هو الهدف الحقيقي وراء دعوة تطوير اللغة والنحو ، فإذا تحـــولت اللغة عن أصولها القديمة ضاعت شريعتها واضطربت .

يقول الدكتور عـــلي العناني : « الدين الاسلامي هو عقيدة وشريعة قد استنبطت أحكامه في العبادة والمعاملات من الكتاب والسنة ، وعمل الرسول ، والقياس والاجتهاد ، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلا بواسطة مبادىء خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول . وأساس هذه المبادىء والقوانين الراسخ ، أو دعائم علم الأصول إنما هي فهم لغة العرب : لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعد الصرفية والنحوية وضوابط علوم البلاغة . وإذا اضطربت هذه الضوابط وتلك القواعد بالإزالة والوضع انهدم أساس علم الأصول ، وتداعت دعائمه . وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضاً ما يرتكز عليها . وهذا هو العلم .

وإذا وصل هذا العلم الأساسي في استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة الى التداعي تداعت معه أيضاً طريقة الاستنباط وفهم ما استنبط ودوّن بالفعل وضاعت العقيدة واحتجبت الشريعة وعدنا الى الجاهلية الأولى .

آثار المنهج العلمي الغربي الوافد شبهة تأثر البلاغة العربية بالبلاغة الفارسية واليونانية، وذهب دعاة هذا المنهج الى أن قواعد البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب عن اليونانية . ولا ريب أن مناهج البلاغة العربية تختلف أشد الاختلاف عن مناهج البلاغة اليونانية حتى في أسسه الأولية ، وأن هناك فوارق واضحة في الصياغة وفي أولوية الموضوعات وفي طريقة تصوير الموضوعات كلها تتفق مع الطبيعة والمزاج والآثار العقائدية والأخلاقية ووجهة النفس البشرية .

ولقد جرت محاولات قدامة بن جعفر وغيره في أوضاع البلاغة العربية للأصول اليونانية ، غير أن هذا الاتجاه لم يجد قبولاً . بل وجد معارضة ورفضاً كاملاً . ولقد أشار أعلام البيان العربي الى هذا المعنى ، ومن بينهم ابن الأثير في كتابه المثل السائر ودحض ذلك الأثر حين قال : فإن قلت إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه ، قلت لك في الجواب : إن هذا شيء لم يكن ، (الى أن قال) : وهذا باطل لي أنا فإني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته . ومع هذا فانظر الى كلامي ، (إلى أن قال) : ولقد فاوضني

بعض المتفلسفين في هذا ، وانساق الكلام الى شيء ذكره لأبي عليّ بن سينا في الخطابة والشعر . وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليوناني يسمى (اللاغوذيا) وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي فوقفني على مـــا أذكره فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طوّل فيه وعرّض كأنه يخطب بعض اليونان وكل الذي ذكره لغوٌ لا يستفاد منه .

الفصل الثاني

أخطاء الأدب

(أولاً) ـــ النقـــد

قدم المنهج العلمي الغربي الوافد للأدب العربي نظرية في النقد أطلق عليها اسم المنهج الحديث . وتقوم هذه النظرية على أساس النظر للإنسان من حيث هو كائن ماديّ صرف ، ومن ثم فإن معطياته الفكرية والروحية والنفسية تخضع للنظرية المادية . وقد اعتمد دعاة المنهج الوافـــد على ثلاثة من نقاد الأدب الفرنسي هم :

(سانت بوف – ١٨٦٩) ، (تين – ١٨٩٣) ، (برونتير – ١٩٠٦) .

والمعروف أن الحياة الفكرية الغربية قد دخلت في منتصف القرن التاسع عشر نطاق الفلسفة المادية بعد أن طرحت نظرية دارون مفهومها عن الانسان وعن تطور الحياة ، وان هذا التأثر قد زاد واتسع مـــع اتساع العلوم النفسية والاجتماعية التي تحركت جميعها في هذه الدائرة ، كما تأثر بمفهوم المنهج التجريبي الذي قام أساساً في نطاق العلوم والمعامل، والذي حاول بعض الدعاة تطبيقه على الانسان فضلاً عن المحاولات التي أجريت لإخراج نظرية التطور من نطاق العلوم ومحاولة تطبيقها على المجتمعات والانسان .

ومن هذا جرى تقدير العمل الانساني كله بوصفه أدباً على أنه نتاج مادي صرف . وكان هذا جائزاً في منهج النقد الأدبي في أوربا . ولكن لم يكن مقبولاً لاستعارته أو تطبيقه على الأدب العربي الذي كان في أصول فكره وثقافته مؤمناً بأن النفس الانسانية قبس من نور الله .

أما ما يؤمن به (تين ، وسانت بيف ، وبرونتير) ويقيمون عليه مذهبهم فهو المنهج التاريخي الذي يرى أن الانسان بمواهبه ومعنوياته إن هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعي الواسع لا يكاد يفترق عن الحيوان والنبات مع انتفاء الحول وانعدام الإرادة[1] .

يقول ادمون ولسن : « في أواسط القرن ١٩ أحرز العلم تقدماً جديداً ، وقفزت الأفكار الآرية أو الميكانيكية الى الوجود مرة أخرى ، ولكنها جاءت هذه المرة من مكان آخر ، فلم تجيء من الطبيعيات أو الرياضيات . وإنما جاءت من علم الأحياء ، فقد كان أثر نظرية النشوء والارتقاء هو الدافع الى النزول بالانسان عن تلك المكانة البطولية التي حاول الرومانتيكيون أن يضفوها عليه الى تشبيهه بالحيوان الذي لا حول له ولا قوة ، ونظروا إليه مرة أخرى على أنه شيء تافه جداً في الكون ، وأنه تحت رحمة القوى المحيطة به . ومن ثم كانت الانسانية نتاجاً عارضاً للوراثة والبيئة ، وكان من الممكن شرحها بمصطلحات هذه الأشياء . وقد طبقه القصصيون أمثال زولا ، وطبقه المؤرخون والنقاد الآخرون من أمثال (تين) الذي أثبت أن الفضيلة والرذيلة ليستا الى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الأحماض والقلويات ، والذي حاول أن يستظهر أسباب الروائع بدراسة الأحوال الجغرافية والمناخية للبلد الذي نتجت فيه . يقول تين : إن الرذيلة والفضيلة منتوجات مثل الزواج والسكر ، فكل حقيقة معقدة تخرج من الحقائق البسيطة التي تلحق بها وتعتمد عليها[2] .

---

١ — دكتور حلمي رزق .

٢ — ستانلي هايمان : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ترجمة إحسان عباس .

هذا هو مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد في النقد الأدبي يقوم على أساس جبرية لا يقرها مفهوم الفكر الاسلامي ، وعلى أساس حتمية لا تعرفها الثقافة العربية أصلاً ، ذلك أن مفهوم الانسان الذي قام عليه الأدب العربي والفكر الاسلامي كله إنما يقوم على حرية الارادة التي هي مصدر المسؤولية الفردية، حيث لا تحول بين إرادة الانسان وبين العمل إلا القوى الذاتية المنبعثة من نفسه كالتقوى ودوافع الحل والتحريم . ولا يقر الفكر الاسلامي بحال أي منهج يفرض حرية أو حتمية تجعل الفرد عبارة عن نتاج مادي لا إرادة له ولا بصيرة ولا مسؤولية .

ويشير الدكتور هيكل في بحثه عن (تين) بأن مذهبه هو تطبيق الطريقة الواقعية أو الوضعية التي قررها (أوجست كونت) على الأحياء بنفس الدقة التي تطبق بها على غير الأحياء أي بتطبيقها على الانسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التي تطبق بها على الأحياء الأخرى غير الانسان وعلى غير الأحياء .

فكما أن طريقة البحث العلمي في شأن غير الأحياء هي الملاحظة والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظة والتجربة فيجب اتباع هذه الطريقة بعينها في شأن الحيوان والانسان على السواء . وهو بالنسبة للإنسان ، « لا يرى فيه عالماً مستقلاً وسط هذا العالم الذي يعيش فيه . وإنما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متأثر به مؤثر فيه ، تجري عليه السنن التي تجري على غيره من الخلائق [1] » .

ويرى هيكل أن هذه الطريقة التي اعتمدها (تين) هي التي جنت عليه في كثير من الأحيان فقد كانت « عماداً للمذهب المادي ، فهي لا تقر للروح ولا للنفس ولا لأمثال هذه الألفاظ بمدلولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هي ترى كل ما في الجسم بعض مادته . كما أن كل ما في أي موجود من الموجودات بعض مادة هذا الموجود ؛ الانسان وغير الانسان على السواء » .

---

١ - تراجم مصرية وغربية . لهيكل .

وهكذا يرد الباحثون هذا المنهج العلمي الغربي الوافد في النقد الى المذهب المادي الذي بدأه (دارون) ، واتسع نطاقه على أيدي سبنسر وأوجست كونت . ثم شمل ميدان الأدب والنقد بتطبيق قواعد مادية لا هوادة فيها على الانسان على نحو ما يطبق على الحيوان والجماد . ومن الحق أن الأدب العربي يرفض هذا المنهج . وقد رفضه منذ اليوم الأول ، لولا أنه اعتصم بكليات الآداب التي كانت تدار من داخل إطار التغريب ، الذي استشرى في معاهد الارساليات وجامعاتها .

والمعروف أن هذا المذهب قد تضاعفت آثاره حين أضاف إليه نظرية التحليل النفسي لفرويد الذي قرر أن تصرفات الانسان كلها هي نتاج جنسي ينبعث من حنايا الغرائز . ولم يلبث مذهب فرويد أن سيطر بهذا المفهوم على الأدب الأوربي الحديث كله في مجال القصة والسيرة والتاريخ والأدب والشعر والمقال . لقد ألقى فرويد نظرية أقامها على بعض الفروض، واعترض زملاء فرويد (أدلر ويونج) على وجهة نظره في الجنس ، وحاولوا اتخاذ تفسيرات أخرى ، وبالرغم من أن فروضهم كانت أقل مبالغة وأقرب الى الصواب . فإن وجهة نظر فرويد – وحدها – هي التي حملتها الرياح الى كل مكان ، وفتحت لها كل أفق ، ومكنتها من السيطرة على آفاق الأدب والفن قوى كانت من ورائها لها هدفها وغايتها .

لقد انطلق الأدب الأوربي من نطاق النظرية المسيحية الأخلاقية الى طريق محفوف بالكشف والإباحة والأخطار ، بالدعوة الى الجنس وتصويره وإبلاغه أقصى حدود الجرأة والعنف .

لقد كانت أوربا بمفهوم المسيحية تقاوم الطبيعة بكراهية الجنس ، فجاء فرويد ليكسر أمامها هذا الحاجز ويدفعها الى أن يصبح الجنس هو العامل الأول والأخير في تفسير كل تصرفات الانسان معتمداً في ذلك على عدد من

الأساطير الإغريقية القديمة التي تحولت الى قواعد أساسية لعلم النفس الحديث ، ثم انطلق الأدباء من وراء ذلك ينقلون النظرية من مجال الدراسات العلمية الى مجال القصة والتصوير الفني فتدافع مورجان وهلسكي ولورنس وجونس .

وبدأت القصص تشق غمار الشهوات وتنطلق وراء صورة المجتمع الأوربي القائم على التنافس بين الزوجة والعشيقة وعلى الصراع بين الحب والجنس ، وعلى الصدام بين شباب المرأة وشيخوخة الزوج ، وعلاقة الأنثى الجميلة بالمريض الصدر ، أو المشلول العائد من الحرب . ولقد جرى القصاصون وراء خفايا المستشفيات والدور والأديرة واستخرجوا صوراً عاصفة فيهـــا صراع الحب وصراع المال .

وقد يقال كل هذا في تصوير المجتمع العربي ، لولا أنه ملأ علاقته بالمجتمع الاسلامي الذي لا ينوء بأزمة الخطيئة . والذي يحرره دينه من قيود الزواج الذي لا ينفصل ، والذي تقوم العلاقات فيه على أساس من الخلـــق والرحمة والكرامة ، وفي ظل مفاهيم الاسلام التي لا تجعل من العلاقة بين الرجل والمرأة كبتاً من أي نوع والتي تعترف بالرغبة البشرية ، ولكنها لا تعاديها ولا تسقطها ، والتي قد يؤجلها دون أن تفقد أصالتها من حيث هي طبيعة بشرية . كل هذا يحول بين الانسان في المجتمع الاسلامي وبين ذلك الغـــول الخطير الذي أطلقه فرويد في مجتمع أوربا باسم الكبت العاطفي وأثره في أحداث الجنون والانفصام .

ومن هنا فإن الأدب الذي يصدر عن النفس العربية الاسلامية التي تخلو من عقد الكبت ، ومن استنقاص الرغبات لا يطابق الأدب الأوربي ، بل يختلف عنه . ومن ثم فإن هذا الأدب لا يخضع للمذهب الغربي الوافد .

إن أعظم ركائز الأدب الغربي إنما تقوم على عقدة نظرية الخطيئة الأصلية التي تعتبر الانسان شريراً بطبعه . وترى أنه خاطىء بتكوينه الأبدي ، والتي

تحمل طابع التشاؤم والحقد للبشرية والتي تفصل بين الروح والجسد ، وتقيم بينهما الصراع الأبدي . ومن هنا فإن هذا الأدب يختلف عن الأدب العربي الذي يقوم على أساس الفطرة ، وعلى أساس الاعتراف بأن النفس الانسانية خيرة كريمة ، وأن خطيئة آدم التي قد غفرها الله له لا تنسحب على أحد بعده، (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلَّا مَا سَعَى) وأن الرغبة الحسية هي من الطبيعة البشرية التي يستجاب لها عن طريق اللقاء الطبيعي بين الرجل والمرأة في ظل الإطار الذي أقامته الشريعة ، وأن على من عجز أن يحقق كماله بالزواج أن يعلي رغباته حتى تتاح له الفرصة وتتم له الغاية . والنفس الانسانية المسلمة مشرقة بالإيمان ، مستظهرة دائماً برحمة الله مليئة بالأمل فيه . ولذلك فهي لا تحس التشاؤم ولا التبرم بأي قضاء . وتترقب دائماً الخير واليسر ، وتتطلع الى عطاء جديد مهما أدلهمت حولها الأحداث أو اخترمتها الأزمات، فهي لا تعرف اليأس ولا الحقد ، ولا تحب الفاحشة ، ولا تعلي عبادة الجسد ولا عبادة البطل ، وإنما تؤمن بالله الواحد الأحد ، وتجعل من التقوى نبراساً لها ، ومن رحمة الله أملاً متجدداً .

والنفس العربية الاسلامية تعيش في أجواء الضوء ، فالشمس حين تطلع تغمر الكون فهي لا تحتاج أبداً الى الرموز أو المواربة أو الظلال ، ومن ثم فهي تختلف اختلافاً واضحاً في أدبها ونتاجها الفني ، ومن ثم فهي لا تجد في المنهج العلمي الوافد في النقد ما يرضي طبيعتها أو يتفق مع ذوقها أو مزاجها النفسي والاجتماعي .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي الذي طبعها بطابعه لا يقر مقايسة الانسان على أنماط الحيوان أو الجماد ، ولا يرى الانسان إلا سيد هذا الكون تحت حكم الله فهو مستخلف في الأرض ، قد حمل أمانة الرسالة وبناء الحياة ، وامتحان الخير والشر ، وقد أعطي الارادة والعقل والقدرة على تصريف الأمور ليكون مسؤولاً مسؤولية كاملة يوم الحساب .

والانسان الذي يحمل المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي ، والذي يؤمن بالله وبالبعث والجزاء لا يكون أبداً خاضعاً لمذاهب جبرية تفرض عليه أن يكون قشة تحركها القوى أو ترساً تديره الآلة ، بل هو الانسان المريد العاقل المتصرف المسؤول عن تصرفه ، والذي يتحرك داخل إرادة الله ولكن بإرادته التي تصرف أمور الحياة والتي هي موضع مسؤوليته وحسابه .

والمنهج العلمي الاسلامي يؤمن بأن للإنسان منهجاً خاصاً يدرس من خلاله ، وتفسر أعماله في ضوء قوانينه ، وهو حتماً غير المنهج التجريبي الذي تحاكم إليه الطبيعة والمــادة ، وغير المناهج التي تجرى فيها التجارب على الحيوانات والحشرات .

ولقد حمل الى الأدب العربي بعض أتباع المنهج الغربي الوافد هذه المذاهب، فعجزوا عن أن يزيحوا مفهوماً أصيلاً بمفهوم زائف . ولقد كان هدفهم هو تدمير القيم الأساسية للأدب العربي وفصله عن الفكر الاسلامي ، وإبراز جوانب الكشف والجنس في إعادة صياغة فكر أبي نواس وبشار والأغاني والخيام . ولكن التجربة باءت بالفشل .

- ٢ -

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في مجال الأدب نظرية «لا أخلاقية الأدب» أو تحرير الأدب من قيد الأخلاق ، وذلك من خلال نظرية الفن للفن الغربية ، وجرت المحاولات المتصلة لفرض هذا الاتجـــاه جرياً وراء الموجة الغربية التي سادت أدب أوربا في العصر الحديث .

ومن الحق أن هذا الاتجاه الوافد بدأ غريباً في محيط الأدب العربي ، وأفق الفكر الاسلامي ، ذلك أن كلمة أدب عند العرب كانت ترتبط أساساً بأدب النفس كل الارتباط .

فالأديب[1] هو الذي يروي من الشعر والنثر ما يرتفع بالروح ويسمو بالخلق ، وقد بقي الشعر العربي قبـــل اختلاط العرب بالأعاجم صورة تنطق بالفضيلة والمروءة وكمال النفس ، وكان الشعر صورة النفس الماجدة ذات المروءة والخير . ويختلف هذا المفهوم اختلافاً واضحاً عن المفهوم الغربي لكلمة أدب . فإن كلمـــة (Literature) لا تعني أثراً من مفهوم المعلومات والعلم ، ولا تتصل بالأخلاق . وفي أقدم مفاهيم الأدب نجد الغربيين يفصلون بين الأدب والأخلاق ، ومذهب أرسطو الذي احتـــواه كتابه (الشعر) يشير الى ذلك بوضوح ،

---

١ - نازك الملائكة ، (عن بحث لها) .

حيث [1] يرى أرسطو أن جمال الأدب لا يستند الى الأخلاقية ، وإنما هو معنى منعزل لا شأن له بأي قيمة خارجية . ومن الشائع عند أرسطو أن يكون الأدب جميلاً كل الجمال حق وهو غير أخلاقي . فلا دخل للمبادىء والمثل في الأدب .

« وقد سيطر هذا المذهب على الفكر الأوربي ، فبقي ينحدر من صفحة الى صفحة عبر تاريخ الأدب والنقد » وقد ظلت الآداب الغربية منفصلة عن الأخلاق حتى أعلن الفيلسوف المعاصر كروتشه قاعدة أساسية أصبحت قانوناً وصكاً هي قوله : [لا شأن للأخلاق في الأدب] .

وقد حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح هذا المفهوم في أفق الفكر الاسلامي والأدب العربي . وجرى بعض أتباع هذا المذهب وراء الدعوة له وإعلانه ، ومضى بعضهم يكتب آثاراً أدبية وفق هذا المفهوم ، ولكنها كانت نماذج غير صحيحة بالنسبة للبيئة العربية والمجتمع الاسلامي . وجاءت مناقضة لروح العرب والاسلام ، معارضة للمزاج النفسي والاجتماعي الذي عرفه المسلمون والعرب ، وبدت وكأنها شارة واضحة بالتبعية والخضوع ، وليس كذلك الانسان العربي ولا المرأة العربية . فإن النفس العربية تنأى عن الخضوع للجنس والإباحية على هذا النحو . ومن عجب أن تكشف هذه الآثار عن زيف يحاول أن يصور أثر الجنس في الحياة العربية الاسلامية وهو يحرفها عن طبيعتها أو ينحرف بها عن استوائها .

---

١ ـ نازك الملائكة ، (عن بحث لها) .

- ٣ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الأدب العربي مفاهيم جديدة تختلف اختلافاً جذرياً عن القيم الأساسية التي قامت عليها النفس العربية الاسلامية . هذه المفاهيم تنطوي على شيء غير قليـــل من الشكوى والأنانية والانطواء على النفس والبكاء والضعف والتمزق والحرمان ، وكلها مفاهيم وافدة غير أصيلة في الذات العربية أو مفهوم الأدب العربي الأصيل . فلقد كانت النفس العربية تزهى دائماً بقوتها وإيمانها وصلابتها في مواجهة الأحـــداث ومقاومة الأزمات ، ولم تكن تعرف مطلقاً مثل هذا الاستسلام والخنوع والتحلل الذي هو من المفاهيم الوافدة . وهذا الطابع الفردي الحزين الممزق ليس من طبيعة الأدب العربي في أيّ طور من أطواره ولا من شأن النفس العربية ، وإنما جاء الى المسلمين والعرب من بعض المجتمعات والحضارات التي قامت على الإباحية والتحلل الخلقي ثم تسلل مع بعض المنحرفين ، وحاول أن يشكل تياراً في الأدب العربي لم يلبث أن طوته طبيعة الأمة نفسها ذات الأصالة والصلابة .

وفي الفكر الاسلامي يقوم مفهوم الترابط بين الفردية والجمـــاعية ترابطاً أصيلاً ، فالفرد للجماعة والجماعة للفرد والكل للإسلام . فالرجل إذا عرف الحب عرفه كريماً متعالياً عن الدنايا . فإذا خاب في تجربته ، كان موقفه موقف الرجل الكريم المتعالي عن الصغائر ، الحافظ للذمام ، الأنف عن موقف النقص والانهيار .

- ٤ -

إن المنهج العلمي الغربي الوافد قد أجرى محاولات كثـــيرة لصبغ الأدب العربي بصبغته ولونه ، وإخراجه عن مضامينه وفطرته . ومن ذلك ما حاول أن يطرحه من طوابع التشاؤم والإباحة والشك ، بينما يتميز الأدب العربي (لاتصاله بالفكر الاسلامي الذي هـــو أساسه ومصدره) باليقين والأخلاق والإيمان . اليقين في مواجهة الشك والأخلاق في مواجهة الإباحة والإيمان في مواجهة التشاؤم . ومن المستحيل أن يستطيع المنهج العلمي الغربي الوافد صرف الأدب العربي عن طبيعته هذه ، لأنها تقوم أساساً على المصادر النفسية والاجتماعية للفرد المسلم ، وحتى إذا انكسرت القـــيم وخضع الأدب العربي لظاهرة التشاؤم والإباحية والشك ، فإنها تظل غريبة عليه . ذلك أن مصدر التشاؤم هو عقيدة ليست موجودة في الاسلام والفكر الاسلامي : تلك هي عقيـــدة الخطيئة ، والاعتقاد الخفي المتصل في النفس الغربية ، المتوارث مع العصور والأزمان ، بوراثة البشر للخطيئة منذ أول الحياة . ومن هنا فإن الفكر الماركسي والوجودي والفرويدي كله محاصر بهذه الفكرة . ومن ثم فهو فكر تشاؤمي لأنه يستمد وجوده من المادية .

وإذا كان الفكر الاسلامي (والأدب العربي وليده) لا يؤمن بالجبرية الاجتماعية أو الحتمية التاريخية . فإنه لا يؤمن أيضاً بسيطرة فكرة الخطيئة التي هي مصدر التشاؤم الواضح في أفق الأدب الغربي بل والفكر الغربي كله .

ويتمثل أبرز مظاهر التشاؤم والإباحة في نظرية فرويد الذي أعلن أن النفس الانسانية مجموعة من الرذائل التي تتحكم في قواها وتسيطر على مشاعرها . وأن الانسان حيوان تحكمه الغريزة وتوجه مشاعره وسلوكه وتصرفاته . وبذلك ألقى على كل علاقة إنسانية نبيلة ظلاً قاتماً يشوهها حتى حب الأمومة . فقد تحول الأمر الى الاعتقاد بأن الانسان عبد نزواته وغرائزه الجنسية . ومن ثم أدخلته العلوم الاجتماعية والفلسفات الى حظيرة الحيوان .

والمعروف أن روح الأدب الجديد في أوربا (هي النفي والتمرد على الماضي ووصف صفحاته بما يسمى إجرام الماضي وغلطاته وسخافاته وأكاذيبه ونفاقه) وقد ردّ كثير من الباحثين ظاهرة التشاؤم (الذي هو حقيقة اجتماعية في حياة الفرد أولاً ، ثم هو طابع الأدب نفسه والفكر الغربي كله) الى عدم الاقتناع العقلي بوراثة البشر جميعاً لما يطلق على الخطيئة الأصلية . ويقول الباحثون إن الوجدان المتشائم في الغرب إنما ساد نتيجة هذه القضية ، وقد ظهرت آثاره القوية على الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق . وفي مسار هذه الأيديولوجية السوداوية المتشائمة تنتشر على أوسع نطاق في عالم الغرب أفكار عن لا معقولية الحياة وعبث الوجود ، حتى أصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر معارض .

ويرى الباحثون أن الوجودية هي أعلى أطوار فلسفة التشاؤم ، ويرد البعض ذلك الى الآلة التي انقلبت على صانعها ، وأصبحت وحشاً مدمراً يحاول أن يقضي على قلبه وعقله ويحيله الى أداة طيعة له . ولطابع التشاؤم جذور قديمة وعميقة في الفكر الغربي فقد قاد هذا التيار شوبنهور وهارتمان ونيتشه . وفي الوقت الحاضر تصدر ألوف الأبحاث والكتب تتحدث عن التشاؤم وسباق العالم الانساني نحو الموت . ولا ريب أن موجة التشاؤم قد علت بعد الحرب العالمية الثانية ، وسيطرت فكرة تقول « إن العالم قد فقد بريقه وفقد حق الوجود » ويرى توينبي أن نهاية الطبقة الوسطى الغربية هي نهاية الحضارة كلها .

وأنه إذا تحطمت الطبقة الوسطى الغربية فـــإنه ينهار معها بنيان الانسانية . ويغفل الباحثون عن الوقود الذي يحرك هذه النار وهي المفاهيم التلمودية اليهودية التي تأخذ صوراً متعددة ومذاهب متعددة لتصطرع جميعـــاً في محيط المجتمع الغربي . وهي محاولة دفع عجلة التقدم المادي الى أقصى مدى مع إسقاط المفاهيم الأخلاقية والانسانية والروحية وتدميرها . وهدف هذا إسقاط الحضارة كلية ، وقد تنبه كثيرون الى هذا الخطر ولكنهم عاجزون تماماً عن مواجهته ، أو الحيلولة دون وقوعه . ويقول بارسبرز (إن التقـــدم العلمي والتقني يعتبر صعوداً . أما بالنسبة للبشرية من حيث هي بشرية ، ومن حيث أخلاقيات الانسان ، ومن حيث عطفه وفطنته فإنه لا يتقدم) . ويقولون : إن المجتمع ينزلق مع الزمن نحو الانقراض . ويقول بارسبرز إن الانسان يواجه أربعة مواقف أساسية في العالم لا يستطيع أن يغيرها أو يتجاوزها : (الموت ، الألم ، الصراع ، الإثم) . ويقول سمير كرم : لقد ساد الوجدان المتشائم أيدولوجية النظام الرأسمالي بكل أبعادهـــا ومظاهرها في الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق والسياسة . ويتحدث الكثيرون عن الفزع من الموت وكراهيته ومحاولات القضاء عليه . ويبدو هذا كله في نظر الفكر الاسلامي والأدب العربي شيئاً غريباً ومختلفاً وبعيداً جـــداً عن الوجدان العربي والمزاج النفسي الاسلامي . والفكر الاسلامي يجعل الانسان سيد الخليقة والمستخلف في الأرض عن تقدير وتكريم له ، إذا صلح على طريق الله ، ويعلو به عن كل نظرية تحاول أن تصوره محكوماً لنزواتـه أو غرائزه ، أو تدخله في حظـــيرة الحيوان ، وليس في الأدب العربي الأصيل صراع بين غرائز الانسان وعقله ، لأن المسلم يعتقد أساساً بحقيقة جوهرية هي اعتراف الاسلام برغباته وحرصه على ممارستها في إطار الخلق والضوابط . دون أن يحرمه منها أو يعتبرها خطيئة ، ومن ثم فهو لا يجد أزمة الصراع بين الغريزة والعقل ، وكل قضاياه بعد ذلك بسيطة ويسيرة ، ولكنها لا تصل به الى هذا الحد من الأزمة القاسية . ثم إن الاسلام

يطبع الفكر والثقافة والأدب بطابع التفاؤل والإيمان والسماحة ، ويرفض طابع التشاؤم والإباحة والشك .

أما « الموت » فإن الفكر الاسلامي يقدمه على أنه حقيقة واقعة لا سبيل الى الافلات منها . ولذلك فإن المسلم لا يمتنع عن أن يقدم حياته لله خالصة في سبيل غاية كبرى ورسالة حقة ، والمسلم يقدم حياته فرحاً بالاستشهاد في سبيل الله ، ويرى أن الموت خير من الحياة الذليلة ، وأن المؤمن بين إحدى حسنيين هما الحياة الكريمة أو الشهادة ، والمسلم يؤمن بأن له أجلاً لا ريب فيه ، وأن وراء الموت عالماً آخر وجزاءً وحساباً وخلوداً ، وليس الموت عنده هو نهاية الحياة وإنما هو مرحلة من مراحلها ، ومن هنا فليس في الأدب العربي ولا الفكر الاسلامي مثل ذلك الجزع البالغ الذي تصوره الآداب الأوربية تجاه الموت، ولا الفلسفات الوجودية إزاءه .

- ٥ -

من دعائم المنهج العلمي الغربي الوافد ، فصل الأدب عن دائرة الفكر ، ومن ثم عن البلاد ، وكأنه قيمة مستقلة لها حريتها وانطلاقها الذي لا يتوافق مع الأخلاق أو القيم الأخرى المختلفة . وقد يتفق هذا الاتجـــاه مع الانشطارية الواضحة في الفكر الغربي . والتي تجعل كل قطاعات المجتمع منفصلة ، بينما لا يعرف الفكر الاسلامي هذا التمزق ويعرف بديلاً عنه تكاملاً ومواءمة بين القيم والمفاهيم . ولقد جرى دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد وراء مفهوم الانشطارية في الأدب الغربي فأخـذوا بمذهب بلاشير الذي يضيق مفهوم الأدب ويستعيد من دائرته جميع الآثار الفلسفية والكلامية والفقهية والعلمية . بينما تتمثل اصالة مفهوم الأدب في الفكر الاسلامي في شموله وتكامله لجميع العـــلوم والفنون . ولا ريب أن أخذ دعاة المذاهب الوافدة بالمفهوم الضيّق قد قصر الأدب على مجموعة رديئـــة من تراث شعر الغزل والخمريات والسجع والمحسنات اللفظية والمقامات ، وكلها مفاهيم فارسية مجوسية لم تكن من شأن الأدب العربي في طابعه الاسلامي .

وفي الوقت الذي تقدم فيه آثار ابن المقفع وعبد الحميد وأبي نواس وبشار ، تتجاهل كتب الحديث والسيرة وخطب أبي بكر وعمر وكلمات علي . ولا

ريب أن كتب الحديث النبوي تقدم لنا في هذا المجال ذخراً أدبياً رائعاً « فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الاول[1] ويجد فيها دارس الأدب العربي من البلاغة العربية والقدرة البيانية والوصف الدقيق والتعبير الرقيق، ومن عدم التكليف والصناعة ما يجعله يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري عن صحة النقل .

ومن هنا تجد المنهج العلمي الغربي الوافد يتجاوز هذا الأصل الأصيل المتمثل في الحديث، وفي كتب السيرة، وفي كلام العرب الأقحاح وخلفاء الرسول، ليوسع مجال الحديث عن المتكلفين المقلدين للعجم أمثال، أبي إسحاق الصابي، وأبي الفضل بن العميد، والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمزاني، وأبي العلاء المعري، الذين[2] اخترعوا أسلوباً للكتابة والانشاء هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسال، وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع، وقد غلب عليهم السجع والبديع غلواً أذهب بهاء اللغة ورواءها، وقيد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدت حريته وانطلاقه وخفة روحه وجماله » .

ثم جاء الحريري فألف المقامات باسلوب هو أسلوب الكتابة المسجّعة . وقد حرص المنهج العلمي الغربي الوافد في تاريخ الأدب ونقده أن يحرص على هذه الحصيلة، وأن يحجب القيم الأساسية للأدب العربي، وذخائره العليا الموجودة في كتب التاريخ والسير والتراجم، وفي مؤلفات العلماء من أمثال

١ - أبو الحسن الندوي : مختارات من أدب العرب .

٢ - نفس المصدر .

الإمام الغزالي ، وابن تيمية ، وابن الجوزية ، وابن القيم ، وابن حزم ، وابن خلدون . فإن من قرأ آثارهم وجد « مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العلمية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً » ، وقد استهدف هذا الاتجاه حجب فصاحة القرآن وكرامة رجال الفكر والأدب الذين « عرفوا الإيمان وصفاء النفس والعزوف عن الشهوات » ، وتقديم النماذج الضالة المضلة من الشعوبيين والزنادقة والملاحدة وعبادة الشهوات .

- ٦ -

ثم هناك محاولة فصل الأدب العربي الحديث عن الأدب العربي في عصوره المختلفة ، وذلك بإثارة دعوى بالغة الزيف بأن العصر الحديث له طابعه المستقل المنفصل عن التاريخ العربي تحت اسم الأدب المصري أو السوري أو المغربي ، وهذه كلها محاولات مضللة . فإن الأدب هو أدب اللغة العربية أساساً . ثم له طابعه المرتبط بالإقليم في بعض صوره ومواقفه ، ولكنه في عمومه امتداد للأدب العربي الذي صنعه الاسلام بنزول القرآن . وترمي هذه المحاولة أساساً الى عزل الأدب العربي عن فصاحة القرآن ، مما يترتب عنه العزوف عن الانماط الاسلوبية الاولى والتماس الاساليب الغربية الحديثة ، وهي أساليب وثنية ومسيحية في كثير من الاحيان تحجب الاساليب العربية الاصيلة ، وتحول دون تذوق بلاغة القرآن المعجزة بل ودون فهمها آخر الأمر [1] .

ولقد جرى طه حسين وغيره على هذا النحو في نقل استعارات اللغة الفرنسية ، وجرى في أسلوبه على نمط تلك اللغة . ويكفي أن تطالع صفحات من كتاباته لتتأكد من هذا ، فأسلوبه الفكري فرنسي وطريقته في النقد

---

١ - لباحث كبير .

ودراسته للأدب والشعر والأدباء والشعراء فرنسية ، وهو في عنوان أبحاثه في النقد (حديث الأربعاء) ناقل للعنوان الذي كان يجريه (سانت بيف) على فصوله النقدية (حديث الآثنين) وهو يتتبع في النقد مذهب الاحساسيين الذاتيين مقتفياً أثر أناتول فرانس[1] .

ولا يقف الأمر عند هذا ، بل إننا نجد من يحاول إدخال أسلوب التوراة والعهد القديم في أساليب الادب العربي الحديث أمثال : جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، وأمين الريحاني . ولقد حرص ميخائيل نعيمة أن يصدر فصوله بآيات من العهد القديم ، ومن المزامير وسفر الجامعة ونشيد الإنشاد . وقلده الى حد ما (ابراهيم عبد القادر المازني) وجاء أخيراً من كان يكتب افتتاحياته تحت عنوان (الحق أقول لكم) . وعلا صوت جبران فترة من الزمان ، ثم هوى ذلك كله وتلاشى . فقد كان معارضاً في أساسه لطبيعة الادب العربي القرآني المصدر . ولقد سجل الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله هذه الظاهرة التي حاول المنهج العلمي الغربي الوافـــد إبرازها حين قال : (يؤسفنا أن صاحب كتاب الشعر الجاهلي « يقصد الدكتور طه حسين » ومن لفّ لفّه يسوقون الادب العربي في غير طريقه ، ويلبسونه ثوبــاً من غير نسجه ، وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ، ويسوقونه في نفس الطريق التي ضلّ فيها الادب الالماني قرناً وبعض قرن ، فضلّ عن نفسه ولم يهتد حتى رده عن تلك الطريق : هللر وهاجيدن وليسنج ، وما تلك الطريق التي يسوقون فيها الادب العربي إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة والغربي عامة . كان

---

١ — مجلة المكشوف اللبنانية .

الدكتور طـــه حسين ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان أولئك للالمانية ، فيفتنوها بغيرها ويضلوها عن نفسها ، فإذا أنت قرأت لهم رأيت تقليداً بحتاً يعرض عليك باسم التجديد . ثم جاءت موجـــة اليقظة الفكرية العربية الاسلامية لتحمل الادب العربي الحديث الى الارتباط بجذوره وأصوله على امتدادها الواسع الطويل والعـــودة الى الاصالة والاقتراب من فصاحة القرآن .

- ٧ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يخضع العربية لأسلوب في تاريخ الادب يقوم على أساس انفصال العصور السياسية ، وهو أسلوب عرفتـــه الآداب الاوربية ، وربما كان يتفق مع طبيعتها وظروفها . ولكنه حين يطبق على الادب العربي يأتي بنتائج غـــاية في الاضطراب والفساد . ذلك أنه مذهب « توائم طبيعته الآداب الاوربية عامة بوحداتها المتعددة والصغيرة . وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالاً سياسياً وتاريخياً ، وانفصالاً لغوياً وأدبياً من حيث استقلال كل منها بلغتها الخاصة وأدبهـــا الخاص ضمن حدودها الضيقة » .

أما الادب العربي فإن هذا المنهج لا يصلح له ، وتطبيقه يعجز عن تحقيق أي نتائج علمية أو أساسية ويرجع ذلك الى أن الادب العربي تميز بخاصيتين عظيمتين باين منهما آداب هذه الوحدات الاوربية وغيرها أيضاً . فامتنع بهذه المباينة إخضاعه إخضاعاً تاماً لمـــا أخضعت له من قانون دوّنت به تواريخها الادبية العامة [1] . أما إحداهما . فتلك هي ما انبسط لهذا الادب من أوطان ترامت ما بين بلاد الغـــال في الغرب وتخوم الصين في الشرق ، وبين حواشي البسفور شمالاً واليمن وحضرموت جنوباً . وما حظي به من مشاركة عبقريات

---

١ - العلامة : محمد بهجة الأثري ، الى خط سير جديد في تدوين تاريخ الأدب العربي .

من مختلف الشعوب في بنائه ، وما زخر بـــه من آثار متنوعة إذا استطاع الاحصاء لشيءٍ ما أن يحيط بإقراره حصراً ، فلن يبلغ من آثاره مدى يحصرها في حدوده ، ويعطيها صورة عامة صادقة . أما الأخرى : فتلك هي طبيعته الخاصة ومناشئه وينابيعه التي تشق مجاريها الدافعة طرقها فيه إلى « لانهايتها » ، وترفده دائماً بما يمنحه استقلال الشخصية ، وحماية وجودها بالصمود أمـــام الأعاصير . بل القدرة على التأثير في مجاري أحداث الحياة نفسها فيفرض عليها سلطانه .

ونحن إذا تدبرنا هذا كـــله بإزاء هذا الاسلوب الاوربي في تدوين تاريخ الادب مقسماً الى عصور سياسية : اتضحت لنا صورة الصعوبة في تطبيقه على أدبنا إن لم نقل تعذر تطبيقه عليه ، وبدت لنا هذه المعالم الفاصلة بين أدب عصر وآخر في ضعفها أشبه بالحدود والحواجز التي أقامتها دول الاستعمار في الوطن العربي .

ونحن حين نمضي في ملاحظة الأحداث السياسية والاجتماعية على وجه الزمن كله ، نجدها تجري أبداً متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم أجزاء الزمن الذي تحدث فيه ، كل حادث منها ينشأ ، وهو منفعل بأسباب وعلل متقدمة متصلة بحادث سابق ، فما يكون في يومنا من حادث جديد فللأحداث الأمس الدابر أثر في حدوثه ، وله بهـــا اتصال وثيق ومباشر . ثم نمضي في ملاحظة تولد الأفكار . فنجد الفكر الانساني لا ينبع من الأذهان ابتداءً وإنمـــا ينبع من أفكار تقدمته وولدته ، وإن بدا منفصماً عنها في النزعة والمعنى والغاية . وهو كما يكون مؤثراً فيما يحدث بعده من أفكار يخضع لعوامل شتى سبقت زمان ظهوره . وإذا كان الأمر كله كذلك في جملة شأنه . فلا جرم يكون مؤدى هذه التقاسيم للعصور السياسية حين نفرضها على الأدب العربي اننا ندخل بهـــا عليه

إفساداً . إذ نضيف الى عصر لاحق نتاج عصر سابق حمل في نفسه كل عوامله ومؤثراته وخصائصه .

نخلص من هذا الى أننا نجد أنفسنا بإزاء قانون خاص إن صلح لكتابة تاريخ عام لآداب هذه الوحدات الأوربية الصغيرة . فإن التجارب في تطبيقه في تدوين تاريخ أدبنا قد انتهت الى الإخفاق في رسم صورته وتوضيح اصالته[1] .

---

١ – نفس المصدر .

- ٨ -

يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الأدب العربي التركيز على الأدب الحديث، وتجاهل الأدب العربي القديم. ولا ريب أن هـذه المحاولة لا تتفق مع الاصالة، ولا تدعو اليها، ولا تتفق مع ما يقرره المنهج العلمي الغربي بالنسبة للآداب الغربية المرتبطة الجذور بالأدب اليوناني القديم الى الحـد الذي يغلو فيه هذا المنهج، ويرى أنه لا سبيل لفهم الأدب الغربي الحديث إلا بدراسة الآداب اللاتينية واليونانية. بل واللغتين القديمتين المندثرتين أيضـاً. ولا ريب أن دعوى الفصل بين القديم والجديد من أخطر المحاولات الى فصـــل حياتنا الراهنة والمستقبلة عن مصادرها القديمة حتى تتفرق جماعتنا ويتشتت شملنـــا، وحتى لا تكون أخلاقنـــا امتداداً لأخلاق آبائنا، ولا تكون أذواقنا امتداداً لأذواقهم ولا تكون لغتنا وأساليبنا امتداداً للغتهم وأساليبهم. وحتى لا تكون مذاهبنا في الأدب والفن امتداداً لفنونهم وآدابهم. بـــل لا يكون إسلامنا امتداداً للاسلام نفسه، فإذا نجحت في أن تجعل المجتمع الجديد مقطوع الصلة بماضينا في اللغة وفي الدين وفي العادات وفي الذوق الفني وفي المزاج وفي التقنين الخلقي فأيّ جامعة يمكن أن تجمعنا عند ذاك؟ وأيّ طابع يمكن أن يميزنا عن غيرنا من سائر خلق الله، ويجعل لنا الحق في أن نقول إننا قوم؟ إننا عرب؟ ما أيسر ما نكون عند ذلك تبعاً لسادة الشرق والغرب. وذيـلا لكائن من كان ممن يريد أن يستلحقنا كما كان السادة يستلحقون العبيـــد في عصور الرق»[1].

---

١ – دكتور محمد محمد حسين من بحث في مجلة الأزهر.

- ٩ -

عمد المنهج العلمي الغربي الوافد الى طرح نظرية الاقليمية في أفــق الأدب العربي ، وحمل لواءها عدد من التابعين ، وزعم أصحاب هذا المذهب أن الأدب العربي كان إقليمياً اختلف من إقليم الى إقليم ، وهو لا يزال إقليمياً ، ويجب أن يبقى إقليمياً يساير خصائص كل إقليم . وقد بدت بوادر هذه النظرية حين قال: (أحمد ضيف) إن الأمة العربية ليست أمة واحدة . وإن أدبهـــا أدب أمم مختلفة المذاهب والأجناس واللغات ، ثم تولى تنمية هذه البذور (أمين الخولي) الذي اعترض على دراسة الأدب العربي على أساس التقسيم الزمني أو الزماني . وقال بضرورة التحول الى التقسيم المكاني . ودراسة الأدب العربي إقليماً بعـد إقليم . لا عصراً بعد عصر . وقد كانت النظرية زائفة ، ووجدت من مزقها ، وكشف عن خطئها. وأول ملاحظ الخطأ هو أن تقرير تأثـــير البيئة في الأدب شيء والقول بإقليمية الأدب شيء آخر . وأن واقــع الأدب العربي في الماضي القريب والبعيد يثبت أن هذه الآثار لا ترجع الى قطر من الأقطار أو إقليم من الأقاليم . فالمتنبي مثلاً ولد في الكوفة وعاش في بغداد وحلب ودمشق ، وآثاره لا تعتبر محصولاً لأي إقليم من تلك الأقاليم ، وأثره لم يقتصر على إقليم ما بـــل يشمل جميع الأقطار ، وغيره كثيرون على هذا النحو . ولقـــد حافظ الأدب

العربي على طبيعته الموحدة والموحدة حتى في أسوأ عصور تفكك الدول العربية وتفتيت شعوبها وحتى في خلال العهود التي لم يكن يتيسر فيها الاتصال بين البلاد العربية إلا على ظهور الجمال[1] .

وان الحقيقة الواضحة هو أنه لا يوجد ولن يوجد أدب مصري وأدب عراقي وأدب مغربي . وإنما يوجد أدباء مصريون وعراقيون ومغاربة .

---

١ – من نص لساطع الحصري .

- ١٠ -

ركز المنهج العلمي الغربي الوافد على الأدب العربي قبل الاسلام وعلى الحياة الأدبية الجاهلية بصفة عامة . وأولاها اهتماماً كبيراً . وكان في ذلك يهدف الى طرح محاولة للانتقاص من عظمة الرسالة المحمدية والدور الكبير الذي حققته في العالمين . فقد ركزوا على القول بأن الحياة الجاهلية كانت تتجه في آخر أيامها نحو التمهيد لنهضة اجتماعية أو ثورة سياسية : « هي النهضة التي تولى زعـامتها رسول الله ﷺ . وفي ذلك إهدار لدور النبوة والوحي وأثر القرآن في بناء أمة جديدة »[1] ومحاولة القول بأن العرب كانوا مستعدين للنهضة . فلما جاء الرسول ونهض بهم نهضوا معه . وهذا مخالف للحقائق التاريخية ويتعارض مع الصراع القوي الذي قام بين الرسول والمسلمين القلائل معه من جهـة ، وبين قريش من جهة ثانية ثلاثة عشر عاماً كاملة ، حتى جـاء قوم من مدينة أخرى هي يثرب فانتصروا للمسلمين وفتحوا لهم طريق الهجرة . وكذلك ينخدع المنهج العلمي الغربي الوافد بما يرى من تقارب بين الأديان الثلاثة ، ويحاول أن يصور الاسلام وكأنه جماع مما جاء في هذه الأديان وينسى الحقيقة الأساسية ، وهي أن مصادر الأديان كلها واحدة وهي من عند الله أساساً ، وقـد حملت رسالة التوحيد والحق ، ثم انحرفت بعض التفسيرات والمفاهيم . فلما جاء الاسلام كان يحمل الأصل الأصيل للفكر الرباني وللدعوة الإلهية .

١ - من رسالة للدكتور محمد محمد حسين .

ويثير المنهج العلمي الوافد الشبهات حول ما بقي في البيئة الجـــاهلية من أخلاق الكرم وحماية الذمار والشهامة وغيرها وحقيقة الأمر في ذلك أن فضائل العرب في جاهليتهم هي البقية الصالحة من ملة ابراهيم عليه السلام[١] غـير أن الخطر الحقيقي في حملات المنهج العلمي الغربي الوافد إنما يكمن في إثارة تراث الحضارة الجاهلية . وإعادة طرحه مرة أخرى في محيط المجتمع الاسلامي وأفق الفكر الاسلامي كوسيلة لخلق عصبية قومية عنصرية تباهي بهذا القديم لتحل محل العصبية الاسلامية التي جمعت هذه الاشتات المتفرقـة وقضت على دواعي فرقتها ، وتستهدف كذلك تمجيد العرب في جاهليتهم ورفض القول بأن القرآن هو سبب مجدهم وأس حضارتهم[٢] .

ولقد حرص المنهج العلمي الغربي الوافد على المحاولة لإيجاد تراث فكري مشترك يستطيع أن يربط بين الفرعونية والاشورية والبابليـــة والفينيقية والبربرية وبين الاسلام . ولكنه عجز عجزاً مطلقاً عن إيجاد مثل هذا التراث حيث استطاع الاسلام خلال أربعة عشر قرناً أن ينقل المسلمين والعرب نقلة بعيدة جداً عن جو الوثنية القديمة بكل أبعادها . وحيث انقطعت الصلة تماماً بين المصريين والفرعونية ، وبين الشاميين والفينيقية ، وهكذا ، بالاسلام الذي غيّر النفسية والعقلية والمزاج العربي تغييراً كاملاً بعد أن دفعه الى آفاق أرحب هي آفاق التوحيد والمنهج الرباني القائم على الفطرة ، وحرر العقل والنفس من اصار العبودية لغير الله ، كما حرر البشرية من العبودية التي كانت تفرضهـــا الامبراطوريات الرومانية والفرعونية والفارسية . ولم يترسب في النفس العربية والاسلامية من شيء من تراث الجاهلية إلا مـــا كان متصلاً في الاساس بدين ابراهيم وكل ما استطاعت الجاهلية العربية أن تستبقيه من علامـــات الكرم .

---

١ - من رسالة للدكتور محمد محمد حسين .

٢ - المصدر السابق .

والمروءة والشجاعة الحربية إنما هو بقية دين الحنيفية السمحاء بعد أن انحرفت أهدافه وغاياته . ثم جاء الاسلام فأعاده الى مفاهيم الحق والعدل والخير وأجراه مرة أخرى في مجرى التوحيد الخالص . وان اليقظة إزاء بعث التاريخ القديم على الاستعراب والاسلام وتكوين أدب إقليمي من شأنه أن يفكك عرى الأخوة العربية الاسلامية ويدعم الصهيونية التي قامت وسط الثغرات الإقليمية التي حالت دون تكتل العرب ووحدتهم .

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الفكر الاسلامي مفهوم الأدب الغربي ، والأدب الغربي ليس أدباً واحداً ولكنه آداب إقليمية تحكمها مناهج الفكر المادي والمدرسة الاجتماعية التي تعتبر النفس البشرية خـــاضعة لقوانين المادة والحيوان . وفي مجموع مـا ساقه المنهج العلمي الغربي الوافد من مفاهيم للأدب ، فقد انحرف به عن اصالة مفهومه في المنهج العلمي الاسلامي على هذا النحو :

أولاً – إن أبرز ما أعطى الاسلام للأدب « عمق المعرفة التي تدور على تحرير الادب من الاساطير والخرافات . وإيقافه عند الحقيقة دون مبالغـة في تصوير الواقع على النحو الذي كان يعرفه الشعر الجاهلي أو الملاحم اليونانية ، كما أعطاه الاحتياط في اعتبار الشعراء أصدق معبر عن العصر الذي يعيشون فيه ، فالشعراء ليسوا أصدق معبر عن عصورهم ، بل إن الشعراء وسائر رجال الفنون هم قوم عاطفيون ، تغلب عواطفهم عقولهم ، ومن هنا كانت الصور التي يقدمونها براقة لامعة غير أنها لا تلتزم الاعتدال والانصاف[١] .

ثانياً – الادب في مفهوم الاسلام له حرية التصوير وبراعته بوصفه فنـا يتحرك داخل إطار خلقي حيث يرتبط الادب بالدين والخلق والمجتمـع ، ولا ينفصل

---

١ – عن نص للاستاذ علي أدهم .

عنها . ومن مهمة الادب العربي تحرير الخيال من الاغلال الضيقة الشديدة الوطأة، وهذا يختلف عن مفهوم الادب الغربي الذي يحرر نفسه من الاخلاقيات بل ويراها عبئاً على حركته الحرة .

ثالثاً – ليس في الادب العربي نظريات متعددة متفرقة ترتبط بالعصور أو البيئات (الرومانسي ، الكلاسيكي . الخ) ولكنه منهج متكامل له طابع الثبات في الجذور ، واتساع الافق في الفروع ، أما الادب الغربي فإن النظريات المتعددة فيه قد ارتبطت ببيئات متعددة وعصور مختلفة . فأصبحت تمثل تطوراً تاريخياً وتضارباً واختلافاً . وليس من شأن الادب العربي أن يحاكم الى مثل هذه المذاهب . أو أن تنقل لتمثل عصوراً من عصوره . فذلك شيء يختلف تماماً . ويستطيع الادب العربي أن ينظر في هذه المذاهب دون أن يعتنقها أو يضع أدبه في امتحان بقوالبها .

رابعاً – الادب بوصفه عنصراً في مجموع كلي هو الفكر ، فهو مرتبط بقانون الاخلاق ورسالة التقوى والتوحيد التي تنظم الحضارة والمجتمع جميعاً .

والأدب بوصفه رسالة وجدان تقوم على العاطفة والمشاعر الحسية التي قد تخطىء وتصيب ، والتي قد تسيطر عليها العواطف والأهواء ، فإنه يعدو طوره اذا تدخل في مباحث العقائد والاجتماع « إن مولدات الخيال في الادب تستطيع أن تخرج ثلاثة أرباعه بضاعة زائفة ظاهرها أنيق ، وفي باطنها السم » . ولقد بالغ كثير من القطع الأدبية في الباطل .

خامساً – إن نقد الادب العربي يختلف اختلافاً أساسياً عن النقد في الادب الغربي الذي يعتمد اليوم على العلوم الاجتماعية ، والتحليل النفسي ، والتحليل الماركسي والوصف الوجودي . وهي في تقدير الفكر الاسلامي احتمالات ونظريات وفروض قد ثبت خطأ الكثير منها . وهي تختلف أساساً مع مفهوم الانسان في الاسلام .

سادساً – إن المنهج العلمي الاسلامي يفصل بين خصائص الادب وتاريخ الادب . ذلك أن خصائص الادب إنما هي قيم أساسية . أما تاريخ الادب فهو واقع قد يمضي على الطريق الصحيح وقد ينحرف . وهذه الانحرافات التي يحاول بعض دعاة النقد الغربي الوافد أن يصوروها على أنها مظاهر حقيقية لهذا الأدب، ليست من طبيعته ولا من نظريته وإنما جاءت له من سيطرة الحضارة الفارسية . والزخرف ، وأدب الكشف ، والأدب الحسي (والغزل والخمريات) كلها ليست إلا نتوءاً في طريق الادب العربي الاصيل . وهي ظاهرة تجاوزها الادب العربي بعد ذلك .

ومن هنا يجيء خطأ المنهج العلمي الغربي الوافد في التماس الانحرافات، وتصيد الغمزات ، والبحث عن الفجوات والعمل على تصويرها على أنها مظاهر حقيقية . ومصدر الخطإ هنا هو العجز عن طريق الذوق الاصيل ، وبعض الذين يجرون وراء هذه المناهج ليست لهم أذواق عربية أصيلة تكونت من داخل أدبهم . وإنما تكونت لهم أذواق غريبة جعلتهم يعلون شأن الادب الغربي ويلهجون باسمه بينما تتقاصر نظرتهم عن أدبهم الاصيل الذي تخطوه دون أن يقفوا معه وقفة التقدير ، بل التعرف والإحاطة .

(ثانياً)

ظاهرة العلمية الحديثة في الأدب العربي

إن أكبر محاذير المنهج العلمي الغربي الوافد هي محاولة إغراق الادب العربي في تيار الادب الاغريقي مستهدفة إشاعة هذه المفاهيم الوثنية المتحللة في آفاق الفكر الاسلامي والمجتمع العربي عن طريق الادب ومناهجه . وذلك تمهيداً لتحول الادب العربي إليها واحتوائها له . ولقد استمرت هذه المحاولة أكثر من خمسين عاماً . ولم تستطع أن تحقق هدفها ، ذلك أن هناك فوارق بعيدة بين خصائص الادبين ، وعميقة بين الامتين .

وأخطر ما في محاولات المنهج العلمي الغربي الوافد : تلك المحاولة الدائبة المضللة لتصوير الفكر الاسلامي مرتبطاً بالفكر اليوناني نتيجة تمويهات شاردة تحاول أن تصور المسلمين ، وقد خضعوا لمنطق أرسطو . والواقع أن المسلمين قد وجدوا هذا المنطق مختلفاً تمام الاختلاف مع جوهر فكرهم . ومن هنا فإن المفكرين المسلمين لم يقبلوا المنطق الارسطي وإن حاول بعض الفلاسفة إخضاعه للتوحيد . « وعلل الامام الشافعي السبب الحقيقي لنقد المسلمين لمنطق أرسطو حين قال : إن هذا المنطق يقوم على أساس خصائص اللغة اليونانية ، ولغة اليونان مخالفة للغة المسلمين . فلما طبق المنطق اليوناني على أبحاث الاسلام أدى هذا المنطق الى متناقضات عدة . أما علماء أصول الدين المتكلمون فقالوا : إن العلة في عدم قبولهم المنطق الارسطي هو أن الميتافيزيقيا الارسطية مخالفة لإلهيات المسلمين ، وهذا المنطق الارسطي وثيق الصلة بالميتافيزيقيا. ولهذا رفضه

المتكلمون كذلك . نقد الفقهاء المنطق الارسطي ، وذكر « ابن تيمية » العلتين التين ذكرهما الاصوليون والمتكلمون وتوسع فيها ، ثم أضاف إليهما ، وقال إن المنطق الارسطي يقيد الفطرة الاسلامية بقوانين صناعية ، متكلفة في الحد والاستدلال . ومما ذكره العلماء المسلمون أن الاسلام يعمل على الوفاء بالحاجة الانسانية المتغيرة . بينما المنطق الارسطي يعتبر قانوناً كلياً ثابتاً .

« والعلة الحقيقية لنقد المسلمين للمنطق الارسطي أن هذا المنطق يقوم على المنهج القياسي لأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية حيث لم يترك للتجربة مكاناً في هذا المنهج ، بينما يقوم المنهج الاسلامي على أساس التجربة وينظم قوانين الاستقراء . وحيث يعبر المنهج القياسي الارسطي عن روح الحضارة اليونانية يعبر المنهج التجريبي عن روح الاسلام[1] .

ولقد تحققت هذه القضية في العصر الأخير بأوفى بيان ، وكشفت كثيراً من ذلك الزيف الذي طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد (لطفي السيد . وطه حسين . وابراهيم بيومي مدكور) حين فرضوا على الفكر الاسلامي والثقافة العربية ذلك المفهوم الزائف الذي لا يتفق مع اصالة الفكر الاسلامي . وهو أن الاسلام كان مديناً في عصره الاول للفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو ، جرياً وراء ذلك الخيط المضلل الذي ألقاه رينان وسانتلانا وغيرهم[2] .

ولا يجد المنهج العلمي الغربي الوافد خيطاً يلتمسه ويتعلق به في سبيل محاولة تصوير الفكر الاسلامي والأدب العربي تابعين للعقلية الهلينية إلا قضية الترجمة من اليونانية وهي قضية لا تشرف أصحابها كثيراً ، لأنها قامت على غش كثير وزيف أكثر . وان ما نقل الى المسلمين لم يكن هو الفكر اليوناني بقدر ما كان شبهات النساطرة واليعاقبة الذين حاولوا نشر معتقداتهم متخذين من الفلسفة

---

١ – ملخص عن بحث للدكتور علي سامي النشار .

٢ – راجع كتابنا التفسير الاسلامي للفكر البشري .

اليونانية سبيلاً الى ذلك . وقــد تمحل المنهج العلمي الغربي الوافد كثيراً ليزيف الحقائق ، ويصور المسلمين وكأنهم لم يكونوا يحملون فكر القرآن الواسع العظيم الذي استفاض على كل مقومـــات المجتمع اقتصاداً وشريعة وسياسة وتربية واجتماعاً . والذي أنشأ حضارة التوحيد ، ليردوا كل شيء في الأدب العربي أو الفكر الاسلامي الى الهلينية .

ولقد كان هدف المنهج العلمي الغربي الوافد واضحاً من حملته هــذه . وهي أن يقـــال للمسلمين : اذا كان فكرهم الاسلامي قد خضع لليونان والهلينية وأرسطو ، فإنه في تطوره الحديث لا بأس من أن يخضـــع لأوربا والليبرالية والغرب . ومن الحق أن يقال إن الفكر الاسلامي قـــد تكاملت مقوماته من حياة الرسول ومع آخر آيات القرآن الكريم ، وإن فكراً قـــام على التوحيد والأخلاق واليوم الآخر والجزاء والمسؤولية الفردية لا يستطيع أن يستسلم بسهولة لفكر يقوم على الوثنية والإباحة والدهرية والتحرر المطلق من كل قيــود الخلق والاجتماع .

أما موقف الفكر الاسلامي من الفلسفة اليونانية (والتراث الفارسي والهندي جميعاً) فقد كان واضحاً ، إذ ترجم العلمـاء المسلمون الأبحاث العلمية والطبيعية وعلوم الفلك والحساب والطب وغيرها وأعرضوا عن الأدب والشعر .

أما في مجال الطبيعيات والعلوم الرياضية فقـــد صحح المسلمون أخطاءها وحولوها الى منهج أصيل مستمد من جوهر القرآن ، ومفهوم الاسلام للعلم ، كما حرروا علم النجوم من النظرة الغيبية وصححوا أضخـم النظريات اليونانية في مجال العلم والطب . والقول الحق في هذا المجال انه ليس من شأن الفكر الاسلامي ، وهو فكر له اصالته وتاريخه وحضارته ، أن يلتمس مقاييس الفكر الغربي أو الاغريقي في تعليل الكون أو فهم الحياة . ذلك أن الفلسفة اليونانية ومفاهيم الوثنية إنما تتنافى مع التوحيد والنبوة وتعارضها على خط مستقيم .

- ٢ -

في العصر الاسلامي الأول تحرز الفكر الاسلامي من ترجمة الادب اليوناني الشعر والملاحم والأساطير . وكانت حجتهم في ذلك واضحة صريحة وهي أن الادب ليس عالمياً ، وأنه يحمل طوابع الأمم ، ويتشكل من خلال عقائدها وفكرها ، وليس المسلمون في حاجة إليه ، وإنما هم في حاجة الى العلوم الطبيعية والرياضية وحدها ، وهي التي نقلوها أولاً بدافع الحركة نحو بناء فكر إنساني ، كذلك فقد وجد المسلمون في الادب اليوناني طابع أمة وثنية لها مفاهيمها المعارضة لمفاهيم المسلمين في الألوهية والأخلاق والبعث والجزاء .

* * *

أما في العصر الحديث فقد كان الموقف مختلفاً كل الاختلاف . ذلك لأن المنهج العلمي الغربي الوافد قد فرض ترجمة الاساطير والملاحم والشعر والتراجيديا على الأدب العربي فرضا مع دعوى عريضة بقصور الادب العربي عن الاساطير والقصة ، وبعظمة الادب اليوناني وبراعته ، في محاولة لتمجيد الاسلوب الوثني الذي يتعارض مع طبيعة العقل الاسلامي والنفس العربية ويختلف معها اختلافاً عميقاً .

فالأدب اليوناني يقوم على أساس الصراع بين الانسان والآلهة ، ويدور حول آلهة يتصارعون من أجل المطامع والشهوات ، وينتقم أحدهم من الآخر ، ويتزوجون بالإنسيات ، وقد كان هذا كله مما يختلف مع مفاهيم المسلمين بالنسبة

للإله الواحد الأحد الخالق المتعالي عن كل صفات الغدر والخسة ، ولم يكن المسلمون يفهمون الحياة صراعاً بين الانسان والإله ، ولكنهم يؤمنون بالإله الواحد الذي أعطى الانسان كل شيء . واختلاف آخر عميق الأثر في رفض الفكر الاسلامي والادب العربي لما طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد من أساطير وتراجيديات الأدب الاغريقي هو قيامه على أصل أصيل من الوثنية . والوثنية اليونانية تقوم على عبادة المرح والبهجة والإيناس – على حد تعبير زكي مبارك – فأهواء الآلهة عندهم أهواء حادة من الوجهة الحسية بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحية من غضب وبطش وجبروت . وأذواق الآلهة عندهم أذواق مترفة ناعمة ، والشاعر الذي يعيش في رحاب الوثنية اليونانية محروس بقوات خفية من جميع الشؤون ، فله عند الغضب إله ينصره هو إله الحرب ، وله في أوقات السرور إله هو إله الخمر ، وله عند الصبوة إله يفتح له قلوب الملاح هو إله الحب . ولا ريب أن هذه المفاهيم كلها تختلف بل وتتعارض مع النفس العربية والعقل الاسلامي .

- ٣ -

قارن كثير من الباحثين بين الادب العربي وبين الادب الاغريقي في المجالات المختلفة (ومن مقدمة الابحاث الرائعة في هذا المجال ما كتبه الاستاذ محمد مفيد الشوباشي) يقول :

١ – الأدب العربي واقعي إنساني بينما الأدب الاغريقي خرافي وثني .

٢ – إن تعاطف الاغريق مع الطبيعة لا يرقى إلا ما بلغه تعاطف العربي في رقة العاطفة وسمو الوجدان .

٣ – تعاطف العرب مع الطبيعة أكثر مما تعاطف معها الاغريق فقد كانوا يناجون الليل والنجوم ومنازل الاحباب .

٤ – لم يؤمن العرب بالجبرية إيمان الاغريق بها .

٥ – فطرة العرب البساطة الطبيعية وعنوانها الصدق بكل معانيه . ولقد كان الشعر ديوان علوم العرب ومستودع عاداتهم وأخلاقهم وأدواتهم وصناعاتهم « أما الشعر الاغريقي الملحمي فإنه يصور عالماً وهمياً لا تكاد تقوم صلة بينه وبين الحياة الحقيقية للمجتمع الاغريقي ، ويصف آلهة وعمالقة وفرساناً يتميزون بقدرات غير آدمية . ويحققون الخوارق ، وينساقون وراء

شهوات وأطماع وأحقاد ووحشية ، ويأنفون أن تغلب عليهم الرحمة ، أو يمس قلوبهم حب أو حنان . ويرتكبون في سبيل تحقيق غاياتهم آثاماً تتقزز منها النفوس ، ولا يعتدون على الأحياء فحسب ، ولكنهم يمثلون بالجثث . المرأة قاسية كالرجل ، فهناك امرأة تشترك مع عشيقها في قتل زوجها والتنكيل بأبنائها . وهناك أخرى تحرض أخاها على قتل أمها فيقتلها فعلاً ، وأخرى تتزوج بابنها .

وبينما كان الشعر الاغريقي يرسم هذه الصورة الشوهاء لمجتمعه . كان الشعر العربي عالماً مختلفاً تمام الاختلاف . فالعرب قد حال نضجهم العقلي دون استرسالهم وراء شطحات الأوهام ، والشعراء العرب كانوا يعبرون عن تجارب ذاتية على خلاف أدباء الأمم الأخرى الذين كانوا يستمدون موضوعات قصصهم الملحمية من أخبار ترامت إليهم عبر القرون بعد أن موهتها إضافات المبالغات والأوهام[1] .

---

١ - بتصرف عن الشوباشي : رحلة الأدب العربي الى أوروبا .

– ٤ –

وفي مجال العواطف يبدو الفارق البعيد بين الشعر العربي والشعر اليوناني . فقد حفل الشعر العربي بعواطف الحب والغيرة والرحمة بالضعيف وحماية المظلوم . كما حفل بصور الحب العفيف الشريف والإيثار والعدل والتضحية .

والمرأة العربية تتصف في أغلب القصص العربية بالوفاء ، وتتولد محنتها عادة من رقة إحساسها وينشب الصراع في نفسها بين عاطفتين كلتاهما نبيلة . أما المرأة الاغريقية فتتصف بالغدر في أغلب مآسي الاغريق ، وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة ، وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأخطر النزوات ، فها هي ذي هلينية تخون زوجها في قصة (طروادة) وتهرب مع حبيبها دون أي تردد أو شعور بتأنيب الضمير وتتسبب في حرب أبادت شعوباً بأسرها ودمرت بلاداً عن آخرها .

وهناك قصة (الكترا) التي تعبث فيها البطلة كلمنسترا بقدسية رباط الزوجية ، وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها (أجاممنون) الذي رحل على رأس الجيوش الإغريقية ليغزو (طروادة) ، وينتقم من أميرها ويستعيد هلينية الغادرة الى أحضان زوجها المنبوذ ، ولم تكتف (كلمنسترا) بارتكابها هذه المعصية ، ولكنها أقدمت على جريرة أشد نكراً مدفوعة بشهوتها البهيمية ، فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع عشيقها (إيجست) في أثناء حفل أقيم تكريماً له بمناسبة عودته من حرب طروادة ظافراً . وكان لهذه القاتلة

الفاجرة ابنة تدعى (ألكترا) وطفل يدعى (أورست) وخشيت الأخت أن تقدم أمها على قتل ابنها الطفل أيضاً حتى تتحاشى انتقامه منها بعد اشتداد ساعده ، فهيأت سبيل فراره من قريته . وعاش (أورست) بعيداً عن وطنه دون أن يعلم شيئاً عن جريرة أمه . ثم عاد الى مسقط رأسه بعد أن بلغ أشده وتلقفته أخته (الكترا) التي قضت السنوات الطوال منطوية على نفسها وأطلعته على السرّ الرهيب وطلبت إليه قتل أمها أخذاً بثأر أبيها . وما زالت تولول وتدفع أخاها دفعاً الى الجريمة حتى لوث يديه بسفك دم أمه . وقصة الكترا هي أعنف مآسي الإليـاذة والأوديسا وأشدها اتصافاً بالوحشية . وقد ظفرت بالنصيب الأوفى من إعجاب كبار كتاب الاغريق ومن تابعوهم من دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد .

ولقد أجمعت أغلب المصادر على أن الادب الاغريقي أدب بدائي ، وأنه لا يصور النفس الانسانيـة في قطرتها . وإنما يصور « حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله ، وحجبت عنه الحقائق الواقعية ، وأضعفت فيـه العواطف الانسانية النبيلة ، واستثارت فيه الغلظة والميل الى الشر » « وآلهة الاغريق في الأغلب قاسية تميل الى الانتقام . فإذا عنّ لها أن تنصف مظلوماً أو ترحم ملهوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وإنصافها من أي سمة إنسانية . وهي لا تنكل بعبـادها فحسب ، ولكن بعضها ينكل ببعض ، ويفتك به . وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ، ولا يستطيعون منها فكاكاً إلا من تدبير هذه الآلهة . وقد قيل إن الوثنيين الاغريق فطروا على صورة آلهتهم . أو على الأصح انهـم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم[1] . فأين هذا من سماحة الأدب العربي وبساطة النفس العربية وكرمها وأخلاقها ؟ ومع ذلك فإن دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد يصرون على تمجيد الادب الاغريقي ووصفه بأنه قمة الآداب العالمية ، ولا ريب أن أمثال الدكتور طه

---

١ – الشوباشي : رحلة الأدب العربي الى أوربا .

حسين الذي يبدي إعجابه بقصة « أوديب مَلِكاً » وأمثالها من قصص الملاحم الاغريقية ، ويقول إنها منبع الآداب العالمية ، قد انتزع من بين جنبيه مشاعر العرب وفطرتهم ومزاجهم النفسي والاجتماعي .

وغاية ما يقال في الأدب الاغريقي أنه يقوم على الخوارق والأساطير ، وأن الأساطير متعلقة بالمجتمعات البدائية متولدة من أعمال السحر والطقوس الدينية .

أما العرب فقد تقدموا من مرحلة الادراك الحسي الى مرحلة النمو العقلي فلم تستحوذ الأساطير على ألبابهم كما استحوذت على ألبـــاب الاغريق. « وواكب الادب هذه المحاولة فأعرض الشعراء عن تصوير عالم الخرافة [1] . ومع هذا فقد أعرض المنهج العلمي الغربي الوافد عن هذه الحقيقة الكبرى . وهاجم الادب العربي بضيق الخيال . لأن العرب لم تعرف الاساطير في شعرهـــا ولا في عقائدها [2] كأنما وجود الاساطير وسيطرتها على الادب دليل التقدم والرقي ، بينما هي في حقيقتها تمثل المراحل البدائية وعصور الوثنية والخضوع للشهوات والأهواء .

ولقد كانت العرب قبل الاسلام مسترشدة في أخلاقها وأدبها بحكمة الحنيفية التي أقامها إبراهيم وإسماعيل ، وظلت هذه القيم الكريمة باقية ممتدة فيها بالرغم من انحرافها نحو الوثنية الساذجة التي قضى عليها الاسلام . فعادت النفس العربية مرة أخرى الى أصالتها .

فلما جاء الاسلام تحول الادب العربي من طريق الى طريق . « فلم يقتصر على الاشادة بالحسب والنسب والتفاخر بقوة الشكيمة وشدة المراس والبطش . بل غلب عليه التنويه بالتقوى ، والترفع عن الدنايا ، والتمسك بعفـــة اليد

---

١ – الشوباشي : رحلة الأدب العربي الى أوربا .

٢ – أحمد صنيف (مقدمة لدرس بلاغة العرب) .

واللسان ، وبالتواضع والحياة والرقـــة والدماثة ولين العريكة والتسامح . ونزهوا المرأة عن أن تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة .

وطلع شعراء بنو عذرة في التاريخ لأول مرة بقصائد عبّروا فيها عن حبهم العذريّ . وتخطى هذا الشعر حدود نجد ، وذاع في الارجاء ، ونسج الشعراء على منواله ، وانتقل مع العرب الى أوربا . وكان كما قال بعض النقاد الشرفاء : أهم عامل في تهذيب النفوذ وتهيئة السبل لانتقال البشرية من العصر الوسيط الى العصر الحديث [١] .

* * *

ولذلك فقد كان من أكبر جرائم المنهج العلمي الغربي الوافد تلك المحاولات التي جرت على أيدي طه حسين وغيره . في فرض مفاهيم زائفة تصور الادب اليوناني وهو أعز مكاناً من الادب العربي حتى وضعت في مناهج المدارس الثانوية قبل الجامعات مفاهيم تصور الاغريق وهم أعلى درجة في الخطابة من العرب ، وتركز على فلاسفة اليونان ، وتصورهم بأنهم قادة الفكر البشري . ويهدف هذا كله الى إبعاد النفس العربية الاسلامية عن مجد اللغة العربية وسمو أدبها .

١ — مفيد الشوباشي : رحلة الأدب العربي الى أوربا .

(ثالثاً)

القصة وعالم الأسطورة

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يفرض على الأدب العربي : القصة والمسرحية والأسطورة استمداداً من نقل الرواية المترجمة والميثولوجيا اليونانية والتراجيديا الغربية .

ولقد عرف الأدب العربي القصة التي هي بمفهوم التاريخ والواقع والحق في مجال العبرة والفهم لقيام الأمم وسقوطها ، وعوامل نهضتها واندحارها ، ولقد قام لها القرآن في ذلك نموذجاً فريداً يرقى على كل فنون القصص . لأنه يقوم على الحق ، ويهدف الى العبرة ، ويكشف عن الحكمة العالية في حركة هذا الكون ، وإبراز سير النماذج العليا المصطفاة لقيادة الفكر الانساني ، وتقديم رسالة السماء وكلمة التوحيد وأمانة الحق الى الانسان .

أما على النحو الذي عرفه الغرب وهو خلق عالم آخر وهمي أسطوري من صناعة الكتاب والشعراء يختلف عن عالم الواقع ، ويزدريه ، فذلك هو الفن الذي لم يعرفه الأدب العربي إلا في العصر الحديث حين عمد المنهج العلمي الغربي الوافد الى إقحامه في مجال هذا الأدب بالترجمة والتعريب .

ولا ريب أن القصة المترجمة أو المعربة ذات الأصل الأوربي لا تمثل الوجدان العربي الاسلامي الفني بواقعه عن التعويض الوهمي والخيالي .

ولا ريب أن فن القصة له أصل وثني يقوم على مفاهيم المعبد والكهنة

والطقوس والأغاني . فالقصة تعطي الفنان الحق في الخروج عن الحقيقة التاريخية والحقيقة المتمثلة في الطبيعة . والعقلية الاسلامية عقلية تقوم على التوحيد ، ولا تسرف في الخيال ، ولا تنحاز الى الأوهام أو الأساطير . وإنما تواجه الواقع في وضوح .

وأخطر ما تواجهه القصة هي الخروج من عالم الواقع الى عالم ليس موجوداً في الحقيقة ، فهي تقدم للمحرومين العاجزين تعويضاً خيالياً وهمياً عن جميع حاجاتهم الرئيسية ، فتقتل فيهم الحافز القوي ، وتميت فيهم الضمير الحيّ ، وتضللهم عن مقاييس العقل ، وترفع عنهم تكاليف الحياة .

وقد نشأت القصة في المجتمع اليوناني العبودي القائم على استمتاع السادة وإذلال العبيد ، كوسيلة لتعويض الفقراء والمرضى والمحرومين . بخيالات الثروة والحرية دون حقائقها .

ومن هنا لم يكن لهذا الفن في حياة العرب وجود . فقد كان وجود العرب قائماً على واقع الحياة ، ووضوح الكلمة ، والإيمان بالله ، والأخوة البشرية الجامعة .

ولقد كانت المسرحية اليونانية محاولة لتفسير العقيدة وتمثيلها ، أما عند العرب فإن العقيدة غاية في الوضوح .

ومن هنا فقد وقف الفكر الاسلامي حائلاً في العصر الحديث دون ظهور القصة بالرغم من محاولات التعريب والترجمة حتى قال أحدهم[1] : إن المجتمع الانساني متى بقي تطوره وتقدمه محصوراً في المبادىء الاسلامية أو في التقاليد

١ – عن نص للاستاذ محمد عبدالله عنان .

التي كانت أثراً لهذه المبادىء ، فإنه لن يمدّ كتاب القصص العربي يوماً بمـــادة واسعة أو غزيرة كالتي يقدمها المجتمع الغربي الى كتاب الغرب . أو أن يعدو الأثر الذي يفسح للمرأة ذات يوم أن تكون موحياً للفن أو للخيال[1] .

ومعنى هذا هو أن ظهور القصة في الأدب العربي إنما يمثل تياراً متعارضاً مع طبيعة الأدب العربي .

---

١ – عن نص للاستاذ محمد عبدالله عنان .

- ٢ -

نشأت الأسطورة في اليونان ، وفي فارس ، وفي الهند ، كبديل للحقائق التي جاء بها الوحي وأذاعها الدين ، فقد قامت على محاولة تفسير بشري لما وراء الطبيعة اعتماداً على الخيال والوهم والخرافة . أما في الجزيرة العربية فقد قامت ديانة إبراهيم وإسماعيل (الحنيفية) منذ وقت بعيد ، فقدمت للعقل العربي حقائق أصيلة ، لم تحوجه بعدها الى الأساطير التي ذاعت في المناطق التي تجمعت فيها الاساطير والخرافات والسحر ، بما تكوّن في بابل واليونان ، وكان أساساً للفكر البشري الذي شكل بعد ذلك الفلسفات اليونانية الهلينية في الغرب ، والغنوصية الغيبية في الشرق ، وقد ذهب البعض الى أن الأسطورة كانت مصدر العقائد في اليونان . وهي مجموعة من الصور والقصص تدور حول الأوثان والآلهة والهياكل والمذابح والطقوس والكهانة وما يتصل بها من ترانيم ، وكلها تهدف الى خلق تصور لموقف الانسان أمام أسرار الطبيعة وقضية الخلق والحياة والموت . وتقوم في مجموعها على تقديم الضحايا لاتّقاء غضب الآلهة ، واسترضائها في عدد من المناسبات كالفصح والعنصرة ومواسم الحصاد . وفي هذه المناسبات تتألف الجماعات التي يتقدمها الكهنة والتي تنشد الأناشيد وتتبعها الموسيقى ويتقدمها الكهنة . وتحمل هذه الأساطير بالإضافة الى المعتقدات ، وتفسير أحداث الحياة ، وظواهر الطبيعة ، قصصاً عن الابطال والعظماء الذين قاموا بأعمال الشجاعة الخارقة والذين تحولوا مع الزمن الى آلهة أو أنصاف آلهة . والاساطير في مجموعها حصاد من القصص الخرافية القائمة على التهويل والمبالغة ،

والتي تضم عوالم العمالقة والأقزام والشياطين والغيلان والجان والقوى غير المنظورة . هذا العالم كله قد ظل تراثاً لليونان وغيرهم ، وعجز أن يتجاوز الى أرض الحنيفية التي قامت فيها الأديان من إبراهيم الى محمد ، إلا حين حمل ذلك أصحاب التلمود ونقلوه من البابليين والإغريق وأضافوه الى تراثهم . ولقد كان لفكرة التوحيد أثرها البعيـــد المدى في مطاردة هذا الركام الزائف من الوثنيات . ولقد خلا الادب الجاهلي من هذه الاساطير ولم تشر المعلقات وهي أعظم آثارهم قبل الاسلام الى شيء منها[1] .

ولا ريب أن الاسطورة في مجموعها نتاج غريب عن بيئة التوحيد والفكر الاسلامي ، لأنها تقوم على تفسير بشري زائف ، بينما يجد المسلم عنده تفسيراً كاملاً للكون والغيب وعالم ما وراء الطبيعة كله ، فلا يحتاج معه الى مثيل أو بديل . وكل ما تورده الاساطير اليونانية وغيرهـــا يتعارض مع الصراحة والبساطة والوضوح التي يتسم بها الاسلام ، حيث لا يوجد إلا الله الواحد الأحد الذي لا شريك له ، الواحد الذي لا يتعدد ، الرحمن الرحيم ، مصرف الطبيعة في غضبها ورضاها والبحار والرياح ، والذي لا يحارب البشر ولا يصارعهم ، ولا يطلق عليهم الجن أو الشياطين ، أو حيوانات البحار أو الجبال ، وحيث الاسلام يعارض مفهوم البطولة الوثني ، ويفرق بين الألوهية والبشرية ، ويرفض مفهوم تحول الابطال الى آلهة ، والذي يقرر أن النبي المؤيـــد بالوحي بشر قد خلت من قبله الرسل يعيش ويموت ولا يتميز عن الناس إلا بأنه يوحى إليه .

ولقد حاول المنهج العلمي الغربي الوافـــد أن يقذف الفكر الاسلامي ، والثقافة العربية بهذا الحصاد الضخم من الاساطير بترجمتها الى اللغة العربية في محاولة لإغراق الادب العربي بها ، بل وجرت المحاولات في البحث عن الاساطير في الادب العربي نفسه . ولقد حاول بعضهم بعث الاساطير التي دارت حول

---

١ - مفيد الشوباشي .

ولادة الرسول وبيئته الاولى لإضافتها إلى السيرة بعد أن نفاها منها المؤرخون والمحققون على مرّ العصور .

ولقد كانت طبيعة النفس العربية الاسلامية قائمة أساسا على الإيمان بالله ، وعلى طابع الاخلاق ، وعلى الواقعية الفطرية التي تواجه الحياة مواجهة الوضوح والصدق . فلم تعرف عالماً وهمياً خرافياً يقوم على الشهوات والاطماع والاحقاد والخمر والرقص والخوارق والاهواء ، على النحو الدامي الصارم العنيف المليء بالظلم والقلوب المطموسة كعالم الاساطير . والاسلام في جملته – وهو دين إبراهيم من قبل – ينبذ فكرة الظلم والشهوة وعبادة الاجساد وعبادة الفرد .

- ٣ -

أبرز معطيات الأساطير هي المأساة (التراجيديا) فقد تحولت مواسم العبادة الى استعراضات صاخبة ، تشكلت في ظلها المسرحية وارتفعت الى أن أصبحت فناً غنائياً راقصاً يستوعب فكرة الأسطورة ويصور هدفها . وتفترض المأساة وقوع الصراع بين الانسان والآلهة ، وانتهاءه بمأساة فاجعة تنتصر فيها الآلهة على الانسان وتسحقه .

ونظرية الصراع بـين الانسان والقدر : هي نظرية وثنية . ثم استشرت في آفاق الفكر الغربي كله . وسيطرت على المسرح الغربي المسيحي بعـــد المسرح الوثني اليوناني وأمدتها فكرة الخطيئة بما جعلها طابعاً أساسياً للتراجيديا .

وقد قامت التراجيديا على أساس عبادة باكوس إله الخمر عند الإغريق باسم (ديونيزوس) . ففي كل ربيع كانت تقام لهذا الإله حفلات صاخبة ، يرقص فيها الناس ويغنون حول تمثال إله الخمر. ومنها تطورت الى أن ولدت المسرحية. وتنبع روح التراجيديا من شعور ديـني ، وأساس التراجيديا في تقدير الباحثين الغربيين هو الصراع بين الانسان والقوى الإلهية . ثم تطور المسرح بعد ظهور المسيحية في كنائس روما وباريس ، واتخذ من مفاهيم الصلب والشهداء والآلام مادته الأولى . وقد وجدت المسيحية في المسرح أسلوباً لتفسير لاهوتها وتحليله وإقناع الجماهير به . وهذا هو السرّ في احتجاب المسرح عن أفـــق الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي ، فقد كانت عقيدة التوحيد من الوضوح والجـلاء

والبعد عن الغموض ، بحيث لم تكن في حـــاجة الى الأداء المسرحي » وشعائر الاسلام على بساطته ليست في حاجة الى عـازف يعزف على آلة موسيقية ، أو منشد ينشد نداءات كهنوتية ، أو تنظيم عرض مسرحي » .

هذا فضلاً عن أن « الصراع المأساوي الدرامي الذي هو حيـاة الحدث في المسرح لا يجد بيئة طبيعية في إيمان العرب ومعتقداتهم ، فالبطـل المأساوي في صراع مع الآلهة والقدر . بينما الانسان العربي في سلام مع الله الواحد الأكبر ، وفي استسلام للقدر لا يحول دون السعي ، وإن كان يحــول دون المصارعة والصراع » .

والعقلية العربية لا تتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو مـــا يتصوره اليونان الذين يؤمنون بقوى متعددة ، ويؤمنون بأن الحرب مع القدر ، وإن كانت آخرتها الهزيمة المرّة ، فـــإنها حرب تدل على شجاعة الانسان وتجبره وجبروته وعلو شأنه. أما المسلمون فيرون أن الصراع لا يقوم أصلاً مع التوحيد. ثم تحولت التراجيديا مع العصر المسيحي الى مفهوم قائم على آلام المسيح والخطيئة الأصلية ، وقـــام مفهومها على نفس الأسس الإغريقية : فكرة الإله المعذب بالقياس عليه الانسان المعذب ، وأولى مراحل الدراما الخطيئة ، وسبب الخطيئة سقوط الانسان . وان مصدر عذاب الانسان وتمزيقه هو القدر الذي يتحكم في البشر والآلهة جميعاً بحسب معتقدات الأديان القديمة » .

هذا المفهوم غريب جدًّا على الفكر الاسلامي . وهو ليس متقبلاً أصـلاً ، فليس في الاسلام خطيئة أصلية لكل البشر ، والانسان مسؤول في حدود عمله (فَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى) ، ورحمة الله واسعة لجميـــع الخطئين تقبلهم وترفع عنهم إصر الخطيئة ، وليس في الاسلام مطلقاً القدر المتحكم ، ولا تمزيق الانسان . ولذلك فإن المحاولة الحديثة التي تجري بتطوير التراجيديا بالنسبة لكل الأبطال والعظماء حتى تضعهم في هذا القالب من الصراع ، هي محـــاولة

زائفة يردها الفكر الاسلامي والأدب العربي لأنها لا تتفق مع عقيدته ، ولا مع طبيعته ومزاجه النفسي . وقد أشار الدكتور شكري عياد : الى هذه الفوارق البعيدة بين الفكر الغربي والفكر الاسلامي حول هذا المعنى حين قال : نرى أن هناك أسباباً أساسية في نظرتنا الى الحياة تجعل شخصية البطـل التراجيدي كما يعرفها الأدب التمثيلي الغربي بعيدة عن إحساسنا الأصيل، بحيث اننا قد نستمتع بمشاهدتها ، ولكن لا نستطيع أن نخلقها في أدبنا خلقاً .

ومفهوم التكفير (عن الذنب) موجود في تراثنا . ولكننا نلاحظ أن فعل التكفير لم يستعمل في القرآن إلا مستنداً الى الله (ويكفـّر عنـــكم سيئاتكم) ونفهم من ذلك أن الله يمحو ذنب الانسان التائب . وفي تراثنا كلمة هـامة هي كلمة العصمة ، والفقهـاء يقرون عصمة الأنبياء من الذنوب في نفس الوقت الذي يجمعون فيه على أنهم بشر . والنتيجة هي أننا في نظرتنا الى الحياة يمكننا أن نفهم الضعف والجريمة . ولكننا نفهم أيضاً أن الانسان يجاهد ضعفه أو ميله الى الجريمة جهاداً مستمرًّا . وأن هناك قوة عليا تسنده في ذلك . ونحن نشترك مع البشر جميعاً في اعتقادنا أن العقـــاب الذي ينزل بالخاطىء هو كفارة أو تكفير عن ذنبه . إلا أننا نعطي قيمة كبيرة لجهاد النفس ، ونرى أن القوة العليـــا تكون دائماً قريبة من هذا الجهاد . وهذا التصور للذنب أو الجريمة من الناحية الروحية يختلف الى درجة كبيرة عن التصور الغربي الذي لا يزال مرتبطاً بتراث اليونان كما نراه في تراجيديَّاتهم .

فالتراجيديَّات اليونانية حين تصوّر لنا سقطة البطل تفترض أن هناك صراعاً بينه وبين القدر ، وبينه وبين نظام الكون الذي لا يفهمه أو لا يسلم به دون فهم إلاّ حين يرى هلاكه ، أما البطل المسلم فهو أكثر وعياً بالنسبة الى دوافعه ، وأعظم إيماناً بالقدر . ولا أظن أن ذلك راجع الى أننا لم نتجاوز عصر الملاحم بعد . ففي كل أطوار حضارتنا بارتفاعاتها وانخفاضاتها لم نتصور الانسان قـــط

على أنه محكوم عليه بالخطأ ، وإنما تصورناه مركز الصراع المستمر بين الخير والشر ، وهو ميدانه والقابض على السيف فيه[1] .

ولا شك أن القصة (التراجيديا والمسرحية) وفق المفهوم الغربي ، تصادم النفس العربية الاسلامية . (أولاً) : من ناحية الصناعة والتلفيق والتهويل والأوهام . فالنفس العربية الاسلامية تؤمن بالواقع ، والواقع يؤكد أن عشرات من الأبطال لم تنته حياتهم بالمأساة . إذ أنهم لم يصادموا الأقدار ، بل كانوا مثالاً عالياً للرحمة والعطاء . وقد استطاعوا أن يقدموا لأمتهم إضافات جليلة وأعمالاً باهرة . (ثانياً) : من ناحية قسر القصة على أن تنتهي بالهزيمة . فشرط المأساة، وهي عمل فني ، وليست صورة واقعة من الحياة ، أن ينهزم فيها البطل دون حقه . وأن يهوي الانسان الطيب وينتصر الشرير . والواقع أن الحياة وفق مقاييس الحق والعدل الإلهيين لا بد أن تنتهي بانتصار الحق وسقوط الباطل والشرّ . ولا ريب أن هذا المفهوم الذي فرض على المأساة والمسرح الغربي . إنما يستمد مفهومه من التلمود ، ويرمي الى خلق جوّ دائم من التدمير والصراع ، وإعلاء قيم الباطل والشر في وجه قوى الحق والخير . وذلك ما يرفضه الفكر الاسلامي والمزاج النفسي العربي بطبيعة تكوينه . كما يرفض الطقوس الجنائزية والموسيقى والصيحات والاستعراضات الصاخبة . فهي تبدو متعارضة مع هتاف (الله أكبر) الذي به تطمئن القلوب .

---

١ - من بحث في مجلة الثقافة ١٩٦١ .

- ٤ -

ومن هنا يمكن أن نفسر في يسر . لماذا لم يعرف العرب والمسلمون المسرح . « ذلك أن العقيدة الاسلامية على وضوح أركانها وجلاء تعاليمها لا يشوبها لبس ولا غموض يتطلبان تحايلاً في التفسير . فالوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتمل الشرك ، وليس هناك أرباب ولا أنصاف أرباب كما هي الحال في الوثنية ، كذلك لا توجد عقدة يتعذر فهمها ، ولا يوجد أب ولا ابن ولا روح قدس كما هي الحال في العقيدة المسيحية »[1] .

---

١ - زكي طليمات ، مجلة المجلة مارس سنة ١٩٦٦ .

(رابعاً)

الأدب المكشوف

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الأدب العربي تيارات جديدة من نتاج المترجمات الغربية ممثلة في قصص لورنس وهافلوك أليس ، وشعر بودلير وعشرات من القصص الخليع الذي يحمل صورة الدعارة والإباحة . فلما ثار الناس حوله وعارضوه تدافع أتباع هذا المنهج يوهمون بالقول بأن الفن الصريح غير الفن المكشوف ، وأن هناك ميولاً إنسانية وحقائق دفينة تختلف عن طابع الكشف العربي . ولم يكن ذلك في الحقيقة إلا خداعاً ووهماً . ذلك أن الأدب حين ينفصل عن القيمة الأخلاقية ويتحرك خارج إطار الفكر الاسلامي الجامع بكل مقوماته ، فإنما يكون في مجموعه زائفاً ، لأنه أسقط الأصل الأصيل في ولائه ونسبه . ذلك أن الفكر الاسلامي لا يقر فنون العري ولا الصراحة في رسم الجسم أو الكشف عن العلاقات التي تقوم على غير طابع الأسرة الأصيل . ويرى أن ما سوى ذلك فهو ليس من طبيعة المجتمع الاسلامي الذي يتحرك في دائرة القيم الاخلاقية والاجتماعية. واذا كان الاوربيون قد ذهبوا في ذلك مذهباً وبلغوا فيه مبلغاً ، فإن ذلك يرجع أساساً الى أنهم لا يتحركون في دائرة الاخلاق والفضيلة ، وأنهم لا يجعلون للضوابط الدينية أهمية تذكر .

ولا ريب أن الأدب المكشوف وأدب الجنس يقوم على شخصيات تحركها الشهوات وتحكمها الغرائز والاهواء ، وتشوقها عواصف من المغريات ، وهي في تصوير هذا كله لا تستطيع أن تقدم للنفس الانسانية السوية شيئاً مما تضيفه الى

تجربتها أو يضيء لها طريق الحياة البشرية الصحيح . ولقد تعالت في الغرب الصيحات في مواجهة هذه التيارات المكشوفة ، حتى لقد أرسل الرئيس مارزايك (تشكوسلوفاكيا) الى الوزير الفرنسي (لويس بارتو) يقول : إن أبطال قصصكم الجديدة تحركهم الشهوات الوضيعة والحب الجنسي الشره ، ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا ، بل قد اجتوينا هذا الضرب من الروايات العاطلة السقيمة التي لا تطالعنا فيها سوى امرأة سليطة يحبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها الصنديد الذي تخدعه بشتى الحيل . وهكذا في دائرة بغير انتهاء . ويقول المازني معلقاً على بعض قصص الجنس : إني لأعجب لهذا الكاتب لماذا يسمي الاشياء بأبشع أسمائها ويصف ما يكون بين الرجل والمرأة بأصرح عبارة . وما ينقص أحداً أن يعرَف أسماء أعضائه أو ما يكون بين الجنسين .



ولقد تصدر بعض دعاة المنهج العلمي الغربي الوافد للدعوة الى الأدب الجنسي والأدب المكشوف وتبريره . ومنهم من ترجم بودلير ، وأكثر القصص الفرنسي إباحة . ومنهم من دافع عن حرية الانسان . ومنهم من حاول تجديد الصور الإباحية في الأدب العربي القديم، والتي ظهرت في عصور تغلب الطوابع الفارسية والمجوسية القديمة على الأدب . وقال زعيمهم عبارته المعروفة : (ليس للأدب أن يعطل عمله ليسأل عن قواعد الأخلاق) . واستمد الدعاة جميعاً مفاهيمهم وفلسفتهم من نتاج نظرية فرويد. وهو تمجيد الشهوة البدنية والتغني بلذة الجسد. وترددت مفاهيم لورنس عن احتقار العقل للجسم ، ومفاهيم أوسكار وايلد . وهكذا تستر الأدب الهدام تحت أسماء مذاهب فنية ومناهج علمية تدعو الى إطلاق الفن من قيود الأخلاق .



ولا ريب أن نظريات الجنس تحمل دعوة مدمرة خطيرة الى التحلل والانطلاق والقضاء على مختلف الضوابط والقيم في مجال علاقات المرأة بالرجل وإخراجها من مفهوم الاسلام .

- ٢ -

رفض الفكر الاسلامي والادب العربي مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد الذي يقول بأن الادب فنّ حرّ يصور النفس الانسانية ولا يتوقف عند قواعد الاخلاق ، وهذا المفهوم بطبيعته بعيـــد عن الفطرة ، ولا إنساني ، ولا يرضي الذوق أو الضمير أو المزاج العربي الاسلامي .

فالمفهوم الاسلامي للأدب يقوم على أساس أنه وحدة من وحدات الفكر الكلية ، لا ينفصل عنها ولا يستقل ، بل يتكامل ويتلاقى مع الاخلاق والدين والمجتمع ، بل إن الفن والادب في الفكر الاسلامي يلتقيان مع الدين والاخلاق، ولا يتعارضان معها ، ليؤديا دورهما البناء في حياة الجماعة والفرد معاً . وان النظرة الصحيحة تثبت أنه ليس هناك تعارض أصلاً بين الفن والدين . بل هناك تطابق واتفاق ، فإذا خالفت الفنون الدين في شيء فهي بالصورة التي تخالف بها الدين قد جانبت الحق ، ودابرت الخير ، وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق[١] .

وروح الفكر الاسلامي المتمثـل في الادب العربي يقوم على القول الكريم

---

١ ـ عن بحث للدكتور محمد أحمد الغمراوي .

دون الهجر ، وعلى الإشارة العابرة الى الأمور المبتذلة دون الكشف والافاضة في التبذل والتهتك وتصوير المحرمات الجنسية والميول المنحرفة وذلك بالقدر الذي يدل عليها . أما هذا اللون من تصوير أخفى الغرائز البشرية والتحدث عن تطوراتها وتقلباتها على النحو المثير الذي يكون له آثاره البعيدة في نفوس الشباب فهو مرفوض أصلاً .

الفصل الثالث

أخطاء الفن

(أخلاقية الفن)

أثار المنهج العلمي الغربي الوافد صراعاً شديداً في أفـــق الفكر الاسلامي والأدب العربي بين الأخلاقيات والفنون في محاولة لخلق أدب متحرر من إطار الأخلاق وأولويته خاضع لمفهوم الفن للفن ، أو إعلاء الجماليات على الاخلاقيات.

وقد جاء هذا الاتجاه في الغرب في محيط تحول خطير في الآداب والقيم انتقل به الفكر الغربي من طابع المثالية وبقايا مفهوم الدين الى نحو من أنحاء التحرر الكامل الخاضع لإطار المادية الصرفة .

أما في الفكر الاسلامي والأدب العربي ، فإن الفنون كلها تتحرك في إطار المفهوم المتكامل الجامع الذي يحول دون استعلاء الأدب أو الفن أو التربية أو غيرها باستقلاله عن الاطار الشامل . وتلك قاعدة طبيعية راسخة لا تختلف فيها وجهات النظر ، ولا تحتاج الى تأويل . فالفن جزء من العمل الفكري المتجه الى بناء المجتمع على أساس الدعائم الأخلاقية والنفسية المنبعثة من مفهوم أصيل : هو دفع العجلة البشرية كلها الى تحقيق رسالة العمران في إطـــار من التماسك والصمود . ولذلك فإن الفنان الاسلامي ملتزم بمسؤولية الهدف ، كما يلزم بها الكاتب سواء بسواء وهي مسؤولية مشتركة بين جميع أفراد المجتمع .

- ٢ -

إن الفن بمفهوم التحرر من إطـــار الأخلاق والدين (وهو مفهوم الفكر الغربي المعاصر) إنما يرمي الى تمجيد الجسد وتعظيم الأهواء وإعـــلاء طوابع الوثنية والإباحية . وهو تجديد لمفهوم الفن اليوناني والرومـــاني الذي كان مصدر إنهيـــار الحضارة الرومانية التي تداعت عند ما فصلت الفن عن الدين والأخلاق ، وتسرب إليها الانحطاط ودبت في جسمها عوامل الفناء .

والفكر الاسلامي إزاء هذه المفـــاهيم الوافدة التي يطرحها المنهج العلمي الغربي له موقف هو الاعتراف بالتباين الواضح بين أمة وأمة في فكرها وذوقها ومناهجها ، ثم هو اليقظة للغايات التي تختفي وراء الدعوة الى مفاهيم حرية الفن، وهي تتصل تماماً ببناء الشخصية الانسانية وتعمل على إفسادها وزلزلة قواها وتحطيم مقوماتها ، ودفعها الى طريق الانحراف والتحلل .

ولا ريب أن الفن بمفهومه الغربي لا يجد قبولاً في النفس العربية الاسلامية ، وإن وجد مسارب من خلال مطامع الهوى وغايات الإباحة الفردية التي تهدم الفرد وتترك أبلغ الأثر في دائرة مجتمعه .

وإذا كان العلم تحكمه مقاييس المنطق وقواعـــد العقل ، فإن الفن تحكمه ضوابط المشاعر وقوانين العواطف . فالفن ليس إذاً طليقاً من كل قيد . وليس في الوجود كله شيء طليق لا يتحرك في إطار واضح ولغاية معروفة .

- ٣ -

لا ريب أن الاطار الأخلاقي للأدب العربي هو حقيقة قائمة [١] . وأن القول بأن الأدب أو الفنَ للفن هو مفهوم وهمي إذ لا بد أن يكون الأدب أو الفن في خدمة غاية أو هدف . والأساس أن الأدب والفن خاضعان لقانون الأخلاق القائم على حراسة المجتمع ، وقد عرف الأدب العربي هدفه الواضح منذ نشأته في رحاب الاسلام ، فعرف جمال الطبيعة ، وخلق الله في الأنعام والانسان على نحو كريم ورفيـع ، ونوّه القرآن في آياته الكريمة بمفاتن الطبيعة الساحرة ولفت إليها الأنظار والأفئدة ، ونزه العاطفة بين الرجل والمرأة عن الشهوات الصاخبة والأهواء العاصفة إذ أدارهـــا في دائرة أصيلة ثابتة « وتنزه الحب في الأدب العربي عن شهوات الجسد واستعذب ابطاله ألم الحرمان واستعاضوا بمتعة الطهر عن المتع الارضية ، وبالوصال الروحي عن الوصال الجسدي ، ووجـــدوا في الوفاء المتبادل أنبل غايات عاطفتهم السامية » . وعرف الفكر الاسلامي والادب العربي الجمـــالَ بمعنى أرحب وأوسع وأكثر عمقاً من مفهوم الادب الغربي ، فلم يقصره على لذة الغريزة أو لذة العين أو لذة السمع ، بل اعتبر أن الجمال المعنوي لا يقل عن ذلك بل قد يزيد عليه ، وأن على الاديب أو الفنان

---

١ - من بحث للدكتور محمد سعيد البوطي .

إذا تناول الجمال أن يقدمه في أسلوب كريم ولفظ عفيف[1]. ورسالة الأديب المسلم والفنان المسلم هي « تصحيح النفس الانسانية في الوجود ونفي التزوير عنها وتخليصها مما يتلبس بها من أدرانٍ ، ونفي الوثنية عن الفكر والسموّ بها » .

١ — من بحث في مجلة المعلم العربي .

- ٤ -

إن محاولة البحث في العلاقة بين الجمال والأخلاق ، أو بين الفن والاخلاق هي من القضايا التي كانت موضع اهتمام المنهج العلمي الغربي الوافـــد ، نتيجة لأساس أصيل في هذا الموضوع . ذلك هو قيام الانشطارية والاستقلالية الكاملة بين العلم والفن والاخلاق والسياسة والنفس وغيرها من المناهج الفكرية المختلفة. ومن هنا فقد كان لا بد من البحث عن وجوه الالتقاء والاختلاف بين هذه المناهج المنفصلة أساساً .

أما في مجال الفكر الاسلامي فإن الأمر يختلف . ذلك أن هذه المناهج كلها ليست إلا خيوطاً لنسيج واحد هو الانسان . والمنهج العلمي الاسلامي يقوم على الوحدة والتكامل بـــين هذه المفاهيم . ولا يعتبرها مناهج مستقلة . ولكنه يعتبرها عناصر في جوهر واحد . ومن هنا فإن الفكر الاسلامي يواجه بالدهشة محاولة المقارنة والبحث عن العلاقة بين هذه العناصر التي هي في أفقه متكاملة متوازنة .

فالطابع الاخلاقي هـــو قانون أساسي شامل لا يستوعب الفن أو الادب وحدهما . ولكنه يستوعب السياسة والاجتماع والتربية والاقتصاد ، حيث يعجز أي عنصر من هذه العناصر أن يتحرك خارج الإطار الجامع ودون تقدير للعلاقة الواضحة بين القيم ، ومن هنا فليس هناك مـــا يسمى بإخضاع الفن

للإخلاق ، أو استقلال الفن عن الخضوع للأخلاق . و كذلك الجمال فإنه أخلاقي المصدر والفهم والاتجاه .

وقد يذهب الفكر الغربي الى أن يشهد علمـــاء الجمال حرباً ضروساً ضد الاخلاق على حد تعبير شارل راولو ، وقد يذهب البعض الى القول بأنه ليس هناك كتاب أخلاقي أو غير أخلاقي (كما يقول أوسكار وايلد ويردده عشرات من دعاة التبعية للفكر الوافد) ، بل إنه مكتوب كتابة جيدة أو رديئة ، فذلك الذي يقوله زولا واوسكار وايلد وغيرهم ، مما لا يحمل الادب العربي تبعته ولا يخضع له . وليقم الصراع شديداً أو يسيراً بين الجماليين والاخلاقيين وليحفر دعاة الماسونية ورجال التلمودية هوة عميقة بين الفن والاخلاق ، وليتابع ذلك من يكتبون بالعربية أمثال محمد مندور وتوفيق الحكيم وغيرهما ليقولوا إن الفن للفن لا علاقة له بالمسألة الأخلاقية ، وأن الفن غاية في ذاته لا محل للحكم عليه حكماً أخلاقياً . فكل هذا ومثله لا قيمة له في ميزان الفكر الاسلامي والأدب العربي ، ولا يخدعنا لحظة عن مفهومنا الأصيل الجـــامع الذي يفهم الفن منطلقاً الى الخير في أحسن أداء دون أن يحوجه ذلك الى الخوض في الشهوات والآثام .

إن النفس الإنسانية في مفهوم الفكر الاسلامي تتطلع بالفـــن الى السموّ والارتفاع والاستعلاء على الأهواء ، لا أن يردها الفن الى حمأة الإثم والفاحشة . وهي توازن بين المادي والروحي . وتجعل أولية الخلقي على الجمال . والقيم في ثقافتنا فوق مفهوم الفن بمفهومه الحرّ المنطلق . ذلك أن الثقافـــة العربية هي ثقافة القيم ، أما ثقافة الغرب والإغريق فهي ثقافة المتعة . فقد أطلقوا الجسم للعري وقدموا الجمال بمفهوم الشهوة على الخير والأخلاق .

- ٥ -

إن محاولة تحرير الفن من كل قيد ، وإعفاءه من كل قانون ليحقق عنصر الجمال هو مفهوم وافد غير أصيل . وهو في نفس الوقت ليس علمياً ولا يتفق مع الفطرة « ذلك أن الحرية المطلقة ليست هي الجمال ، إن الضوابط في الفن هي روح النظام ، والحرية المطلقة تبث روح الفوضى . والقبح في الفن هو الفوضى ، ولا بد للفن من قيود المواصفات التي هي بمثابة المقاييس التي تحدد القيم الجمالية . ذلك أن الفن له هدف وتصميم وخط سير وخطوات .

والفن يعتمد على ملكة التنظيم ، وكل فن يخلو من عمل هذه الملكة التي تربط بين الظواهر ، وتوفق بين الخواطر ، وتنسق المشاهد لا يعدُّ فنًّا »[1] . ويتسم الفن الاسلامي بالبهجة والرونق الجميل . ويتميز بمفاهيم خاصة ، تختلف اختلافاً تاماً عما اتجهت إليه مفاهيم الفنون الأخرى ، ولقد كانت الفنون اليونانية تبدأ بالتمثال المجسم ، أما الاسلام فقد قلب قائمة الفن رأساً على عقب ، ووضع (البيان) على رأس القائمة . فعالم الفكر والتأمل أوسع العوالم (نٓ. وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) .

« لقد[2] بدل الاسلام الرسم من محاكاة الطبيعة الى خدمة الأدب والتعبير

---

١ – من بحث لأحد الباحثين .

٢ – من بحث لمحمد عبد العزيز رزق .

عن المعاني فأوجد أنواعاً جديدة من الخطوط . فقـــد هجر الاسلام التماثيل المنحوتة ، ووقف بجانب البيان والموسيقى وفن التمبير » .

« والفنان المسلم يعلم حق العلم أن الفن ليس تقليداً للطبيعة كما زعم أرسطو ، ولا هو تسلية ولهو محض كما زعم غيره . بل إن الفن عند المسلم كما كان وقت ميلاده جبيرة للنشاط غير المطلوب في الغريزة الجنسية ، كابحـــاً لجموح الغرائز ومحولاً قواتها واندفاعاتها الطاغية الى مسالك الخير ومطالع النور » .

« ولقد أبدع الرسام المسلم في رسوم الأشخاص والحيوان والطير ، دون أن يكرر نفسه ساعياً الى تهذيب المنتج وتجميله دون أن يتقيد بعناصر معينة . كما أنه نظر الى الطبيعة نظرة واعية ، وأخذ عنهـــا معانيها الخالصة مجردة عن كل ثانوياتها » .

وكان هدف الفن عنده هو تجميل الحياة ، التجميل ينقل العناصر الزخرفية عن الطبيعة بالتصرف والتهذيب والتحوير . وفي نطاق الاستمتاع بالجمال والزينة في دائرة الاعتدال في وجه تهذيب الذوق وتربية حاسة الجمال . وكان رائده منهج القرآن : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) . ولقـــد تمسك الفكر الاسلامي بفكرة أن مهمة الفن هي السمو بالأخلاق وإعـــلاء النفس الإنسانية والتسامي بالغرائز .

- ٦ -

إن موقف الإسلام من الفن في مواجهة المنهج العلمي الغربي الوافد واضح وصريح . ذلك هو أنه « ما دام العلم والدين كليهما قد اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة ، فإن هذه الفنون إذا كانت من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الإسلام في شيء . فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمنا الى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لمحاربتها ، وعاقت الانسان أن يعمل بالفضائل التي جاء الدين لإيجابها على الانسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا أو في شيء غير هذا ، فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق . إذن لا بد أن يكون بين الفن والأدب والعلم وبين الاسلام تمام التطابق والاتفاق . ويصل الى هذا المعنى كثير من الباحثين وفي مقدمتهم مؤلف كتاب الفن الاسلامي الذي يرى أن التصور الاسلامي للفن يبدأ من الله سبحانه وتعالى الى الوجود في كل صوره واشكاله وكائناته وموجوداته . ويعنى عناية خاصة بالانسان خليقة الله في الأرض . ثم يعود الى الحقيقة الإلهية التي صدر عنها فيكون تصويراً سليماً كاملاً شاملاً في خشوع لله وتقوى ومراقبة له ، وفيه حبّه والتطلع إليه والاطمئنان الى قدرته ، على حين تقف أوربا عند الموروث الإغريقي الذي يصور الآلهة في صراع مع البشر أو صراع فيما بينها ، ومفهومها

هو أن الانسان في صراع مع الكون جماده ونباته وحيوانه، بينما في الاسلام تقوم الصلة بين الانسان والكائنات على القربى والمودة والتعاطف والتعاون في ظل ناموس (الله الأكبر) .

والانسان في مفهوم الاسلام قبضة من طين ونفحة من روح الله ، وهو غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر في أية لحظة من اللحظات ، وهو ليس حيوان الدارونية ولا ملاك البوذية والهندوكية .

والجنس أساس في الانسان والجماد والحيوان والنبات ولكنه وسيلة لا غاية . وسيلة لحفظ النوع ، وفي الانسان لحفظ النوع وتربيته ، والحب طاقة واسعة ، والجنس لون منها فحسب ، منها حب الإله وحب الكون وحب الانسان . وليس كل الناس هابطين . هناك أبطال وأنبياء وعلماء مصلحون وشهداء الى جانب الأغنياء والرعاع والشهوانيين .

والواقعية في التصور الاسلامي هي التي تقدر الانسان حق قدره ، وتصور جانبيه ، وليست واقعية أوربا التي تعكف على الجانب الحيواني باسم الواقعية (حيوانية دارون ومادية ماركس) .

---

١ - بتصرف عن نص للدكتور محمد أحمد الغمراوي (الرسالة م ١٩٣٨) .

- ٧ -

هناك حقائق أربـع لها أثرها في الفن الإسلامي :

الأولى : اليقين باليوم الآخر ، يوم الحساب ، والخضوع لله عز وجـــل ، والعمل بما جاء به القرآن، والنظر الى النبي كبشر يوحى إليه اصطفاه الله لتبليـغ رسالته . هــذا هو منطلق مفهوم الفن الاسلامي ، بالإضافة الى مفهوم الاسلام للحيــاة وكراهيته للترف والأواني الذهبية والجوهرات وكنوز القصور وتحف المعابد ، فضلاً عما كان لفكرة اليقين بيوم الحساب من أثر في خلق روح التواضع في بناء المسجد . فحلت المحـــاريب في الإسلام محل الطقوس والزخارف والأغاني .

- ٨ -

ويشير الدكتور عماد الدين خليل الى عوامل الاختلاف العميقة بين الفن الاسلامي والغربي نتيجة لاختلاف العقائد والقيم فيقول : إن الجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود ، والجمال ليس ضرورة ، بل زائد عن الضرورة . والكون خاضع لناموس ينظم حركاته وينسق عناصره وطاقاته ، هذا الناموس نظام وليس ضرورة ، والنظام عنصر من عناصر الجمال في الكون وإن لم يكن هو ذاته الجمال ومظاهر النظام : الدقة والتناسق والتوازن والترابط وخفة الحركة .

« وأوربا لم تر في مجال الجمال إلا الجمال الجسدي فعكفت عليه وحده . فنخرها السوس ، وعجزت عن فهم الجمال الأكبر المستمد من ناموس الكون . وهو الذي ينبغي أن تمارسه الفنون الانسانية الرفيعة .

والقدر في الفن حقيقة هائلة رهيبة . والبشر لا يحسونه وهو سائر معهم في التيار . وإنما يحسونه وهو معاكس لهم . لذا عالجته الفنون البشرية منذ القدم في ثوبه الفاجع العنيف . ولا سيما الأدب اليوناني الذي أفسح له رقعة واسعة من لوحته الفنية زاد من قساوتها وعنفها تصويرهم للآلهة بصورة شهوة التجبر المحموم والفسق المنحرف ، ثم انحرفوا فصوروا القدر قوة عمياء لا ترحم الآلهة نفسها .

« ثم جاءت الواقعية الأدبية التي جنحت عن معالجة القدر المتلفع بالغيب ، واستبدلت به قدراً آخر في صورة محسوسة ملموسة كقوة الطبيعة أو قوة المجتمع أو الدولة أو الطبقة . وهكذا أصغرت من قيمة الانسان حين أصغرت من قيمة الإله ، وتعبدت للآلهة الجديدة » .

ولا ريب أن إيمان المسلم بالقدر يدعوه للعمل الدائم في كل لحظة بلا قلق ولا جزع ولا اضطراب . هـــذا التصور ينشيء فنـّا يختلف عن اختلالات الفن اليوناني .

فالعقيدة في الله هي أضخم الحقـــائق في حياة الانسان (المسلم) ، كما هي أضخم الحقائق في كيان الوجود .

والفن الصحيح لا يمكن أن يغفل هذه الحقيقة . لذلك ينبغي أن يبرز الفن حقيقة العقيدة بمقدار ما هي حقيقة كونية عميقة شاملة . وينبغي أن يرسم من خلالها كل حقائق الحياة .

وجملة القول في هذا : ان الجمال في الفن الاسلامي هو جمال المضمون (مـع حسن الأداء) ومن أجل هذا فليس كل موضوع صالحاً للفن ، والجمال ليس دائماً نشوة ترتبط بالغريزة الجنسية ، وان القول بذلك يتعارض مع أدق أصول المفهوم الاسلامي للفن ، هذا المفهوم الذي يقوم على أساس أن الجمـــال أداة من أدوات المعرفة والإيمان ، لأنه في مهمته الأساسية يكشف للانسان عظمة الخالق .

ومن هنا يجيء الخلاف الجذري بين المدرسة الاسلامية والمدرسة الغربية التي يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يفرضها .

ولقد خضعت مفاهيم الفن والجمال والأخلاق في الغرب للمدرسة الاجتماعية السائدة القائمة على أساس المذهب المادي ، والتي تحولت من مفهوم الى مفهوم .

بينما يقف الفكر الاسلامي على قاعدة الثبات في ربطه بين الروح والمادة والدنيا والآخرة.وأخطر ما يساق إليه المنهج العلمي الغربي الوافد هو تفسير الانسانيات بمذهب المادة المنكرة للروح والنفس والدين والغيب . وأخطر مـا يقع الخلاف فيه : الذوق الذي لا يفهم في إطار المنهج المادي إلا فهماً محدوداً ناقصاً . وكيف يمكن للمنهج المادي وليـــد المنهج التجريبي أن يفهم المواهب الفطرية والغرائز والانفعالات والعواطف والأمزجة إلا على أنها ذبذبات يحدثها الجسم . وذلـك فهم يجعل القاعدة في فهم الجمال والفن مادية مغرقة في القصور والانحراف عن طبيعة الانسان الجامعة المتكاملة .

- ٩ -

إن موقف الفكر الاسلامي من مفهوم « الطبيعة » معارض لموقف الفكر الغربي معارضة كاملة . وأبرز ما يناقض فيه الفكر الاسلامي مفهوم المنهج العلمي الغربي الوافد . نظرية المحاكاة أو التقليد التي هي أساس الفن الاغريقي ، وما يتبعها في العصر الحديث من دعوى القول بتجميل الطبيعة . والفكر الاسلامي يصدر في هذا عن مفهوم أساسي واضح هو التوحيد والإيمان بالله الخالق إيماناً عميقاً يرى به عظمة الخلق وكماله . عظمة وكمالاً لا تعجز كل إنسان عن محاكاتها أو سبقها أو تحسينها .

ولا ريب أن هذه المفاهيم كلها مما يقف منها الفكر الاسلامي والأدب العربي موقف الإنكار والرفض الكامل .

والاسلام يرفض أساساً نظرية أرسطو التي انتقلت مع الفلسفة اليونانية الى الآداب الغربية ثم طرحها المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي .

لقد[١] قرر الاسلام وأكد التحريم القاطع للنقل المباشر من الطبيعة ، ذلك النقل الفج الذي يعيد نسخ المخلوقات الحية على سطوح الجدران والمعابد واللوحات . وينبثق هذا التحريم عن فكرة (التحرر الوجداني) العميقة الشاملة التي أراد بها الاسلام أن ينقل المسلمين من عصور الوثنية والتعبد للقريب الملاصق الى سماوات التوحيد الخالص .

---

١ – الدكتور عماد الدين خليل في بحث مطول عن الطبيعة .

ومن هنا فقد رفض الفن الاسلامي النقل المباشر من الطبيعة وفتح الطريق أمام التجريد وإعادة الصياغة .

« والفنان المسلم يحمل موقفاً عادلاً ومزدوجاً تجـاه قضية الفن والطبيعة . يحمل رفضـاً للنزعة الشيئية المباشرة التي عبرت عن نفسها بالمذاهب الواقعية والطبيعية . لأنها تقوده الى التقليد والنسخ . وتقضي على الابداع والابتكار . ولأنها تخضع عنق الانسان لقوى الأرض وطينها . وتمنعه من التطلع الى السماء ، الى الآفاق البعيدة ، الى ما وراء الملموس والمنظور ، ولأنها تحيـله الى آلة رصد وتسجيل وتصدّه عن تفجير إرادته وإبداعه لصياغة مادة الأرض وفق مـا يطمح . كما أن هذه النزعة تقوده بالضرورة الى الإذعان لفكرة أن التخبط في الوحل والتمرغ في القمامة والركض وراء نداءات الجنس والطعام فيراها القضايا الأساسية ، وربما الوحيدة التي يجب أن يدلي الفن بدلوه فيها .

ويقف الفكر الاسلامي في دائرة الفن من الطبيعة موقفاً أصيلاً . فإن الطبيعة ليست نقيضاً عدائياً للانسان . بـل هي الأرضية التي تعده بالرفعة ، وبتحقيق مزيد من إمكانياته البشرية – مـادية وروحية ، حسية وجسدية ، عقلية ووجدانية – وعندما دعا القرآن الكريم الناس الى التأمل في الطبيعة لم تكن دعوته هذه تنصب على الجانب التجريبي النفعي العملي من أجـل استغلال كنوز الطبيعة لامكاناتها فحسب ، وهو ما يهدف العلم إليه ، بل رافق هـذه الدعوة توجيه الى الجانب الانفعالي الجمالي من أجـل تنمية وتهذيب الإحساس البشري ورفعه الى الدرجة التي يستحقها الانسان . ذلـك أن الطبيعة هي التشكيل الإلهي الفذ الذي لا بد وأن يقود الانسان السويّ الإيجابي الفعـال ، عالماً كان أو فناناً ، في الطريق الى الله . والانسان المسلم يعبد الله في شتى فاعلياته الحياتية [1] .

---

١ – محمد قطب في كتابه الفن الاسلامي .

وجملة القول ان الفكر الاسلامي (والفن جزء منه) لا يقر فكرة المحاكاة ، أو التقليد ، أو عداء الطبيعة التي يدين بها الفكر الغربي ، ويرفض رفضاً باتـًّا ما يقوله أرسطو من أن الفن يصنع ما عجزت الطبيعة عن تحقيقه « فالطبيعة ليست في كل أشكالها سوى صور من خلق الله وقدرته الفذة المعجزة » . ومن ثم فإن القول بأن الطبيعة قد عجزت عن الكمال ، إنما يصدر عن نفس عجزت تمام العجز أن تستشرف عظمة الكون ، وعن غرور داخلي يرى أن الانسان قد يستطيع أن يحاكي الطبيعة ، أو يخلق خيراً منها ، أي أنه يتفوق على صنعة الله وأنى له ذلك .

ولا ريب أن النفس المؤمنة ذات الفطرة الصافية تردّ مثل هذا المفهوم وتزدريه ، حيث ترى عظمة الخالق في بناء الطبيعة على نحو معجز أخاذ (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ، ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) .

وان هذه النظرة الغربية الوثنية ترجع الى مصادر قديمة في الفلسفة اليونانية ، تقوم على أساس الصراع بين الانسان والطبيعة ، ثم تحولت الى ما يفهم منه استنقاص الطبيعة ، والدعوة الى استكمال نقصها كمحاولة للسيطرة عليها . وهو ما سيظل يعجز الفكر الغربي دوماً ، وذلك موضع الخلاف البعيد العميق بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي الذي يقف وجهاً لوجه ضد إرادة الله .

ولا ريب أن فن النحت وتصوير الطبيعة ومفهوم الفن بعـــامة في الفكر الغربي له طابعه الوثني، بالإضافة الى أن مفهوم الأدب وهمٌ ينبثق من تصور خاطىء لموقف الانسان من الله ومن الكون، ويقوم على نظرية الصراع القائم بين الانسان والطبيعة والانسان والآلهة، والغرور العميق الذي يصور للفنان أن عمله خالد في عالم فانٍ يزول فيه الانسان والأشياء. بينما لا يؤمن الفكر الاسلامي بـأيّ نوع من الصراع بين الله والانسان وبين الانسان والطبيعة. أمـــا بالنسبة لله فعبودية وإقرار وإخبات. وأما بالنسبة للطبيعة فإعجـاب بقدرة الله لا يحدُّه حدٌّ ومعايشة لكل خلق الله ومعطياته.

ولا ريب أن نظرة الفن الغربي الى الفن والطبيعة هي أشد صور الوثنيـــة والانحراف عن مفهوم الفطرة الأصيل.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: حذار أن يخطر له يومـاً أنه في معطياته الفنية، إنما يناقش خلق الله لكي يكوّن ما هو أفضل منه، أو أن يسعى جاهداً لإكمال النقائص التي لم يستطع خالقه أو الآلهة إتمامها كما توهم بعض الغربيين «لِيَفْعَلِ الفنانُ ما يشاء ولكن حـــذارِ أن يتجاوز طريقه المستقيم كالسهم صوب رفضٍ وعداءٍ للطبيعة ومحاولة للتفوق عليهـــا وعلى صانعها أو صوب إعجاب بها يتجاوز لحظات الاستغراق والتأمل الى الإجلال والتقديس والعبادة» وذلك أن مفهوم الفن الاسلامي يرى أن الطبيعة من صنع الله الواحد الأحد وأنها تزدري كل عقل وفكر ونفس تريد أن تسمو فوق كمالهـا واعجازها. وهي في نفس الوقت مخلوقة بقدر، وقائمة الى أجل مسمى، فـــلا هي تزدرى، ولا الانسان بقادر على أن يقلدها أو يحاكيها أو يستكمل منها ما يراه النظر القاصر نقصاً، ولا هي موضع عبادة أو تقديس.

وللفنان المسلم آفاق أخرى غير الطبيعة يعمل فيهـــا من طراز الخطوط والأشكال التجريدية الهندسية بعيداً عن الوثنية قريباً من التوحيد.

خاتمة

إن للمنهج العلمي الغربي الوافد محاذير خطيرة . هي في ذاتها دقيقة ربما تخفى على النظرة العجلى . وربما تخيل للبسطاء والذين لم يتعمقوا اصالة الفكر الاسلامي أن يروها من الهنات الهينات. ولكنها إزاء النظرة العميقة تكشف عن مخالفتها للفطرة ومعارضتها للتوحيد .

والقصة هي أخطر هذه الفنون محاذير وأخطاراً . لأنها محاولة معارضة لواقع الحياة ، في محاولة لخلق عالم آخر وهمي غير العالم الحقيقي . ولما كان الفكر الاسلامي لا يرضى بغير الحقيقة بديلاً ، ويرفض العوالم الوهمية ، فإنه يرفض القصة كما يرفض الفن الوثني الذي يحاكي الطبيعة أو يقلدها .

لقد كانت القصة في الأدب الغربي هي التعويض عن الواقع المؤلم والبديل عن عطاء الدين . وكانت المحاولة لمعالجة المشاكل الاجتماعية في مجتمع لا يصدر عن أثاث ثابت . ثم هي التفريج الكاشف عن الغرائز والرغبات والأهواء الى الحد النهم الذي يتطلع فيه الانسان الى أن يعرف أسرار النفوس فهي على حد تعبير (ر. م البيرلس) تقدم المتع الطفولية وتقوم بدور الكاهن المعروف والمشرف السياسي وخادمة الأطفال . وان تاريخها هو تاريخ اطراح الحياء ، وان أعمق بواطن الكائن وأهمها وأشدها سرية هي الهاوية التي جذبت نحوها الرواية . وانها تقوم بدور مصاص الدماء . وان الرواية هي مرض الانسان . هذا الانسان الذي لا يكفيه ضميره . بل ينبغي أن يقدم له إغراء انتهاك ضمائر أخرى وتجعله يعيش حيوات أخرى . لقد حلت الرواية محل فكرة الأبدية[1] .

---

١ - الرواية الغربية : البيرلس ترجمة جورج سالم .

والرواية هي بديل الفراغ الروحي والنفسي الذي تعيشه النفس الغزبية بعيدة عن مصادر الإيمان والدين واليقين . ومع ذلك فهي لا تقدم إلا الخيال الوهمي ، أما قصص القرآن فإنه يقدم الصدق الذي لا تتسرب إليه ذرة من الهوى أو الوهم .

لقد علم القرآن المسلمين الحقيقة اليقينية ، بينما علمت القصة الناس أن الحياة عبث ومجون « إن القصص التي تكتبها الشعوب الأوربية ليست سوى أنّاتها وصرخاتها من مشاكلها المعقدة التي لا تجد لها خلاصاً اليوم . إن عقدة القصة الأوربية تنحل من فورها في ضوء المجتمع الاسلامي وبمقياس القواعد والآداب الاسلامية . لأن هذه العقدة تتجمع خيوطها دائماً في ظل مشاكل لا وجود لها في عقل المسلم . « وليس من اللذة العقلية عند المسلمين أن يقرأوا في القصص شروحاً مفصلة تجريدية لحياة أهل الخلاعة ، وما تصنعه البغايا في خلواتهن . فهذه لذات مرضى النفوس من ذوي العقد الجنسية .

ولقد جنت القصة في الواقع على أخلاق الأمم أكبر جناية لأنها قربت الى الأذهان أفكار الاستهانة والتغلغل في السقوط الأدبي . بل التمست للمستهترين والمتحللين أعذاراً ما كان أحدهم يستطيع أن يلتمسها لنفسه منفرداً . « فما نون ليسكو وذات الكاميليا وغيرها من القصص التي تلتمس الأعذار المسمومة للساقطين والساقطات نجدها قد أثرت تأثيراً بالغاً في عقول النشء فجعلتهم يستهترون ويسرفون وينتحرون . « وقصة تاييس : متاجرة بالغرائز وأشادة بالأبيقورية واهتمام باللاأدرية . تقدم على لذة الشك وصورة العراء ومخاطبة الغريزة ، تحاول أن تغري بالمناقضة مناقضة الجسد الذي يستسلم للشهوات وتبقى النفس طاهرة[1] . وقد تولى الترجمة « قوم عمدوا الى حقن الشباب المسلم بداء المعتقدات الفاسدة سعياً وراء نفس الأغراض التي يسعى إليها رجال الإرساليات .

---

١ – أحمد صبري : مجلة الأنصار ١٩٤٤ م .

يقول المازني : اقرأ للأستاذ (يقصد طه حسين) قصصه التي ترجمها ، هل كان همه نقل الفصاحة الافرنجية الى قراء اللغة العربية ، أو نقل الصورة الفاضلة في ثيابها المصونة . إنما كان همه مدح الخيانة والاعتزاز بالخونة وتصوير الخلاعة والمجون في صور جذابة ، ليقضي بهذه الترجمة حقّ الإباحة لا حقّ اللغة ولا حق الفضيلة[1] . وفي قصص دافيد كوبر فيلد (جي دي موباسان) والبؤساء (فكتور هيجو) والجوع (كنوت هامزن) أنات مكبوتة ، وصرخات الجياع ، وصورة الحرمان ، وغلظة القلب إزاء اليتيم . أغراض الخلل العقلي نتيجة الجوع ، رجل يسرق رغيفاً ليعيش . كل هذا يبدو غريباً في أمة تعرف الرحمة والعطاء والزكاة والمروءة ، ولا يجد طريقاً الى عقولها أو قلوبها .

وهكذا تستغل القصة والفن والمسرح لكي تطرح في أفق الفكر الاسلامي ، ومجال العقل الاسلامي مفاهيم مخالفة ومعارضة لمفاهيمه الأصيلة . وأخطر ما في ذلك كله هو يسر وصول هذه المعطيات الوافدة والزائفة الى الناس عن طريق الإذاعة والسينما والمرناة والقصة .

إن قصص جان بول سارتر وألبير كامي وصمويل بكيت ويونسكو تطرح في أفق الثقافة العربية مفاهيم التشاؤم والشك والعبث والرفض والتمزق . كل شيء قائم وكل شيء مزعج رديء ، مقبض ، لا قداسة لشيء ، ذلك مفهوم الوجودية الذي يلقي بظله على الأدب الغربي كله والقصة والفن ومفهوم الجمال .

ولا ريب أن ذلك الركام الهائل الذي يقدمه المنهج العلمي الغربي الوافد من الكتب والقصص والمسرحيات والدواوين والمترجمات التي تفرض آراء ومذاهب تحمل روح الغرب وقلقه في أقسى مراحل أزمته الحضارية والنفسية والاجتماعية حين سيطرت التلمودية عليه واحتوته ودفعته الى الصدور عن كل ما يهدم روح العزيمة والأمل وقوة الشخصية وفقدان العنصر الأخلاقي . كل هذا يتعارض مع

---

١ - قبض الريح .

روح الأدب العربي وطابعه ومزاجه ومضامينه ، ذلك أن الأدب العربي يقوم على عناصر أساسية هي التوحيد والأخلاق والإيمان ، وهو دعوة الى الحـــق والخير والعدل . والأدب العربي أدب رسالة إنسانية ، ودعوة سماوية خالدة حملها أول كتاب أدبي . والأدب العربي هو الأدب الوحيد الذي يحمل في طياته كتاباً إلهياً بلغ درجة الاعجاز في البيان ، ووضع الأسس الأولى للأدب، ووجّه الانسان أصدق وجهة نحو الهدف الاجتماعي والانساني والرباني جميعاً . كل هذه الأسباب تجعل الأدب العربي له طابعه المميز الذي لا يمانع في طوابع الآداب الأخرى ولا ينطوي ولا يحتوي ولا ينصهر ، والذي يتميز بأنه أدب له ذاتية ربانية المصدر إنسانية المحتوى .

الباب الرابع

أخطاء مفاهيم الاجتماع والنفس والتربية

أولاً — مفاهيم الاجتماع

ثانياً — مفاهيم الأخلاق

ثالثاً — مفاهيم النفس

رابعاً — مفاهيم الوجودية

خامساً — مفاهيم التربية

الفصل الأوّل

أخطاءُ مفاهيمِ الاجتماع

إن أخطر ما طرحه المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي هو مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية التي تقول بأن العلوم الاجتماعية علوم تجريبية ، وأن كل ما يتصل بالانسان والنفس والأخلاق والاجتماع هو من الأمـــور التي تخضع لمناهج العـــلم المادي دون أدنى تقدير للجوانب النفسية والروحية والوجدانية ، والتي تشكل السلوك والأحاسيس والتصرفات ، والتي تتصل أساساً بالعقائد ، وترتبط بالإيمان بالله والنبـــوة والغيب واليوم الآخر . ولقد وجدت هذه الدعوة معارضة شديدة ، وأثبتت الأبحاث العلمية عجز المناهج التجريبية المطبقة على المادة وعدم قدرتها في الحصول على نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الانسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

وتستهدف هذه النظرية التي يطرحها المنهج العلمي الوافد القضاء على الشخصية الفردية قضاءً تاماً على أساس من الجبرية الاجتماعية التي تحاول القول بأن الانسان محكوم بعدة من العوامل هي التي تدفعه فلا يستطيع منها فكاكاً . وهي بذلك تحاول القضاء على مفهوم المسؤولية الفردية الذي هو منـــاط الجزاء في الفكر الاسلامي .

- ٢ -

كذلك يحاول المنهج العلمي الغربي الوافد عن طريق مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية أن يطرح مفهوماً تاريخياً خاطئاً ينكر أصالة قيام الأسرة منذ العهود البشرية الأولى (وهو يستمد هذا من بعض نتائج علم الأنتروبولوجيا كما استمد منه مفهوماً آخر زائفاً هو أن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد) .

وفي مفهوم الاسلام أن الأسرة تكونت في بداية البشرية . ولم يخل منها جيل من الأجيال . (ولا يعترف الاسلام بأي نظرية عن تطـــور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة في عهد البشرية الأولى ، ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادي) ، والقرآن يقرر أن الأسرة نظام بشري أصيل : (يَا أَيُّها ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً) .

ولا ريب أن محاولة المنهج العلمي الغربي الوافد من طرح هذه المفاهيم في أفق الفكر الاسلامي ، إنما ترمي الى التشكيك في أصالة هذا النظام توطئة للدعوة الى القضاء عليه على النحو الذي يحدث في بعض المجتمعات وتتعالى به صيحات رجال مدرسة العلوم الاجتماعية الذين يقررون أن الأسرة ليست من الفطرة البشرية .

ولقد علت مثل هذه الصيحات علي مر الزمان ، ولكنها فشلت جميعها فشلاً

ذريعاً لأنها عارضت الفطرة والحقيقة التاريخية معاً . وقد عجزت كل المحاولات في القضاء على الأسرة ، وسيظل نظام الأسرة ثابتاً مكيناً ، وان أي نجاح يتحقق لخصومه في القضاء عليه ، فسيظل عملاً جزئياً يسقط بمرور الزمن ، ولا يأخذ صفة الشمول أو الاستمرار .

ويرى الدكتور علي عبد الواحد وافي : أن مدرسة العلوم الاجتماعية تظن أن نظام الأسرة قائم على دوافع الغريزة وصـــلات الدم ومقتضيات الطبيعة الإنسانية ، ولذلك فهم يعالجونه غير عابئين بالعلاقات التي تربطه بمعتقدات الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقي . والرأي في مفهوم الفكر الاسلامي أن نظم الأسرة « تقوم على مصطلحات وقواعد تختارها المجتمعات . وأنها لا تكاد تدين بشيء لدوافع الغريزة . بل إن معظمها ليرمي الى محاربة الغرائز أو توجيهها . والواقع أن نظم الأسرة ليست من صنع الأفراد ، ولا هي خاضعة في تطورها لما يريده لها القادة والمشرعون . والواقع أن نظام الأسرة في أمة ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعتقدات هذه الأمة وتقاليدها وعرفها الخلقي وتاريخها ، وما تسير عليه من نظم ، وما تمتاز به شخصيتها وما يكتنفها من ظروف شتى في فروع الحياة » .

- ٣ -

كذلك جاوز الفكر الاسلامي محاولات القول بأن الدين نظام اجتماعي قابل للتطور مثل الجماعة في تاريخها من تشريع وأخلاق . وهو بعض مـــا ردده فلاسفة أوربا من خـــلال حملاتهم على تفسيرات المسيحية . ومنهم أوجست كونت .

ولما كان الاسلام ليس ديناً وضعياً . وإنما هو دين إلهي موحى به من السماء . فإن الأمر بالنسبة اليه يختلف مع العقائد الوضعية التي تأخذ في حسابها عامل التطور لتستطيع أن تجاري الزمن أو تلائم البيئة .

أما الاسلام فإنه قد أحكمت آياته على نحو يجعله صالحاً لكل الأزمان والعصور والبيئات ، لأنه جاء على نحو من المرونة واتساع الأطر ، وملامسة الفطرة البشرية . وصدر عن معرفة كاملة بالإنسان في تركيبه وتكوينه وسلوكه، ومن هنا فهو لا يحتاج الى التطور . ولذلك فإن التساؤل الذي يثيره البعض بالقول : هل الشريعة الاسلامية قابلة للتطور ؟ هذا ما لا يتفق مع المجتمعات الاسلامية . فالشريعة الاسلامية شريعة إلهية لا يمكن أن يطورها البشر الذين هم أقل قدرة على استيعابها ، وحيث تتطور العقائد الوضعية بأيدي أتباعها لأنها من صنع عقولهم يختلف الأمر في الاسلام حيث يتطور البشر ليلائموا بين أنفسهم وبين هذه الشريعة الأصيلة الثابتة الجذور والقواعد . ولا يمنع هذا من القول بأن أسلوب العمل والتطبيق والأمور الفرعية قابلة للتجديد في إطار الثبات ، ومع بقاء الركائز الأصيلة لها .

- ٤ -

حاول المنهج العلمي الغربي الوافد أن يطرح في أفق الفكر الاسلامي أكثر من مفهوم وأكثر من نظرية . ورأى أن ذلك من شأنه أن يثير أكثر من شبهة وأزمة ، وكان في كل مرة يحاول أن يستخدم الاسلام لنفسه لتأييد دعوته . فعل ذلك عندما طرح مفهوم الليبرالية في أوائل هذا القرن ، كما فعله حين طرح مفهوم الجماعية في منتصف هذا القرن .

وجرى التابعون للفكر الغربي ومناهجه وراء نصوص من الاسلام لتأييد كل دعوة من هذه الدعوات ، وغفلوا عن أن الاسلام نظام شامل جامع لا يصلح للانشطار أو التجزئة . وهو يختلف اختلافاً واضحاً عن الليبرالية والجماعية على السواء ، فهو يؤمن بالفرد ويؤمن به في إطار المجتمع وفق منهج التكامل بين الفردية والجماعية . والمجتمع الاسلامي بناء متكامل من لبنات قوية يمثل كل منها فرداً مؤمناً . ولقد حرص الاسلام على بناء الفرد المؤمن في صورة الإنسان الممتاز ، تربيه وتكونه الصلاة والصوم والزكاة وطاعة الله ورعاية الأمانة والعهد والمحافظة على النفس والعقل والمال والخلق . فقد انفرد الاسلام برعاية الفرد وتكريمه في إطار المجموعة فيما ركز على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسؤولية ارتقـــاء سلم الكمال . ولم يذهب الاسلام مذهب من أعطوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما أنه لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد في المجتمع . ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه في نفس الوقت وكلهم تجمعهم وتربيهم دعوة

الله ، فإن وحدة الهدف أمر يأتي بلا اجتهادات داخلية في المجتمع ، ويتم الترابط بين المؤمنين ويتصرفون في أعمالهم تلقائياً تصرف رجل واحد .

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا كَانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبوا حَتَّى يَسْتَأْذِنوهُ » .

« وليس ذلك المجتمع نتيجة لقهر السلطة ، فخطوات المسلمين تحددها كلمة الله ثم مصلحتهم ورغباتهم « وأمورهم شورى بينهم » وتجيء الاجتهادات في البناء « داخلة في الاطار العـــام الذي يجب أن يحيط بالبنـــاء الاسلامي للمجتمع »[1] .

والانسان في مفهوم الفكر الاسلامي لا يفسر على أنه في درجة الحيوان أو تنطبق عليه مناهج البحث في الحيوان . وليس على نحو ما تقول بعض الفلسفات من أنه هو سيد الكون ، وإنما هو سيد الكائنات تحت حكم الله وعن طريق الاستخلاف وحمل الأمانة لبناء الحياة وعمران الكون .

وتقوم العلاقة بين الفرد والمجتمـــع على أمرين : تحقيق إرادة الفرد التي هي مناط المسؤولية والتعادل بين الفرد والمجتمع ، ثم التوازن بين الفرد والمجتمع .

ويقرر الاسلام بناء الفرد أولاً ، ثم إعداده لبناء الأسرة ؛ بناء الفرد بوصفه عاملاً أساسياً في تكوين الأسر التي تمثل وحدات المجتمع ، والانسان في الاسلام كائن جسدي وروحي معاً، والفكر الاسلامي يقر طبيعة الانسان على حقيقتها: مادية وروحية ، واقعية ومثالية ، وبذا لا يحول بينه وبين متاع الحياة المادي ، ولكنه يحوط هذا بالاعتدال دون أن يصل الى درجة العدوان على حق الآخرين،

---

١ – من بحث للاستاذ فاضل .

ودون أن يتخذ الانسان ، مما يحصل عليه من جاهٍ ومكانةٍ ، وسيلة للظلم والعدوان أو الإفساد في المجتمع .

ونظام الأسرة نظام أساسي في بناء المجتمع ، فهي أصغر وحداته ، وهو نظام لا يقضي على فردية الرجل أو المرأة ، ولا يطلب صهر أحدهما في الآخر ، بل يستبقي الخصائص الفردية لكل منهما دون أن تذوب أو تفنى في خصائص الآخر . ولما كانت طبيعة المرأة أن تحمل وتلد ، وليس لها مثل تفرغ الرجل وعمله جاءت قوامة الرجل ، علامة لحفظ حياة الأسرة وصيانتها .

وتقوم العلاقة بين الفرد والمجتمع عن طريق الأسرة الصغرى ، ثم الأسرة الكبرى من خلال الآداب العامة التي تعمل على إدماج الفرد في المجتمع لحماية التضامن الاجتماعي .

ويقف الاسلام من الفردية والجماعية موقفاً واضحاً صريحاً . لقد عاش الفكر البشري منذ فجره والى اليوم منقسماً بين الفردية والجماعية ، وقد وقع الفكر الاغريقي في هذا الصراع كما وقع الفكر الغربي الحديث ، وتقسمته هاتان النزعتان بينما استطاع الفكر الاسلامي – وحده – صياغة منهج الالتقاء والتكامل بين الفردية والجماعية .

ففي الفكر الاغريقي القديم احتضن أفلاطون مفهوم (الجماعة) وقامت نظريته في الجمهورية على أساس تغليب الجماعية . ثم جاء أرسطو فاحتضن مفهوم الفردية ، ثم وقع الصراع في ظل الدولة الرومانية بين الفردية والجماعية .

وفي العصر الحديث تبنى الغرب فكرة الفردية حتى ظهرت الماركسية فتبعت مفهوم الجماعية وما يزال الفكر الغربي في صراع بين الفردية والجماعية .

أما الاسلام فقد ربط الفرد بالجماعة والجماعة بالفرد ، وحدد العلاقة بينهما . فالفرد للجماعة والجماعة للفرد . وقضى على الافراط والتفريط في الفردية أو الجماعية . وأقام مفهومه على المنزلة بين المنزلتين : (على حد تعبير صلاح الدين

السلجوقي) فالفرد له حق وعليه واجب نحو فرديته ومجتمعه سواء بسواء ، فهو يتأمل فردياً ، ويعمل اجتماعياً ، ويرعى نفسه ، ويكون مسؤولاً عن رغبته ويشاور الجماعة في الأمر .

وإذا عزم عند الضرورة توكل على الله ، وله حق الكسب والتملك والتمتع بالمال ، ولكن عليه أن يؤدي الزكاة والصدقات ، حتى لا يدخر رأس مال كبير . وبعد موته يقسم ماله بين الورثة ولا يبقى شيء جدير بأن يسمى رأس المال ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا كالعلم والرياضة والغذاء . وحينما يحتاج المجتمع أن يقدم الفرد نفسه فإنه يقدم هذه النفس الى التضحية مؤمناً بأن التضحية حياة له .

- ٥ -

يطرح المنهج العلمي الغربي الوافد مفهوماً للانسان يجعله في إطـــار القوالب العلمية المادية ، ويحاول أن يفسر أخلاقه ونفسيته وسلوكه في ضوء مناهج العلم التجريبي ؛ وتنطلق هذه النظرة من اعتبار الانسان حيواناً عاماً . ولا يجد هذا المفهوم تقبلاً في أفق الفكر الاسلامي الذي يقرر أن الانسان جسد وروح وعقل وقلب، ولذلك فإن منهج دراسته يجب أن يكون مختلفاً عن مناهج العلوم المادية وعلوم الحياة .

ومن أخطر ما تحمله الآداب والفلسفات الغربية النظرة الى الانسان على أنه دنس ومذنب وخاطىء وأنه يولد حاملاً لما يسمى الخطيئة الأصلية التي ورثهـا عن أبيه آدم .

ويمتد أثر هذه الفكرة في الآداب والفلسفات الأوربية الى أبعـــد مدى . ويترك فيها آثاراً لا حد لها ، ومن أبعدها أثراً في حياة الانسان هو وضعـه في إطار الجبرية التي تتنافى مع أبسط أوضاع الانسان وهي : حرية الإرادة .

إن الاسلام يعتبر أن هذه المعصية — لا الخطيئة — قد انتهى أمرها في حياة آدم نفسه . فقد اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . وإنما كانت مرتبطة به وحده حيث لا تزر وازرة وزر أخرى . وإن الله كرم بني آدم على العموم . ويُقرر الاسلام أن معصية الانسان لا تورث ، ولا يحتمل أحد عمل أحد آخر ، وان

كل مولود يولد على الفطرة فأبواه (أو محيطه ، أو النظام الذي يحيـــا في ظله) يشكله من جديد .

* * *

ومن عجب أن يتخبط المنهـــج العلمي الوافد في الانسان فيطرح في أمره نظريتين مختلفتين متعارضتين : (الأولى) تقول إنه أرقى الكائنات ، وأنه سيد الكون ، وأنه ليس غيره في الكون وهي نظرية الوجودية . و (الثانية) تقول إنه حيوان خاضع لغرائزه يتصرف من خـلال الجنس والشهوات وهي نظرية فرويد . وكلتا النظرتين في مفهوم الانسان تتجاوز الحقيقة وتبتعد عن المفهوم الصحيح . فليس الانسان وحده في هذا الكون ، ولكنه مخلوق للخالق الأكبر الذي اختاره للاستخلاف في الأرض ، ووكل إليه عمـــارة الدنيا . وليس هو حيواناً ولا خاضعاً لغرائزه ، ولكنه مهيأ وفق إرادته الحرة لأن يختار أحـــد الطريقين . وهنا مناط الأمانة التي وكل الله أمرها إليه والتي تقوم على الاختيار بين الهدى والضلال والخير والشر والحق والباطل (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) فالانسان بطبيعته وفطرته قابل للخير والحق والهدى مهيـأ لها في ضوء هداية الله . ومن هنا كانت حاجة الانسان الى الوحي والنبوة والرسالة .

ومن هنا يختلف مفهوم الفكر الاسلامي عن الفكر الغربي الذي يستعلي على مفاهيم الدين . فلقد ذهب الفكر الغربي الى القول بأن طبيعة الانسان قـــد أصبحت في غير حاجة الى توجيه إلهي . فهل حقاً : وصل الانسان الى مرحـلة الرشد ، فلم يعد في حاجة الى وحي السماء ؟! هل الحضارة الحديثة ومنجزات العلم الحديث هي التي أعطته هذا الرشد ؟! الواقع ان هـذه المنجزات لم تتقدم بالانسان خطوة واحدة على طريق الانسانية والأخلاق ، ولم تدفع طبيعته لترقى وتتحرر من أهوائها ومطامعها . فكيف يصبح الانسان بمعطيات المادة قادراً على أن يستغني عن وحي السماء ؟!

إن طبيعة الانسان طبيعة ثابتة لا تتخلف ؛ ولقد جاء الدين الحق ليقدم لها الضوء الكاشف والهدي الصحيح الذي يحفظهـــا من القلق والتمزق والتشاؤم والحيرة واليأس . وهي بغير هذا العطاء لا تستطيـع أن تواجه الحياة . ولقـد ذهب العلم الحديث في منجزاته الى آفاق بعيدة المدى من المتاع المادي والترف والرفاهية ، ولكنه ظل عاجزاً عن أن يعطي الانسان لحة سكينة أو نفحـة طمأنينة .

إن الطبيعة الانسانية لا تجد طريقها الحق إلا في الاتصال بالله ، وفي التماس طريقها من منهجه وفي ضوء كتابه .

- ٦ -

من مفاهيم الفكر الغربي الوافد القول بأن القيم الأساسية للبشرية تتغير بتغير العصور والجماعات وروح الزمن ، وأن في مقدمة القيم التي تتغير : الأخلاق والعقائد والشرائع ، وأن العصر الحديث يعارض قيم الإيثار والرحمة والأبوة والعرض والأسرة . ويقدم قيماً جديدة في مقدمتها المنفعة والرفاهية واللذة أو المتعة وتدبير الثروة والحرية .

ولا ريب أن هذه النظرية لا تلقى قبولاً في الفكر الاسلامي الذي يقرر بأن القيم الأساسية ثابتة لا تتغير ، وأن الأخلاق والعقائد والشرائع ليست من صنع الانسان ، ولذلك فهي قائمة على الزمن ما قام الزمن وعلى اختلاف البيئات والعصور ، وأن الحق سيظل هو الحق لا يتغير ، وأن مقررات الأبوة والأسرة والعرض والأخلاق ستظل كما حملتها أديان السماء الى البشر قائمة . ولقد عجز الفكر الغربي عن التفرقة بين القيم الأساسية والقيم الاضافية . فالقيم الأساسية هي قيم ثابتة ، لأنها ليست من صنع الانسان . أما القيم الاضافية فهي قيم متغيرة لأنها مرتبطة بالناس والمجتمعات ، وهي ما يطلق عليه اسم التقاليد والعادات . ومن الخطر الخلط بين الثوابت والمتغيرات ، بين القيم الأصيلة الربانية وبين القيم التي صنعها الانسان .

ولا ريب أن القيم التي أقامها الاسلام بتحريم ما حرم ، وتحليل ما أحل لا يمكن أن تخضع للظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تتغير بحيث يمكن الحذف

منها أو الإضافة ، أو بحيث يتغير ترتيبها ، فتنقل من قيم أصلية الى قيم إضافية .

ومن المحرمات الأساسية الربا والقتل والزنا والخمر والميسر. فإن نظام المجتمع لا يمكن أن يكون سليماً في مفهوم الاسلام إلا إذا تأكد إقرار هذه القيم بالمنع . وكذلك في الناحية الأخرى بالنسبة الى مهمة المرأة ومكانة الأسرة والى قيام الأبوة ورعاية الآباء والأمهات والمحافظة على العرض .

ومن هنا فلا يقبل الاسلام أن تمس هذه القيم بأي تغيير أو تطور سواء كان ذلك في مجتمع رعوي أو زراعي أو صناعي .

لقد جعل الاسلام أساس القيم : التوحيد والتقوى والعدل والكرامة الانسانية ، وجمع بين عمل الدنيا وعمل الآخرة ، وواءم بين القوى المادية والروحية ، وأقام منطقة وسطى بين الإفراط والتفريط بعيداً عن الشهوات المدمرة والزهادة المدمرة ، بين الترف المفسد وبين الحرمان القاتل . ولم يمنع الاسلام من تطوير القيم الصغرى المرتبطة بالبيئات والأزمنة دون المساس بالقيم العليا الثابتة، فقبل أن يكون للبادية قيم تختلف عن قيم المدنية . هذا التفاوت والاختلاف في القيم الصغرى جائز ، بل هو ضروري في تقدير الشريعة الاسلامية ، شروطه عدم الخروج عن القيم الكبرى التي أقرها الاسلام وتحركاً في دائرة التوحيد والتقوى والعدل والإيمان بالله .

- ٧ -

وللمنهج العلمي الغربي الوافد مفهوم في المرأة ، وقد طرح هذا المفهوم في أفق الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي . ولما كان هذا المفهوم مخالفاً ، بل معارضاً لمفهوم الاسلام . فإنه لم يجد قبولاً إلا فيما فرض بالاضطرار، وكان لسيطرة النفوذ الأجنبي أثره في تطبيقه ، ومع ذلك فقد أحس المجتمع الاسلامي بالأثر البعيد والخطر القريب .

لقد حاول المنهج العلمي الوافد أن يخرج المرأة عن ذاتها وطبيعتها ووظيفتها، ليضعها في مجال البديل الاقتصادي أو المتعة الذاتية مخالفاً بذلك الفطرة والطبيعة الأصيلة والتركيب الصحيح للمرأة .

لقد حرر الاسلام المرأة من آصار العبودية والإذلال، وردّ لها مكانتها الحقة، واعترف بها شقيقة للرجل ، ومنحها المساواة في العلم والتملك والتصرف ، وأقام لها منهجاً أصيلاً في المعاملة والزواج والطلاق، بما يحقق سلامة بناء الأسرة وقيام كيان المجتمع . وكشف عن مهمتها الأصيلة وعن تركيبها الجسماني والعقلي وأعد لهذه المهمة لكل من الرجل والمرأة عمله ، ولكنه في نفس الوقت يتكامل مع عمل الآخر . فهما يقيمان معاً صرح الأسرة ، ولا تعطي القوامة الموكولة الى الرجل أي ضغط أو ظلم أو سلطان متعسف بل لها قواعدها التي تتيح للمرأة الحق في العدل كما تتيح لها الحق في الانفصال إذا لم يتحقق العدل . ويستمد الفكر الاسلامي مفهومه في أمر المرأة من القرآن الكريم الذي أعطاها من

الإرث نصف ما أعطى الرجل . وكشفت الشريعة الاسلامية عن حريتها فيما تملك من مال وعقار لا يمنعها مانع من التصرف بأي نوع من التصرفات . وليس لزوجها أن يفرض عليها نفوذاً في ذلـــك . وليس لولي الأمر أن يلزمها طلب القوت . وقد قام الزواج عقداً تصان به حرية المتعاقدين الكاملة ، والطلاق فرصة لكل زوجين أن ينفصلا عندما يتعسر الوفاق ويصبح الانفصال أمراً لازماً .

وتقوم المساواة بين الرجل والمرأة في الاسلام من خلال حساب التفاوت في التكوين الجسدي وما يتبعه من المسؤولية والاختصاص . وحيث يوجد التفاوت الطبيعي يوجد التغاير الوظيفي .

وقد أكسبت الفطرة كلاً من الرجل والمرأة أوضاعاً خاصة ويسرت لكل منهما سبيله في حدود المطلوب منه « والمساواة لا تقتضي إنكار حـــكم الطبيعة ونسيان الفوارق الخلقية وما يتبعها » . « وليس الزواج في الاسلام نوعــاً من المتعة . بل هو نظام اجتماعي يهيىء للمجتمع مقومات العفة والفضيلة باعتبار أن الأسرة هي نواة المجتمع الفاضل » .

ولقد كان المنهج العلمي الغربي الوافد يسبح ضد التيار حين كان يفرض على أفـــق المجتمع الاسلامي مفاهيمه في تحرير المرأة بالمعنى الذي يخرج المرأة من خصائصها ومهمتها .

ولا ريب أن القـــانون الطبيعي الذي خصص المرأة للبيت والزواج وولادة الأبناء وتربيتهم هو قانون لا يتغير . وأن كل معارضة له من شأنها أن تفسد الحياة الزوجية وتفسد الحياة الفردية للمرأة نفسها .

وقد أحدثت التجربة آثاراً بعيدة في الغرب بحيث انهارت الآداب العامة ، واهتزت أركان الأسرة ، وظهرت أحداث خطيرة من الانحدار والخطأ نتيجة دخول مفهوم وافد خطير كان من أخطر عوامل تحطيم الأسرة المسلمة ، ونشر

عوامل الانحلال فيها وإبعادها عن طريقها الصحيح . ومدخل الخطر هو الدعوة الى الحرية الجنسية واتخاذ المرأة متعة يتمتع بها الرجال، ومشاركة المرأة الرجل في صالات الرقص والنوادي الليلية . ومنها قبول فكرة صديق العائلة ، وعدم تمييز الفتاة بمنهج تعليمي خــــاص يتفق مع رسالتها وشخصيتها وخصائصها ، وتجاوز البنـــاء الأخلاقي والتربوي للأسرة على أساس القدوة الحسنة والمفهوم الاسلامي الأصيل الذي عرفته المرأة في تاريخها ، والخضوع لمدارس الإرساليات أو مناهجها في المدارس العامة . ومن ثم فقد طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في مجال المرأة والمجتمع مفاهيم وافدة كثيرة معارضة لطبيعــة مفهومنا الاسلامي الأصيل هي حرية المرأة وملابس المرأة والزينة ، وحول القوامة ومهمة المرأة وتقدير مسؤولية العرض والشرف والبيت . ولقـــد كان للنظريات التي قدمها ماركس وفرويد ودوركايم وليفي بريل أثرهـــا في تحريف مفهوم حرية المرأة وعلاقتها بالرجل والأسرة . فقد كانت هذه الدعوات تهدف أساساً الى إخراج المرأة من مفاهيم الأديان وقيم الأخلاق ، ودفعها الى الحياة لتخوض بحـــار الرغبات والأهواء . وكان ذلك كله على حساب بنـــاء المجتمع وكرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأجيال القادمة . ذلك أن محاولة تصوير الفرد البشري (رجلاً أو امرأة) بصورة الحيوان ، والقول بأن دوافعه الأولى هي الجنس — كان ذلك عاملاً خطيراً في المفاهيم التي كونت عقلية المرأة الحديثة التي أثيرت أحاسيسها بالدعوة الى تحريرها من قوامة الرجل ونفوذه وسيطرته وإعطائها الحق في أن تتصرف في أمر حياتها ورغباتها على النحو الذي تراه .

ولقد كان من وراء هـــذه المذاهب الفلسفية دور الأزياء ودور الزينة . أخضعت المرأة في العالم كله لأزياء تختلف وتتبدل موسماً بعد موسم وعاماً بعــد عام ، وتتجه أساساً الى العري والكشف دون تقدير للحاجة أو لذوق البيئات أو القيم الأخلاقية . وبذلك حاول المنهج العلمي الغربي الوافد خلق عقلية زائفة للمرأة تصورها بصورة القدرة على الحياة في المجتمع دون التقيد بضوابط الأب

أو الأسرة أو الزوج من حيث هي قادرة مادياً على أن تجد موردها المادي الذي تعيش به .

وكان لتقدم العلم في موانع الحمل والاسقاط والاجهاض أثره البعيد في تذليل كل العقبات أمـــام الرغبات التي هي بطبيعتها خروج على فطرة المرأة وطبيعة تكوينها وخصائصها ودورها في المجتمع البشري . ولهذا كله أثره البعيد على كيان الأسرة وبناء شخصية المرأة نفسها .

ولقد كان موقف الاسلام من الرغبات موقفاً واضحاً صريحاً . فقد أعطى هذه الرغبات حقها من خلال إطار منظم كريم هو الزواج ، كما أعطى المرأة الحق في أن تلتمس حياة أخرى إذا عجزت عن أن تجد الأمن أو الطمأنينة . وفي نفس الوقت الذي تتحقق لها مكانتها الاجتماعية والاقتصادية ، يتعين لها أن تتحرك الى هدف واضح هو أداء رسالتها في الأسرة ومـــع الزوج والأبناء والبيت .

ولقد جاءت القوانين الوضعية معززة لمفهوم الأديان في أن المرأة مكلفة بتدبير المنزل والبيت وكل ما يتعلق بالحياة العائلية وتربية الصغار ، بـــل والكبار .

ولقد حماها الاسلام بوسائط كثيرة من أن تكون لعبة الرجل أو تكون هدفاً من أهداف الغواية أو اللذة أو ما يناقض فطرتها ووظيفتها الأساسية أو خصائصها الطبيعية .

الفصل الثاني

أخطاءُ مفاهيم الأخلاق

حمل المنهج العلمي الغربي الوافد مفهوماً للأخلاق مستمداً من المجتمع الأوربي وعقائده وقيمه من حيث تطورها الأخير بعد أن خضعت لمدرسة العلوم الاجتماعية ، وبعد أن انسلخت من مفهوم الأخلاق المسيحية .

وتقوم النظرية الغربية على القول بأن مبادىء الأخلاق إن هي إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها ، أو فضل في الإيمان بها . وتقول إن الأخلاق تختلف عن الدين ، إذ ليس من الضروري أن كل من يعتقد في دين معين أن يصبح أخلاقياً كما أنه ليس من الضروري أن يكون كل ملحد لا أخلاق له ، وأن الأخلاق هي استجابة النفس الى الوسط ، فإذا تغير الوسط تغيرت الأخلاق . وهذا الوسط يتسع وينحصر باختلاف الزمان والمكان . وأن الأمم ليست بحاجة الى الدين ، ولكنها بحاجة الى الأخلاق ، فالأخلاق هي التي ترفع الأمم الى مستوى الرقيّ وليس الدين . وأن أوربا لم تنهض إلا بالأخلاق . وانه يمكن الاستغناء عن الأديان اكتفاء بالضمير الانساني الدافع الى فعل الخير .

وهناك ما تطرحه النظرية الماركسية من أن الأخلاق مثل السياسة والقانون تخضع للأحوال الاقتصادية والظروف المعيشية لكل مجتمع . ويجمل النظرية الغربية التي يطرحها المنهج العلمي الغربي الوافد أن الأخلاق نتاج للبيئة ، وأنها تختلف من شعب الى شعب ومن حقبة الى أخرى .

ويبدو من مجمل النظرية أنهـــا مادية الأساس . ولذلك فهي ليبيرالية وماركسية في وقت واحد .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي لا يجد في هذه النظرية نفسه ولا حاجته ولا قيمته الأساسية . بل يجد فيها خلطاً بين الأخلاق والتقاليد . وبين الأصول التي جاءت بها الأديان السماوية والأعراف التي أقامها الناس .

ولا ريب أن الأخلاق ذات جذور من الدين لا تنفك عنه وهي أصل قائم داخل إطاره يطبع كل التصرفات وأعمال السلوك ويطبع السياسة والاجتماع والتربية والسياسة بطابعه .

وتقوم الأخلاق في الاسلام على أساس الالتزام . وفي نطـــاق المسؤولية الفردية . والدين والأخلاق حقيقتان لا تنفصلان في الاسلام ، كما تتلازمان في جميع الأديان . والقرآن أصل الأخلاق الاسلامية . وليس هناك انفصال بين النظرية والسلوك العملي . وقد رسم القرآن قواعد العمل الصالح .

والأخلاق في الاسلام منهج عملي غايته التعاون في الحياة ، واحترام القيمة الانسانية . وبينا الأخلاق في نظر أرسطو وأفلاطون وارسطاطاليس لا تخرج عن دائرة السعادة (التي هي راحـــة النفس وسرور الفرد) نراها في الاسلام تقوم على أساس التقوى والجمع بين الدنيا والآخرة .

(وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) .

« فالأخلاق الاسلامية هي أخلاق تقوى بكل ما تحمل من معان سلبية

وإيجابية أي تجنب الحرام ، والإقبال على الحلال ، والإيثار والتقوى هي لحمة الأخلاق وسدادها[1] .

ومن هنا اختلفت الأخلاق الاسلامية عـــن الأخلاق المسيحية والأخلاق اليونانية والأخلاق المعاصرة على السواء .

فالمسلمون لم ينظروا الى الأخلاق على أنها موضوع جدال أو نقاش . ولا على أنها جانب نظري من النشاط العقلي . ذلك أن الاسلام جعـــل من الأخلاق منهاجاً عملياً غايته التعاون في الحياة ، واحترام القيم الانسانية وحسن المعاملة . ومبدأ الأخلاق الاسلامي يقوم على أساس الارادة والمسؤولية والجزاء .

أما النظرية الأخلاقية المسيحية فقد انطلقت من فكرة الخطيئة التي تحول دون الالتزام والمسؤولية ، وتجعل وجود الانسان وتصرفاته خاضعتين لجبرية قسرية .

---

١ ـ دكتور أحمد فؤاد الأهواني .

- ٢ -

تقوم الأخلاق في الاسلام على أساس الالتزام . ذلك أنه لا أخلاق من غير حرية ، كما أنه لا تكليف من غير اختيار . والإرادة حركة نفسية داخلية ، لذلك يقرر الاسلام أن المكره إذا فعل ما يكره عليه غاضباً غير راض كان له عذره .

وقد سمى الاسلام حرية الإرادة اختياراً ، وجعلها مناط التكليف . ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقي متصفاً بالطاعة صادراً عن إرادة طيبة في حب الخير والحق والفضيلة .

وقد ربط الاسلام بين الدين والأخلاق ، وجعل الإيمان بالله وعاء الأخلاق . وفرق بين الأخلاق والتقاليد ، فالأخلاق ثابتة ومتصلة بالقيم العليـــا لأنها من صنع الله .

أما التقاليد فهي وسائل عارضة تختلف وتتغير مع تغير الزمان ، لأنها من صنع الناس .

ولا ريب أن فكرة الالتزام الخلقي هي العنصر الأساسي أو المحور الذي تدور حوله القيمة الأخلاقية . « فإذا زالت فكرة الإلزام قضي على جـــوهر الحكمة العقلية والعملية التي تهدف الأخـلاق الى تحقيقها . فإذا انعدم الإلزام

انعدمت المسؤولية . وإذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة العدالة » .

ولذلك فقد جاءت فكرة المنهج العلمي الغربي الوافد في الدعوة الى أخلاق بلا إلزام ولا جزاء عملاً نظرياً محضاً لا يؤدي الى تحقيق غاية ما[1] .

---

١ — عن نص للدكتور محمد عبد الله دراز .

- ٣ -

ويصور الدكتو محمد عبد الله دراز : كيف يفسر القرآن مصدر الالتزام الخلقي فيقول : « إن النفس الإنسانية قد عرفت في تكوينها الأول معنى الخير والشر ، (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) ، كما ألهم الإنسان الحدس الخلقي ، وعرفت طريقَي الفضيلة والرذيلة (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ). ولا مراء في أن الطبيعة الإنسانية قد تندفع نحو الشر (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) ، ولكن الإنسان قادر على أن يكبح جماح شهواته . وإذا لم يكن في مقدور كل إنسان أن يغالب نفسه فيغلبها . فإن هناك من يتيسر لهم ذلك بفضل العون الإلهي (إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه) .

« هناك إذاً قوة كامنة في نفس الانسان لا تهيىء له النصح ولا تضيء له السبيل فحسب ، بل إنها تحدد له ما يجب عمله وما يجب تحاشيه ، هذه السلطة الكامنة التي تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا السفلى هي أسمى جزء في نفوسنا ، هي العقل . وسلطة العقل هي السلطة الشرعية الوحيدة . وقد كرمنا الله بفضل العقل وما يسبغه على الانسان من الكرامة . (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) ولم يصور لنا القرآن النفس الانسانية بالرغم من اندفاعها أحياناً نحو الشر على أنها شريرة في أصلها ، (لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

مما يدل على الأصل الطيب . ولا يفسد الانسان إلا عـــدم استخدامه للقوى والمواهب ، (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) فالأمر إذن يتوقف على مدى استخدامنا للقوى العليا التي أودعها الله إيانا ، وتنمية هذه القوى وتزكيتها برفع النفوس ، (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) . كذلك عني القرآن بعد إيقاظ قوانا العقلية بإيقاظ مشاعرنا النبيلة بشرط أن تعمل تحت رقابة العقل وهو يدعونا لأن نزن الأمور بميزانها الصحيح قبل أن نحكم على قيمها » .

ويعني هذا في مجمله ثبات القيم الأخلاقية وعـــدم خضوعها للبيئات أو للعصور . ذلك أن جميع أفراد الجنس البشري توحد بينهم صفات نفسية وخلقية عامة ، وان الاختلاف بالزيادة والنقصان لا يكون إلا في الصفـــات العرضية . أما الصفات الجوهرية فإنها ثابتة . والمسلمون يؤمنون بثبات الأخلاق ، كما يؤمنون بثبات الشريعة . « فقوانين الله لا يمكن تغييرها ، وهي ليست ناتجة من ظروف المناخ في الدولة التي تعيش فيها الأمة ، ولا هي ناتجة من البيئة الاقتصادية ووسائل الانتاج ، وهي لا تختلف من زمن الى زمن ومن مكان الى مكان ،(فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا) . هذا الطابع العالمي يرجع الى أن طبيعة الانسان لا تتغير ؛ فالحوافز الانسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحياة البشرية ، والغرائز التي هي محور عمل الانسان لم تزل باقيـــة كما هي ، وصفات الايثار والشرف والصدق والشجاعة لا تزال كذلك . فإن « الفطرة الانسانية عنصر ثابت أصيل ، ولما كان صاحب هذه العقيدة ، وتلك الشريعة ، هو خالق تلك الفطرة وصاحبها . فلا غرابة بعد ذلك في أن يكون في الدين عناصر ثابتة لا تقبل التغيير أو التطور باختلاف المكان أو تغير الزمان . وهناك عناصر ووقائـــع ومستحدثات لم يتعرض لها الاسلام أصلاً . بل ترك للناس الاختيار في شأنها بين الحلول المختلفة الممكنة في ضوء ما يتغير من ظروفهم وأصول معاشهم » . وفي الاسلام تنبعث الاخلاق من

عنصر ثابت هو الكيان الانساني ذاته ، وهناك أساس مقرر هو أنه مهما تغيرت حوادث التاريخ ووقائع الاختراع ، ومنجزات العلم . فإن الانسان لا يستطيع أن يغير حقيقة وجوده . وفي الاسلام يتميز الانسان عن الحيوان ، ويحقق كيانه الانساني المتميز ولا ينحرف الى حياة الحيوان .

ومما يدحض نظرية نسبية الأخلاق أن القيم الأساسية للسلوك والفضائل والخير والشر ما تزال ثابتة من آلاف السنين . ولقد عرف المسلمون الأخلاق في الأديان السابقة مرتبطة بالحنيفية حتى جاء محمد ﷺ ، فوضع اللبنة الأخيرة فيها : إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق . نعم جاء الاسلام مصححاً للقيم الأخلاقية ومحرراً لها ومكملاً ، وواضعاً إياها في صورتها النهائية .

ومن أبرز معالم القواعد الأخلاقية الاسلامية : أنها ضوابط متينة تحول دون الظلم والفوضى والإباحية والتحلل . وتبقى في نفس الوقت مَرنَة بحيث يمكن للأجيال المتعاقبة صياغتها في صور تناسب عصرها دون أن تغير جوهرها أو مضمونها .

الفصل الثالث

أخطاء مفاهيم النفس

إن نظرية المنهج العلمي الغربي الوافـــد في النفس الانسانية التي طرحت في أفق الفكر الاسلامي والثقافة العربية تختلف كل الاختلاف عن مفهوم الاسلام. وتتعارض مع طبيعة النفس البشرية التي قدمتها لنـــا الأديان وأضاء مفهومها الاسلام على نحو كاشف صريح يقوم على أساس الفطرة البشرية الجامعة بين أشواق الروح ورغبات الجسد، والتي تتحرك دائماً فيما بين رفعة الحس وقوة الإيمان.

ومن هنا فقد تركت مفاهيم النفس الوافدة أثراً بعيداً في إثارة أجواء الشك والاضطراب والقلق والتمزق لأنها بعدت عن الحقيقة الكاملة، واقتصرت على الجانب المادي وحده فالتمست منه مقوماتها ومفاهيمها.

وأخطر مـــا في مفاهيم النفس الغربية من التعميم والقصور ومن الانشطارية والتجزئة – شأن الفكر الغربي كله في معطياته المحدثة ومراحله الأخيرة، هو القول بأن الجنس هو أساس الدوافع النفسية جميعاً، وأن الانسان مقسور في إطار من الجبر الذي تفرضه هذه الغريزة على كل تصرفاته بحيث يعجز عن أن تكون له إرادته الخاصة.

ومن خلال هذه الفرضية الجريئة حاول فرويد ومدرسته استخلاص مفاهيم تتعارض تماماً مع مقدرة النفس الانسانية وأعماقهـــا البعيدة، وحركة التوازن القائمة بين الغريزة والعقل، وبين النفس والجسم وبين الروح والمادة. وحـــين

يفترض فرويد أن الشهوة الجنسية هي الحافز الأول لنشاط الانسان يضع قاعدة خطيرة هي : إعلاء حيوانية الانسان ، ورد كل العوامل إليها . ومن هنا يذهب الى القول بأن النشاط الذهني والاجتماعي والفني والديني له أساس جنسي، ويمضي الى القول بحُبّ الأم وكراهية الأب عند الرجـــل . ويعتمد فيه على أسطورة يونانية قديمة هي أسطورة أوديب التي تتحول الى مركب . وكذلك فيما يتصل بحب الأب وكراهية الأم عنـــد المرأة . ويعتمد فيه على أسطورة أخرى هي (الكترا) ، ويمضي فرويد فيقرر أن الانسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات . وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي أساس سلوكه في الحياة .

- ٢ -

إن أخطر ما تقدمه مفاهيم النفس في المنهج العلمي الغربي الوافد من آراء إنما تدعو الى معارضة مفاهيم الدين في مغالبة النفس ومجاهدة الأهواء وعدم الخضوع للدوافع المدمرة للكيان الانساني . غير أن الدين الحق حين دعـا الى المغالبة والمجاهدة لم يدع الى الكبت أو الاسقاط وتحريم هذه الرغبات الحسية ، بـل اعترف بها ودعا الى ممارستها وتحقيقها في إطارين :

الأول : إطار النظام الاجتماعي وقوانينه الحافظة من أخطاء الزنا والإباحية.

الثاني : إطار الضوابط التي تحمي الطبيعة البشرية من الانهيار والتحلل .

فالاسلام أساساً لم يحرم الرغبات الحسية ، بل اعترف بها . ولكنه نظـم الممارسة في إطار كريم ومتوازن مـع حاجات الانسان الأخرى بحيث تتحقق أشواق الروح، ورغبات الحس في وقت واحد ودون طغيان أحدهما على الآخر. وليس على هذا الأسلوب الذي يدعو الى الانطلاق الحر غير المقيد الذي تدعو إليه المذاهب النفسية والاجتماعية الغربية . هذا فضلاً عن أن وصف الرغبات الحسية بأنها من عوامل الكبت وأنها من مصادر الخطر العقلي والجسماني . ومن هنا تجيء الدعوة الى إطلاقها . فإن ذلك يرجع في الواقع الى واقع المجتمع الغربي نفسه في تعامله مع عقائده الدينية وتقاليده الاجتماعية وهو ما لا نجد له شبيهاً في المجتمع الاسلامي .

ومن هنا يمكن القول بأن « مناخ » المفاهيم النفسية الغربية إنما يستمد استجاباته من تحديات معينة هي خلاصة تاريخ العلاقات الاجتماعية في أوربا . والتي استمدت مضامينها من جو الرهبانية . وكراهية العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة . حيث بالغت المسيحية « الغربية » في فرض القيود على النشاط الحيوي ، وإنكار حق الفرد – لا في مزاولته بل في الاحساس بالرغبة في هذا النشاط . ولا تكتفي بوضع القيود على الميدان العملي بل تتعداه الى مجال الشعور في داخل النفس وعلى سبيل الالزام . وهذا يعني معارضة الطبيعة البشرية ، وقمع الجسد ومقاومة رغبة أصيلة في النفس ، وامتهان الجسد كوسيلة لا وسيلة غيرها للارتفاع بالروح . وقد صاحب هذا الاتجاه تلك الدعوة الحارة الى الرهبانية والزهد . وما اتصل بالأديرة من أحداث وأهواء ، وما يرتبط بهذا من عدم إباحة الطلاق . كل هذا قد أدى الى مفهوم وواقع كلاهما يتعارض مع الطبيعة البشرية – هذا المفهوم والواقع مع تحدياته وآثاره الخطيرة كانت نظرية فرويد هي ردّ الفعل الطبيعي لها .

- ٣ -

لم تكن نظرية فرويد إلا مجموعة من الفروض التي استقاها من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين . وليس مع الأصحاء أو الأسوياء ، وهي وجهة نظر معينة لم تثبت طويلاً في مجال التجربة ، وقال كثير من الباحثين ان فرويد أقرب الى المتنبئين منه الى العلماء . وانه يرمي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمي أو السند الواقعي . وانها تقوم في أغلبها على الافتراض ، ثم تصديق ما يفترض فيبني عليه وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل . وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل أن الدافع الجنسي يـأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدوافع الى الهواء أو الشراب أو الطعام . ثم ان الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الانسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه. وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضرورياً .

★ ★ ★

ويقول الباحثون ان نقطة الضعف الأساسية في فرويد كعالم ، هي أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول الى قوانين عامة . وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه ، كيهودي في النمسا ، المتعصبة ضد اليهود ،

قاعدة كل تصمياته[1] .

ويقول الباحثون : إن فلسفة فرويد تمتاز بأنها ميكانيكية جبرية . فـإنها تنظر الى الانسان على أنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفيـة لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة . وان فرويد أسرف في إرجاع كل ظاهرة سلوكية الى الغريزة الجنسية[2] .

---

١ – عن بحث للدكتور عبد العظيم أنيس .

٢ – عن بحث للدكتور يوسف مراد .

- ٤ -

لم تكن فرضيات فرويد موضع قبول من العاملين معه في حقل علم النفس بل على العكس من ذلك كانت موضع المعارضة . وقد عارض يونج وأدلر نظرية فرويد في الجنس ، ورفضا رأيه في الغريزة الجنسية وفي الطفولة وفي عقدة أوديب .

أما أدلر فإنه نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله، وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الأمراض العصبية الى مجرد الرغبة في القوة والتعويض عن نقص الكيان. ويعتقد أدلر أن حافز توكيد الذات (Self assurative compulse) وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الايجابية في الحياة . ويرى يونج أن الجنس ليس هو الدافع الحقيقي ولكن الرقي والسيادة والرغبة الملحة في التفوق . وأن الحب ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه السيادة . وأن هناك وسائل أخرى لا علاقة لها بالحب الجنسي .

ويرى أدلر الشعور بالنقص أهم في الأمراض العصبية من الأمور الجنسية التي بالغ فرويد في خطورتها . ويقول يونج إن آراء فرويد ذات جانب واحد وغير ناضجة تمام النضوج ، وان مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء هو اللبيد ولكن يجب ألا يوصف بأنه جنسي أبداً ، وذلك باعتبار أن الدافع الجنسي لم يتميز بعد عن الميل الابتدائي للحياة . وينكر يونج أن اللبيد جنسي بكليته . وهو يعتبر أن اللبيد هو إرادة الحياة .

- ٥ -

أجرى الدكتور اسكندر توماس عدداً من البحوث مع جماعة من الأطباء النفسيين انتهى منها الى أن نظرية فرويد لم تكن مطلقة ، وان إقبال رجـال التربية على لوم الآباء هو المسلك المدمر في تربية الأبناء. ويقول العلماء في تقريرهم انهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلاً غير منحرفين فيهم الفقراء والأغنياء ، وقد نشأ الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود التربوية القاسية . ويدل ذلك على أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل ، وليس بالبيئة والوسط والحالة الاجتماعية وحدها .

ويدعو الدكتور ناثان كلاين : الى نبذ نظرية فرويد في العلاج النفسي والعقلي وهي النظرية التي ترجع جميع الاضطرابات النفسية الى أسس جنسية بحتة ، وقال إن هذه النظرية ليست سوى معول هادم لعقول الشباب ، ومخدر مميت لنفوس أبناء الشعب . ويرى أن رأي (ايفان بافلوف) بأن البيئة هي المسؤول الأول عما يصيب الانسان من انحراف نفسي وعقلي هو الأصح . كما أعلن كثير من العلماء فساد رأي فرويد في أن معارضة رغبات الطفل في صغره تؤثر في تصرفاته إذا كبر . وان التجربة قد اثبتت بعـــد دراسات طويلة ضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل ، وقالت هذه الأبحاث ان مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل غير البيئة والوسط والحالة الاجتماعية ، فلا سبيل لإخضاع تربية الطفل لنسق واحد .

- ٦ -

أجمعت الأبحاث التي كتبها أقرب الناس الى فرويد ومنهم صديقه ومترجمه الدكتور أرنست جونز على أن فرويد لم يكن سويّ الطبيعة أو الصحة وأنه كان عرضة للإغماء على أثر بعض المفاجآت[1] ، وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره ، وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز الى دلائلها في سريرته الباطنة ، وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة وكان أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب التشبث في العقائــــد الدينية والعادات والتقاليد الخلقية ، ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات تشبثاً يفوق في إصراره وشدته تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه . « ومن قوله ليونج : عدني أنك لن تتخلى يوماً عن الإيمان بالتفسيرات الجنسية . إلا أن يونج لم يلبث أن تزحزح بتفكيره شيئاً فشيئاً عن ذلك الإغراق في العصبية الجنسية التي تحيط بكل علة ، وتتغلغل وراء الأسرار في أعماق كل طوية . وقد خالفه تلميذه الفرد أدلر كما خالفه يونج » .

وان فرويد كان مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة ولم يستطع أن أن يشفي عقله الباطن من هذه العقــــد النفسية الى آخر حياته ، وكان ينسى الأسماء ومنها اسم أحد معارفه الدكتور فرويد، وكان يتتبع أوراقه التي تدخل

---

١ - من بحث للاستاذ عباس محمود العقاد .

في ترجمة حياته فيحرقها . وكان يؤمن بأنه سيموت في نهـــاية الحرب العالمية الأولى . فمات في بداية الحرب العالمية الثانية ، وكان يدخن عشرين سيجاراً في النهار ليهدىء من سوراته العصبية . وكان في طفولته ينسى نفسه ليلاً في فراشه، وكان يخشى من السفر بالقطار ويحضر الى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة . وكان دائم العزلة لا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلاً .

وكذلك كتب الدكتور أرنست جونس (أكبر تلاميذ فرويد) في الترجمة له ، يقول : إن فرويد كان يحرق أوراقه قبل أن يتمكن أحـــد من الاطلاع عليها . وكان يحتفظ لنفسه بأعوان من اليهود .

وقد أشار الاستاذ العقاد[1] الى ما نشرته الصحف الغربية من أن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو (١٩٥٦) قد فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه يتولاها رجـــل مسؤول عن مركزه العلمي والرسمي هو الدكتور برسيفال نيلي مدير معهد النفسيات بولاية البنواز . وخلاصة جملته أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه لها ، وأن آراءه لا تضيف شيئاً الى القيمة الانسانية لأنـــه يرد بها الانسان الى أغوار العقل الباطن ويهمل جانبه المنطقي والشاعر ، وانه لم يكن يفهم المرأة ، ولم يكن يتذوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة وأنه لمن العجب أن يكون الدكتور أرنست جونس تلميذه الوحيد من غير اليهود .

وكذلك وجه (كلابارن) انتقاداً لآراء فرويد في التحليل النفسي ، وشبه قائلها وأتباعه بالبوم لأنهم لا يرون إلا ما تشتمل عليه كهوف اللاشعور . وأشار كثير من الباحثين الى أن أبلغ نقاط الضعف في فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول الى قوانين عامة . وقالوا : إن فرويد نفسه كان مصاباً بأزمات نفسية عجيبة فقد حدث وهو يعالج مريضة بالهوس

---

١ – أخبار اليوم ، مايو سنة ١٩٥٦ .

الجنبي – هي بيسلي المصابة بعقدة أوديب – وبينما كان يقوم فرويد بعلاج هذه الفتاة تكشف له في نفسه أنه مصاب بعقدة أوديب . وأنه كان يتجه الى أمه ويغار من أبيه . وانه اتهم أباه ظلماً بجريمة أخلاقية رهيبة . ان أسطورة أوديب الاغريقية التي تتحدث عن ابن ارتكب جريمتين فقتل أباه وارتكب خطيئة أخرى . ثم عاقب نفسه بأن فقأ عينه ، هذه الأسطورة جعلها فرويد حقيقة يؤمن بها ويعيد سلوكها .

ويقول الدكتور فاخر عاقل في تصوير أثر حياة فرويد في فكره : ان فرويد يهودي . وانه كان ليهوديته دخل كبير في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليلاته ، ذلك أنه كان ينتمي الى أقلية مكروهة بحكم صفاتها المعروفة ، تلك التي أقل ما ينسب إليها حب المال والانغلاق والتعصب والتوحيد بين القومية والدين والمطامح الاقتصادية والحنين الى الماضي والعمل على بناء وطن قومي من نوع محدد ، وكان ذلك ضمن إطار معين .

- ٧ -

يعجز المنهج العلمي الغربي الوافد أن يقرر مع فرويد تلك الآراء التي تجد معارضة البحث العلمي الصحيح ومخالفة الفطرة والعلم والعقل جميعاً .

أولاً : القول بأن الحياة النفسية للإنسان هي حياة حيوانية مطلقاً . وأن غرائز الانسان هي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه . وأن الجانب المسمى بالروح لا وجود له على الإطلاق .

ثانياً : في القول بأن الحياة كلها جنس ومنبثقة من الجنس حتى الدين والأخلاق وأن الانسان يولد جنساً خالصاً .

وبالجملة فإن فرويد ومدرسته يرون أن الانسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي الأساس لسلوكه في الحياة وهي التي تحكمه وتسيطر على نشاطه ، والروح لا وجود لهـــا على الاطلاق .

ويرجع كثير من الباحثين هدف فرويد الى تحطيم القيم الأساسية التي جاءت بها الأديان . وان ذلك من أول أهداف الصهيونية التي تعمل على هدم النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيطرة على العالم ، والسيطرة عليه وتسخيره ، على النحو الذي أوردته بروتوكولات صهيون ، لا بد لها من تخريب العالم أولاً قبل السيطرة عليه . ومن أجل هذا بدأت السيطرة على الفكر الغربي واحتوائه

وتوجيهه الى أهـــداف الفكر الصهيوني وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الانسانية واستغلال الثقافة والحضارة في بث روح الالحاد في العالم كله[1] .
وقد اذيعت مرات عديدة[2] تلك الدعوة الى تنظيم جماعة من الناس يرونهم أحراراً لا يخجلون من أعضائهم التناسلية حين يجتمعون في نوادي العراة . من أجل هذا تتخذ الماسونية من المدنية المسيحية موقفاً عدائياً وترى أن المسيحية تقف في وجهها عائقاً أخلاقياً يحول دون نجـــاح دعوتها ، فعند ما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب في طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال ، وتلقنهم مبادىء تقديس أعضائهم التناسلية ، ووقفت آداب المسيحية في وجههـــم ، صنعوا برجـــال الدين المسيحيين الأعاجيب من قتل وتخويف . وقد جعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقاً وأسلوب عمل يهدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقي .

ثم جاء دور فرويد في هذا الإطار « ففرويد هو الرجل الذي أراد أن يحطم احترام الانسان لنفسه تحطيماً كاملاً ، ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً حين أراد أن يصم الجنس البشري بأنه جنس متحلل ينطوي على أسوأ النوايا وأخسّ الرغبات ، حتى أنه اتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ، ويريد أن يقتل أباه ، وبنى فلسفته ومذهبه على هذه المضامين الرئيسية حتى جعل الناس يشكون في كل فضيلة وكل أمر وكل عاطفة رقيقة » .

وفي نطاق هذه الدعوة جاء نيتشه ينادي بسيادة القوة واللارحمة ، ودوركيم وهو يقرر أن نظام الأسرة نظام مصطنع . وقد جرت المخططات اليهودية وراء عالم الطبيعيات داروِن ونقلت مذهبه الى تشكيك المجتمع الانساني في طبيعة الخلق . وقد أشارت البروتوكولات الى ذلك صراحة حين قالت : لاحظوا ان نجاح داروِن وماركس ونيتشه نحن الذين رتبناه من قبل ، وحين قالت : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا ، ان فرويد منا ،

١ و ٢ - من كتابات خليفة التونسي مقدمة البروتوكولات .

وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئـــذ تنهار أخلاقه » .

لقد كان هدف فرويد هو القضاء على الدين والأخلاق فسعى الى تلويثها ، فقال إن الأخلاق تتسم بالقسوة . وان التسامي نوع من الشذوذ . وكان لذلك كله أثره في الأدب والقصة والسينما والمسرح والإذاعـــة والتلفزيون وفي بيوت الأزياء وأدوات الزينة . وهكذا كان الهدف هو السيطرة على الفكر العالمي عن طريق القضاء على كل فكر أصيل وزرع الشك والإباحـــة للوصول بالفكر البشري الى مرحلة الحيرة والاحتواء .

- ٨ -

يقف الاسلام موقفاً واضحاً صريحاً من مفهوم النفس والسلوك الانساني ، فهو يأخذ الكائن البشري كاملاً ولا يفصل بين نفسه وجسمه أو بين عواطفه وعقليته أو بين ماديته وروحانيته ، ويؤمن بأن الانسان ثابت الجوهر متغير الصورة ، وأنه لا سبيل الى تفريغ كيانه من مضمونه ، أو النظر اليه على أنه الهيكل البشري خالياً من الروح والوجدان . والانسان في نظر الاسلام كائن لا هو بالملاك ولا هو بالشيطان ، له مطامع تربطه بالأرض ، وأشواق تربطه بالسماء .

ولذلك فإن الاسلام يعمد الى إيجاد التوازن في نفس الفرد بين قواه المختلفة مما يؤدي الى التوازن في المجتمع فيحاول أن يحفظه دون أن يعتزل الحياة بالرهبانية أو يلقي بنفسه فيها بالإباحة ، فالتوازن الدائم هو الذي يحقق للإنسان قدرته على أداء رسالته وممارسة تجربته دون أن يفقد المسؤولية باعتزالها ، ودون أن يعجز عن احتمال الأمانة بالانحدار عنها .

والاسلام يعترف بالكائن البشري كما هو فيحقق له رغبات جسده وعقله وروحه ، كما يعترف بالنشاط الحيوي للانسان ، ويحق الفرد في مزاولة هذا النشاط في حدوده المعقولة .

واعتراف الاسلام بالطبيعة البشرية وبحق ممارستها يحول دون كل ما يسمى

بكبت أو تمزق أو ضياع . إنما يقع التمزق والضياع والكبت نتيجة الفصل بين القيم ، وإعلاء شأن إحداها ، اما إعلاء الروحانيات بالزهادة المطلقة . أو إعلاء الماديات بالإباحة المطلقة .

ومن حيث تكون النظرة الى الحيـــاة متكاملة جامعة ، فإن الانحراف لا يقع . ذلك أن النظرة المادية الخالصة هي وحدها التي تخلق طابع التشاؤم والشك والقلق الذي يحس معه الانسان أنه وحيد وغريب وشقي ، وهذا هو معنى التمزق والضياع . أما حيث يوجد التكامل الذي يقوم على الإيمان بالله . فانما تحل معه الثقة والتفاؤل والرضاء بقضاء الله .

ذلك أن الايمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحـــول دون اليأس وتبعث الثقة وتدعو الى المعاودة في حالة الإخفاق .

وان أبرز معطيات الاسلام الإيجابية التفاؤل برحمة الله . فليس في الفكر الاسلامي طابع الانهزامية أو اليأس أو الضعف أو التشاؤم الذي نراه في الفكر الغربي ، ويتصل بهذا تحرر الفكر الاسلامي من طابع الوثنية في عبادة الشهوة أو عبادة الأجساد أو عبادة الفرد أو عبادة ما سوى الله الواحد الأحد .

ويقوم الاسلام على فكرة التضحية والتقوى ، بينما يقوم الفكر الغربي على فكرة الرفاهية وهي ما يتعارض مع البذل والفداء .

- ٩ -

إن دراسة معطيات الفكر الاسلامي في النفس تكشف بوضوح عن السبق الواضح للمسلمين في مجال الدراسات النفسية ، ويبرز في هذا فضل أبي الحسن الأشعري والغزالي وغيرهما، وقد كشفوا قبل الباحثين في العصر الحديث بقرون عن حقيقة النفس والجنس وقالوا إن النفس لها جوهر روحاني بما يرى من شرف طباعها ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب ، وأشاروا الى أن الغريزة الجنسية ركبت في الانسان لفائدتين : اللذة وبقاء النسل ولهذه الشهوة إفراط وتفريط واعتدال . أما الافراط فهو ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال الى الاستمتاع بالنساء والجواري فيبعدهم عن سلوك سبل الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر الى اقتحام الفواحش . والتفريط في هذه الشهوة هو الضعف وهو وهو مذموم، وتمتزج مفاهيم النفس الاسلامية بالأخلاق والدين، وترمي أن تكون سبيلاً الى اصلاحها، وإلى تهذيب الأخلاق والوصول بالمسلم الىشاطىء النجاة... الى رضا الله .

ويفسر الغزالي مظاهر سلوك الانسان بأربعة دوافع أساسية هي : شهوة الطعام والجنس والمال والجاه ، وأساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام . ويرى أن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك . وأن الخروج من الاعتدال الى التفريط والافراط هو مصدر الأمراض النفسية والعلاج هو العودة الى حد الاعتدال الواجب .

الفصل الرابع

أخطاء مفاهيم الوجودية

حين طرح المنهج العلمي الغربي الوافـــد مفاهيم الوجودية والهيبية في أفق الفكر الاسلامي كان معارضاً للأصول الأصيلة لمفاهيم الاسلام ، ذلك لأنه كان يصدر عن أفق الفكر الغربي الذي مر بتحولات كثيرة حتى وصل الى طرح فكرة الدين من المجتمع وفكرة الاله من الحياة وأحل محلها فكرة الانسان الاله المعبود .

وقد تطورت فكرة الالحـــاد بين ماركس وفرويد وسارتر . واستمدت موقفها من التحديات التي فرضها الفكر المسيحي الغربي القائم على ألوهية المسيح، أي تحول الإنسان الى إله .

ويتصف إلحاد سارتر بميزة قد تكون الصفة الغالبة على الالحاد الحديث ، ألا وهي أنه ليس مجرد إنكار لله (سبحانه) بل هو أبعد من هذا وأعمق ، انه رفض لفكرة الاله ؛ محاولة إبعـــاد فكرة الله وإحلال فكرة الانسان ، وتمرد على الايمان بالله من أجل الدعوة الى تأليه الانسان .

يقول فورنباخ ان نقطة التحول الكبرى في التاريخ ستكون في اللحظة التي سيعي فيها الانسان أن الاله الوحيد هو الانسان نفسه ، الانسان هو إله الانسان . وان سيادة الانسان لنفسه هي في أن لا يكون مديناً لأحد بوجوده .

ويرى كثير من الباحثين أن التمرد على مفهوم الله في العصر الحديث مرتبط الى حـــدٍّ ما بالتمرد على سلطة الأب ، وهذا يتصل بمفهوم الأبوة في العقيدة المسيحية .

ولا ريب أن طرح هذه المفاهيم في أفق الفكر الاسلامي يواجه بكثير من الانتقاد والكراهية . ذلك أن النفس الاسلامية عميقة الايمان بالله الواحد . بل إن مفاهيم العقيدة الاسلامية إنما تقوم أساساً على التوحيد الخالص ، والارتباط الكامل بإرادة الله وقدرته ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ليس كمثله شيء ، خالق كل شيء .

ومن هنا كانت عظمة الاسلام في إقامة العلاقة بين النـــاس والله سبحانه وتعالى على مفهوم العبودية . وليس على مفهوم (الأبوة) . وتلك الفواصـــل الواضحة التي تقوم على أساس التفرقة بين الألوهية والنبوة من ناحية والألوهية والبشرية من ناحية أخرى ، وعدم الخلط بينهما ، وعدم تجاوز البشرية أو النبوة الى الألوهية . ولسنا[1] ندري إذا ألغينا وجـــود الله ، فكيف نعلل وجودنا ووجود العالم . وإذا ذهبنا مع القائلين بقدم وجود العالم وأنه غير محدث ، فكيف نعلل نشوء الحياة ونشوء العقل الانساني .

كذلك فإن محاولة إعلاء الانسان الى أكثر من مكانه الحقيقي ووضعه موضع الألوهية على الكون . ذلك ممـــا لا تقبله العقول السليمة ، أو الفطـــر الصحيحة ، ذلك أن الانسان ليس خالق هذا الكون ، وليس القـــادر على تصريف أي شأن من شؤون الحياة . ثم هو محكوم بالموت الذي يقضي عليه ، فيحول بينه وبين مفهوم الخلود أو البقاء الذي لا يتحقق إلا لله سبحانه وتعالى .

ولقد انحرفت الوجودية عن مفهوم الفطرة حين رأت أن الحياة غاية في الظلام واليأس والغثيان ، وانها بغير غاية ، وانها من المصادفات . مما خلق جو

---

١ – من بحث للمرحوم دريني خشبة .

الشك واليأس والحيرة وخلـــق فكرة « الغريب » التي انتهت الى (الهيبية) المدمرة .

وتقوم فكرة الالحاد على تصور مادي يقول بأن الانسان خُلِقَ من العدم ، وصائر الى العدم ، وأن للانسان حياته المحدودة ، ولا سلطان عليه إلا نفسه الشهوانية فينبغي أن يسارع الى اقتناص الشهوات قبل انتهاء أجله . ويرد كثير من الباحثين ذيوع الالحاد الى جحود الفكر الديني الغربي ، وعدم التطابق بين الفكر والسلوك في حياة الكثير من رجال الدين الغربيين وتصوير الاله في أغلب الاديان تصويراً لا يقبله العقل والمنطق فهو برأيها إله بشري يتشكل في أجساد البشر أو خاص بقبيل من الناس ، محب للدمـــاء محب لعذاب الناس وفناء أجسادهم .

أما الاسلام فإنه يمتاز بمفهوم أصيل عن الالوهية ، واستيعاب كامل لهذا المفهوم الذي هو سر الفطرة ، مع تحرير العبـــادة من الرموز والطقوس والشارات ، وإلغاء الوساطة بين الله والانسان ، « لقد أطلق الاسلام : الدين من كل ما ألصقه به المجسمة والمشبهة ، وجرد محيط العبادة من التماثيل والصور والرموز ، وجعل الارض كلهـــا مكاناً للعبادة ، وجعل روح الدين في الشارع والسوق والمسجد . ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شؤون الدين وتلبس زيـًا خاصاً . بل حتم على جميع معتنقيه أن يكونوا علماء به .

- ٢ -

كان من نتيجة مفاهيم الوجودية ظهور أزمة الفكر والنفس المعاصرة التي تقوم على أساس مفاهيم الغربة والغثيان والتمرد والغيب واللامعقول .

ويرى كولن ولسن أن الغربة هي مرض البشرية في النصف الثاني من القرن العشرين وأن الغريب هو الفرد الذي لا يتلاءم مع المجتمع الذي يعيش فيه ، والذي يشغله التفكير في الجنس والجريمة والمرض . ويمكن وصف الغريب بأنه الانسان الذي ينشق على ذاته ، والذي يميز الغريب هو إحساسه بأن العالم غير حقيقي .

ويستشهد كولن ولسن بقصة الغثيان لسارتر ، والغريب لكامو ، بما يخلق مشكلة انعدام المعنى من الحياة ، ومشكلة الحرية . ويتميز الغريب بإحساسه بعدم ملاءمة البيئة التي يعيش فيها له ، وبعدم قدرتها على إشباع رغباته الخاصة. وفي قصة الله والشيطان لسارتر . يقول : إن الانسان هو الموجود الوحيد في الكون . وانه ليس ثمة في الكون إله غير الانسان .

ولا ريب أن هذا كله قد زلزل إيمان المجتمعات الغربية بأقدس مقدساتها وهو الايمان بالله ، ذلك أن الايمان بالله هو الشيء الوحيد القادر على أن يجعل لحياتنا معنى ، وأن يجعل من وجودنا قوة ، وأن يجعلنا متمسكين بالحياة ونعيشها .

ويرد الباحثون هذه الأزمـــة الى فكرة إعلاء العقل ، مما أضعف مركز الاشعاع الروحي في الانسان وهو العقيدة الدينية .

ومعنى هذا أن أزمة الغريب هي أزمة فقدان الايمان مما أورث الانسان الغربي المعاصر حالة من القلق والتململ والعذاب لا تنجلي عنه حتى يظفر بشيء يعيد اليه عاطفته الدينية المفقودة .

لقد أسقط الفكر الغربي الحديث الدين ، ثم أسقط الفلسفة والتـــاريخ . واليوم يسقط العلم الذي لم يستطع أن يحقق للانسان الأمل الذي كان يرتجيه . ومن ثم تجمعت خيوط الرفض والغربة والتمزق والضياع .

وإذا كان [1] العلم قد قتل الدين في نفوس البشر ، فإن إنسان العصر الحديث يبحث عن إيمان جديد يوازي سطوة العلم ، لقد أضاع الانسان أعز ما يملك . وهو يبحث الآن عن شيء يحفظه . فقد الغرب الايمان وفقد نفسه . وفي طريق البحث بدأ بعالم الرهبة فلم يزده ذلك إلا حيرة وقلقاً . ثم اتجـــه نحو مسالك الشك والالحاد فلم يسعد إلا بمزيد من الخوف والضياع . ثم اتجه نحو التجربة التي تنادي بضرورة تحرير النفس من ضوابط المجتمع ، فكانت الهيبية .

١ - من بحث للاستاذ نجيب صالح .

- ٣ -

يصور أرنولد توينبي (الهيبية) بأنها حركة الانسحاب من الحياة . ويقول : إن الجيل الأوسط مسؤول عن أنه أتى بهذا الجيل الأصغر الى الدنيا وأنه علمه أو شاء تعليمه أو فشل في تعليمه . وسوء الفهم بين الأجيـــال ليس غريباً ولا مفاجئاً ولكنه شيء لا مفر منه . ولسوء الحظ فإن الأزمة الحاضرة في تاريخ الانسان ملحة وخطيرة . وتتمثل الهيبية في معارضة ضوابط المجتمع وتحطيم جميع الحدود ومعارضة الأنظمة المستقرة الأساسية في حيـــاة الناس كنظام الأسرة ، والدعوة الى النظم البدائية ومعارضة الحضارة والدعوة الى الايمان بالجسد والعري ، وتنـــاول المخدرات ، وممارسة عمليات التأمل الباطني والاستغراق في أحلام اليقظة ، وإذابة الذاتية بالخلـط بين الرجل والمرأة ، والسلبية التامة .

وقد استمدت كلمة الهيبز من كلمة (Hip) الانجليزية ومعناها عظم الحرقفة أو أعلى الفخذ . وترتبط فكرة إرسال الشعور بدعوة اليهـــود التي فرضت عليهم ، فحاولوا أن يجعلوها من مظاهر الزينة العالمية كجزء من خطتهم في السيطرة على تطورات الأزياء والزينة في سبيل تحطيم الطبيعة البشرية ، وإذابة

الفوارق بين الرجل والمرأة كجزء من خطتهم بإعلان الحرب على القيم والأخلاق والتقاليد .

وتتعارض كل هذه المفاهيم مع طابع الاسلام والفكر الاسلامي ، ولا تجد طريقاً مقبولاً الى فكر يقوم أساساً على مقومات الأخلاق والضوابط المكينة التي تحمي الشخصية الانسانية من الانهيار والتحلل .

الفصل الخامس

أخطاء مفاهيم التربية

طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في أفق الفكر الاسلامي مفهوماً للتربية مستمداً من تحديات المجتمع الغربي . وقد تحــول الفكر الغربي منذ سيطرت الثورة الفرنسية ، وحطمت المدرسة الدينية التي أقامتها الكنيسة . وأقامت المدرسة العلمانية المتحررة من كل قيود الدين والأخلاق ، والقائمة في مجال التحرر والانطلاق من كل القيود . وقد أجمعت مفاهيم الفكر الغربي على الفصل بين التربية وبين مفاهيم الدين .

وأبرز التباين بين مفهوم الفكر الاسلامي والفكر الغربي في مجال التربية ، ذلك الفصل بين التربية وبين الأخلاق فصلاً كاملا أو جزئياً استمداداً من الفصل القائم في الفكر الغربي بين الأخلاق والدين ، من حيث تقرر النظريات الفلسفية أن الدين مسألة خاصة بالفكر وهي عبارة مهذبة في إنكار المسيحية (الغربية) نتيجة قصور الفكر الديني عن مبدأ الملاءمة المتجددة مـــع أحداث الحياة وخطوات المدنية . ومن هنا كان الاتجاه الى فصل التربية والتنظيم عن الدين والأخلاق استمداداً من المثل الإغريقي في تنمية الانسان عقلياً وبدنياً دون عوائق من عقيدة أودين ، ومع إنكار واضح وصريح للجانب الغيبي كله ، وفيما يتصل بالألوهية والنبوة والوحي . ويرى أكثر الفلاسفة التربويين وفي مقدمتهم جون ديوني أن الدين وفلسفة ما بعد الطبيعة ليست إلا نتاجاً للخيال يقع تحت

الظروف السيئة في الحياة . فالانسان عنده لا يتصور (الله) ولا يذكره إلا في حالات الضعف أو العجز أو اليأس . وعنده أن الدين لا يصلح مقوماً من مقومات المدنية .

وقد جرى الاتجاه التربوي الغربي في إطار الانحراف الذي أصاب الفكر الغربي في العصر الحديث ، وأسقطه في براثن المادية التي فرضت مفهوم الحسيات وإنكار الغيبيات والديانات ، وفتحت الباب واسعاً أمام الاستهانة بالقيم الروحية والاستهانة بالمبادىء والأخلاق وسيطرة شعار العصر (لا شيء صحيح، كل شيء مباح ، كل شيء ممكن) وهو شعار وثني مادي خطير قوامه التحلل والانحراف ، ويرد الباحثون المنصفون ذلك الى سيطرة المادة والآلة ، وتحرر الحضارة من ضوابط الأخلاق ، واندفاعها الى دواعي المتعة والإغراق واللذة . وقد عبّر أحدهم عن ذلك حين قال : إن الإيمان القديم قد زال ، ولكن لم يتكون بعد إيمان جديد يقوم مقام ذلك الايمان القديم .

- ٢ -

من خلال هذه المفاهيم تبدو الفوارق الواضحة بين مفهوم الاسلام للتربية وبين مفهوم الفكر الغربي ، كما يتبين مدى الخطر من سيطرة مفاهيم الفكر الغربي الوافد في التربية على المجتمع الاسلامي وفكره ، ذلك أن العلاقة المباشرة بين القيم الأساسية للمجتمعات والأمم وبين التربية تجعل من الخطأ المحض تطبيق منهج أية أمة مهما كان ممتازاً على بيئة أمة أخرى لها قيمها وعقيدتها وثقافتها .

ولما كانت التربية تجسيد كل ما تقرّ به الأمة من قيم مؤمنة وإنسانية أصبح من الطبيعي أن تتجسد في التربية روح الأمة . ومن هنا فإن الفصل بين التربية والدين . وبين التربية والأخلاق ، إذا صلح كمنهج في الغرب فإنه لا يصلح في بيئة الفكر العربي الاسلامي الذي يتخذ من الدين والأخلاق مقومات أساسية .

وقد كشف عن ذلك كل الباحثين في التربية ، وأعلنوا أننا نأخـــذ من الغربيين مناهجهم وطرقهم وأساليبهم دون أن نلائم بينها وبين منازع أمتنا وحاجات مجتمعنا . يقول أحـــدهم : « أخذنا الأسلوب الأدبي على علاته ، وتعصبنا له أكثر من أصحابه وأسرفنا في تقليده ، مثلنا في ذلك مثل الغراب — فقد مشيته التي كان عليها وصار أقبح الطير مشياً . وأسرفنا في التقليد حتى تكلفنا من الأمور ما لا يشاكلنا وما ليس من طبيعتنا وطورنا ، ونسينا ما أدبنا عليه آباؤنا وأجدادنا وما ورثناه عنهم من قيم خلقية ثابتة » .

ولا ريب أن تربيتنا الاسلامية كانت أكثر اصالة . لأنها قامت على مبدأ المساواة بين الجميع – خلافاً لمـــا كانت عليه التربية اليونانية – فكان غرضها دنيوياً ودينياً ، وروحيًّا ونفعيًّا وفردياً واجتماعياً . ولم يكن هناك فرق بين دائرة الدين ودائرة الدنيا . بل كانت هناك دائرة واحدة للحياة هي مزيج منهما معاً .

- ٣ -

وفي فكرنا الاسلامي تتميز التربية بطابع خاص : أبرز ملامحه تأديب النفس وتزكية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم فهي تربيـــة دينية خلقية صحية جسمية ممتزجة متكاملة لا ينبني نوع منها على حساب النوع الآخر ، والايمان بالله ، هو حجر الزاوية في التربية الاسلامية . والتمييز بين الحـــلال والحرام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبر لأهله ، ومساعدة الضعفاء ، وخلوص النية ، كل ذلك دعائم من دعائمها الأصيلة .

فالتربية في الاسلام تستهدف أساساً تهذيب الشخصية وتزويد قواها الفكرية والبدنية بكل ما يصلحها للعلم والعمل . فتجتمع قوة البدن وقوة الروح . وتقوم التربية الحقة في الاسلام على الاعتماد على النفس والكرامة وحسن الظن بالناس وحرية الإرادة والجرأة الأدبية والصراحة والصدق ، والاستقامة في الرأي والعمل . وقد وضع الاسلام منذ فجره آداب الرفق بالمتعلمين وتعليمهم بالقدوة وتقديس حرية الرأي ، وتفهم الأحكام فهماً صحيحاً .

وتقوم تربية شخصية الفتى والفتاة في بنائها على القـــدوة في البيت أولاً ؛ والجزء الذي يتم منها في المدرسة قليل ، فلا بد أن تكون هناك رسالة للآباء والأمهات . ومن هنا فقد فشلت نظرية ديوني في فصل الدين عن التربية ، ولم تجد تقبلاً في مختلف الدوائر العالمية ، وهي أولى أن لا تصلح في أفق الاسلام .

وقد أشار بيارد دورج في كتابه التربية الاسلامية في العصور المتوسطة الى مدى ذاتية التربية الاسلامية وخصيصتها البارعـــة حين قال : إن التربية الاسلامية تهدف الى نشدان الحقيقة والخير لذاتها ، وعند ما ندرس سير علماء المسلمين الذين انقطعوا للعلم نعجب بالتصوف العلمي الذي كان يتجلى في العالم الاسلامي . فلا غرض مـــادي ، ولا هوى سياسي ولا سعي لشهرة زائلة . بل وقف العقل والنفس للوصول الى الحقائق والسعي إليها وقـــد عنيت التربية الاسلامية بالأخلاق والفضائل ، بعد أن أدرك المربون بالبداهة أن تدريب

العقل واستيعاب الحقائق هما جزء من عملية تدريب الطالب . ولكن الغاية القصوى هي تهذيب النفس وتقوية الأخلاق .

ومن هنا « فلا غرابة أن يمتـــاز الاسلام بضروب من التربية تختلف في أهدافها ووسائلهـا عن ألوان التربية الاخرى التي سادت حضارات شتى . واعتمدت على دعائم مغايرة لتعاليم الاسلام ، وهي القائمة على التوحيد وامتزاج الروحية بالمادة، وترابط العقل والقلب . وهي حين تقوم على المحاكاة والتقليد، وتجمع النفس والروح والعقــــل والجسم معاً ، وتتمثل العقيدة والاخلاق فهي تطبع الشخصية بطابع خاص في النظرة الى الحياة[1] . أما في الغرب فالاساس هو الفصل بين الدين والمجتمع وبين الاخلاق والتربية وإقامة الحرية المطلقة بديلاً للتقوى والضوابط الاسلامية . وقد حقق الاسلام ما يطالب به المصلحون اليوم وهو قيام تربية خلقية الى جوار ثقافة الفكر والمعرفة .

— ٤ —

والمسلمون اليوم لا يجدون أنفسهم في حاجة الى مفهوم الفكر الغربي الوافد في التربية وإنما يجدون حاجاتهم كلها في منهج التربية الاسلامي ، ذلك أن معنى عزل الدين عن التربية هو بناء شخصية هشّة طريّة لا تملك القدرة على حمل أمانة الأمم أو مقاومة الغزو ، أو مواجهة وسائل الإغراء ومؤامرات القضاء على حريات الاوطان ، وان عزل الدين والاخلاق عن التربية يفتح أمام الشباب أبواباً من الانهيار والتحلل تدفعهم الى الانزلاق الى الشهوات والاهواء . ولقد تحطمت حضارات الفرس والرومان والفراعنة ، وتتحطم اليوم الحضارة الغربية تحت تأثير هذا الخطر . ولا ريب أن دعـــاة المنهج العلمي الغربي الوافد ، إنما يطمعون في القضاء على نهضة المسلم عن طريق تدمـير عناصر التماسك في بناء مجتمعه وأفراده عن طريق الفصل بين القيم ، ودفعـــه الى مغريات الغرائز واللذات .

---

١ – بتصرف عن الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .

الباب الخامس

أخطاء المنهج الغربي الوافد

الفصل الأول

أخطاء المنهج الغربي الوافد

كان المنهج العلمي الغربي الوافد في كل محاولاته في ميادين العقـــائد والأدب والاجتماع والفكر متجاوزاً للمجتمع الاسلامي ومعارضاً للقيم الأساسية للفكر الاسلامي . فقد كان يصدر أساساً من منطلق الاحتواء ومحـــاولة السيطرة : سيطرة الفكر الغربي الذي يحمل لواء الحضارة والاستعمار معاً ، ويحاول أن يبهر النفس العربية الاسلامية بقوته وجبروته ، ويحمل مع ذلك دعوة المسلمين والعرب الى الـــتماس أسلوبه ومفاهيمه ومقوماته كسبيل للوصول الى السيادة والسيطرة .

ومن هنا انطلقت الدعوة من اتباع المنهج العلمي الغربي الوافد الى نقل المناهج والأساليب الغربية واعتناقها في مختلف مجالات الفكر والحياة .

ولقد التمست أسلوب العلمانية أساساً . والعلمانية تعني الفصل بـــين الدين والمجتمع وقصره على العلاقة بين الانسان والله ، ودفع المجتمع الاسلامي الى مجال الأيدلوجيات المتصارعة : الليبرالية والماركسية . وقـــد مر المجتمع الاسلامي بمرحلتين : خضع خلال إحداهما لهذه ، وفي الأخرى لتلك . ولكنه سرعان ما تحرر منهما جميعاً وتحقق بالتجربة أن أسلوب الحياة لأمة ما هو أسلوب فكرها الأصيل .

ولقد اصطنع المنهج العلمي الغربي الوافد في سبيل فرض نفوذه وسلطانه في

أفق الفكر الاسلامي أساليب كثيرة كان أخطرها : قـادة الفكر ، وكتّاب الصحافة ، وأساتذة الجامعة . وكانت الصحافة والمدرسة أخطر المؤسسات ، ثم جاءت بعد ذلك الاذاعة والسينما .

وكان الاستشراق أخطر أدوات فرض المنهج العلمي الغربي الوافد ، ذلك أن الاستشراق في أبسط مفاهيمه ، إنما هو استخدام العـلم في خدمة السياسة ، ولذلك فقد اتصل الاستشراق بالاستعمار ، واتخـذ من روابطه الدينية أساساً لتدمير النفس العربية الاسلامية وإخراجها من أصولها وحدودها .

ومن ثم كانت مادته الخام هي الأداة التي حملها التبشير وأذاعها في مناهـج المدارس والارساليات وفي أحاديث الصحف وفي نصوص المؤلفات .

وخطأ الاستشراق وخطره أنه يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة ، وبأهداف واضحة أساسها خدمة النفوذ السياسي وقوامها التعصب .

ولقد كشف الكثير من النصوص التي قدمها المستشرقون عن هوى في القصد وقصور في الفهم ، وإذا كان الاستشراق خالصاً لوجه العلم . فلماذا يركز دائمـاً على الجوانب الواهنة والروايات الضعيفة والشبهات المثارة ؟ ولمـاذا يركز على الشخصيات الضالة : (كالحلاج ، والسهروردي ، وأبي نواس، وابن الراوندي)، ولماذا يحاول تحطيم الشخصيات البارزة أمثال (المتنبي، وابن خلدون، والغزالي) ؟ ولماذا يركز على الأثر الفارسي والهندي واليوناني ويحاول أن يجعله مصدراً للفكر الاسلامي الذي تشكل واكتمل قبل اتصاله بالفكر الوافد ؟ ولمـاذا يركز على الخلافات بين المسلمين ويؤرث الخصومات بين القوى حتى لا تتم لهم وحدة فكر؟ ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والقرامطة والمجوسية ؟

لقد ركز الاستشراق على الأفكار الدخيلة على الاسلام والفلسفات الوافدة وحاول تصويرها على أنها جوهر الفكر الاسلامي ، مع الإغضاء المتعمد عن القيم

الأساسية للاسلام ، كذلك الاهتام الدائب بوحدة الوجود والحلول في التصوف والعاميات في اللغة والفلكور والأمثال الشعبية .



ولقد اتخذ التبشير هذه المفاهيم وعمد الى نشرها من خلال مناهج الدراسة وأصول الثقافة ودراسات التاريخ والأدب بهدف إخراج المسلمين والعرب من القيم التي تدفعهم الى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبي ، وعدم الانصهار في الأممية والعالمية ، وللحيلولة دون إقامة مجتمعهم الخاص المستمد من قيمهم وتاريخهم ولغتهم ودينهم . والهدف من ذلك هو إذابتهم في الثقافة الغربية بأحد شقيها . وتتمثل خطة التبشير التي رسمها (شاتليه وزويمر وماسنيون وغيرهم) في أن يكون التبشير عملاً مبنيًّا على قواعد التربية العقلية ، والتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم . فإن عجزت إرساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية في نفوس معتنقيها ، فإنها تستطيع أن تحقق هدفها في هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والالمانية والهولندية والفرنسية مما يمهد الى إدخال الأفكار الغربية الهدامة للفكر الاسلامي عن طريق هذه اللغات . ومن هنا تسقط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الاسلامية وتحل بدلاً منها الخصائص الغربية .

ويقوم عمل التبشير في مجال التعليم على أساس فرض ثقافة الغرب وتاريخه وبطولاته ولغته وإقصاء لغة العرب والمسلمين وتاريخهم وإثارة الشبهات حولها وانتقاصها .

أما في مجال الثقافة ، فهو يهدف الى إثارة الغمزات والاتهامات للشريعة الاسلامية واللغة العربية والسنة النبوية على نحو يفتح باب الشكوك والاتهامات ، ويجري ذلك وفق مخطط مدروس وأسلوب دقيق ، فهو يبدأ أولاً بإثارة قضية جزئية ، ثم يتوقف ليهدأ بإثارة قضية جزئية أخرى ، بحيث لا يشعر الباحث

أن هناك ترابطاً بين هذه الاثارات وبعضها ، اعتماداً على أنه في المدى الطويل يستطيع أن يكشف من وراء ذلك عن خصمٍ للفكر الاسلامي وصديقٍ للتبشير والفكر الغربي يكون عوناً على أبناء وطنه ودينه وتاريخه .

* * *

ومن كل هذا نجد أن المواجهة الاسلامية العربية للفكر الغربي كانت مواجهة لخطر واضح ولهدف مدبر ، ولم تكن مواجهة فكرٍ لفكرٍ على نحوٍ حرٍ يستطيع أن يأخذ أو يترك ، وأن يحدد موقفه سلفاً بتأكيد ذاتيته ومعرفة ما يلتقي فيه مع الفكر الغربي أو يختلف معه .

لقد كان لعجز الإرادة في العرب والمسلمين خلال مرحلة الاستعمار وما بعدها أثر كبير في استشراء المنهج العلمي الغربي الوافد وسيطرته على كثير من مجالات الثقافة والتربية والتعليم والاجتماع . غير أن مرحلة التبعية والتقبل القسري قد انتهت ، أو أوشكت أن تنتهي الى ضوءٍ كاشفٍ من الرشد الفكري ، والتماس الذاتية ، والتعرف على الجذور ، والإيمان بأن معطيات اليقظة الحقيقية إنما تصدر من الفكر الأصيل لكل أمة وليس من الفكر الوافد .

ومن هنا فنحن نرى كيف أن مفاهيم المنهج العلمي الغربي الوافد ، تواجه الآن بشيء كثير من التحقيق والنقد والتعرف على الخلفيات والغايات التي تحملها أو تدفعها الى أفق الفكر الاسلامي ، ذلك أن جميع الشبهات والأهواء والزيوف القديمة التي عرفتها البشرية قبل الاسلام ، قد أعيدت صياغتها من جديد في أسلوب براق ومنهج له طابع علمي ، وأحيطت بضياء يخطف الأبصار من كتب لامعة أو أسماء شهيرة أو مؤسسات كبرى ، وذلك في محاولة دفعها الى العقل الاسلامي والنفس الاسلامية ، لإحداث ذلك التضارب الخطير بين القيم ، وإزاحة المثل العليا الأساسية للفكر الاسلامي القائم على التوحيد والإيمان بالله ، والإرادة النفسية والمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي والإيمان بالبعث

والجزاء ، وتبدو المحاولة واضحة من حيث ترابط الغايات والأهداف بين خصوم الاسلام كدين ،وخصوم العرب كأمة ،وخصوم العالم الاسلامي كقوة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، بما يوحي بأن هناك تجمعاً حقيقياً لسحق هذا الفكر وهذه الأمة ، وهو ما يوحي بصدق مـــا وصفه الرسول الكريم بتداعي الأمم على المسلمين تداعي الأكلة على قصعتها .

تلك هي الازمة الكبرى التي يمر بهـــا المسلمون وفكرهم وعقيدتهم اليوم ، وهي أخطر مما ألـمّ بالمسلمين والعرب من قبل ، من أزمات التتار والصليبيين والاستعمار الغربي ، من حيث هدف المحاولة الماكر ، وهو القضاء على العقـــل الاسلامي والإيمان والعقيدة أساساً . وليس السيطرة على الارض والمضائق والممرات الاستراتيجية والنفط فحسب . ذلـــك هو وجه الخطورة الذي يحتاج الى النظروالنظر البعيد .

- ٢ -

ونحن في هذا المجال نجد الكثير من الشبهات والاخطـاء والتجاوزات التي تؤثر في اصالة المنهج العلمي الغربي الوافد كمنهج عالمي ، أو إنساني ، أو منهـج صالح للأخذ به في آفاق الفكر أيًّا كانت ، فضلاً عن قصوره في مجال الفكر الاسلامي الرحب المتكامل الجامع وفشله عن الاحاطة والفهم والتعمق لمعطياته وعجزه عن استيعاب أبعاده .

ويرجع ذلك الى أن النظرية الغربية الوافدة هي من صنع قوم آخرين أقاموها على مقاييس مجتمعهم ، وابتدعوها في ظل تحدياتهم الاجتماعية والتاريخية جميعاً . وأن الصورة المسيحية فيهـا ترتكز على الاعتقاد بأن الطبيعة البشرية فاسدة فساداً دائماً ، اثر الخطيئة الاولى : خطيئة آدم ، وقوام هذه النظرة العمل على محاربة الطبيعة البشرية وقتل الميول الجنسية ، ثم جاءت الصورة الوثنية المادية التي تدافعت الى تحرير الطبيعة البشرية بهدم ثياب الاخلاق وإقـامة التطور المطلق وإعادة الانسان الى الرق والجبرية والمجتمع البدائي المنطلق الى الطعـام والجنس بكل ما في شريعة الغاب ، وحياة الغابة ، من عبودية وإباحة .

ومن عجيب أن الايدلوجيات الليبرالية والماركسية هي على السواء في ذلك نزعة ومنطلقاً واستمداداً من أصول المادية الوثنية ، وإن مالت إحداهـا نحو نداء الطعام ومالت أخرى نحو نداء الجنس .

وجاء ماركس وفرويد ودوركايم وليفي بريل وسارتر وكلهم على طريق واحد . فلما طرح هذا كله في أفق الفكر الاسلامي بدا غريباً وربما أثار إعجاب النظرة القاصرة من حيث براعة عرضه ، واندفاع النفس الانسانية دوماً الى التحلل والإباحية دون تقدير أثر ذلك على الامم والجماعات . غير أن المسلمين لم يلبثوا أن صححوا موقفهم وأخذوا يراجعون فصائل المنهج العلمي الغربي الوافد في مختلف مجالاته ، وبشتى تياراته الليبرالية والماركسية والوجودية والمادية لاستكناه جوهرها وفهم حقيقتها . ومن ثم وجد أن المنهج العلمي الغربي الوافد :

أولاً : لم يستوف شروط النظرية العلمية ولم يلتزم بأخلاقية البحث التي تفرض النزاهة والتجرد عن الأحكام القبلية والعنصرية ، ودواعي الميل والهوى وخاصة عندما يتعرض للفكر الاسلامي وتاريخ الاسلام. فإنه يقوم على افتراض مسلمات أساسية يحاول أن يثبتها بتلفيق الحجج وبراعة العرض لاعطائها صورة الحقيقة وإثارة الشبهة في نفوس المطالع لها .

ثانياً : وضوح ظاهرة الخضوع للاغراء والهوى في سبيل هدف أساسي هو استقطاب فكر هذه الأمة والسيطرة عليها واحتوائها .

ثالثاً : الانطلاق من مقدمات خاطئة ، والتفرقة بين الأبيض والاسود ، وإعلاء العنصر الابيض ، وتشويه الحقيقة العلمية والحقيقة التاريخية لخدمة الاستعمار أو هوى الغرور الذاتي، والاستجابة لمركب الاستعلاء بالجنس والعنصر والحضارة .

رابعاً : جمع ما تفرق من شبهات ، ومحاولة إعطائها صورة كاملة مما ورد في كتب التراث واستخدام هذه الكتب استخداماً خطراً بإبراز كل ما يفرق ، وإخفاء الحقائق ، والتركيز على الشبهات والصور الشاذة والشخصيات المدمرة وإعادة طرحها من جديد في أفق الفكر الاسلامي .

خامساً : سوء الظن الدائم بكل ما يتصل بالاسلام في أهدافه ومقاصده . وسوء الفهم لكل ما يتصل بالبيان العربي، ووجوه الخلاف في الاخلاق والتقاليد والقيم . وإخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم ، وتحريفهم للنصوص في كثير من الاحيان تحريفاً مقصوداً ، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف ، وتحكمهم في المصادر التي ينقلون منها . فهم ينقلون من كتب الادب ما يحكمون به في تاريخ الحديث والشريعة، ومن كتب التاريخ مثلاً ما يحكمون به في تاريخ الفقه. ومن ذلك فإنهم يصححون ما ينقله الدميري في كتابه حياة الحيوان . ويكذبون ما يرويه مالك . كل ذلك جرياً مع الهوى وانحرافاً عن الحق .

سادساً : اعتبار تاريخ أوربا هو تاريخ العالم كله والاعتقاد أن هناك حضارة واحدة في العالم هي الحضارة الغربية ، وأن الجنس الأبيض هو سيد العالم ، وأن العصور الوسطى كانت عصوراً مظلمة في العالم كله بينما أن تاريخ أوربا ليس تاريخ العالم بالقطع . وان هناك حضارات عديدة سادت العالم ، وما تزال تسوده . وليست الحضارة الغربية وحدها التي ارتفعت بالعالم وليست هي خيرها. وان العصور الوسطى كانت عصوراً مظلمة في أوربا وحدها . ولكنها كانت مضيئة في العالم كله : العالم الذي أشرق عليه نور الاسلام .

- ٣ -

ومن هنا فقد تقرر في العقل الاسلامي العربي الحديث (بعد تجربة طويلة استمرت أكثر من مائة عام) زيف هذا المنهج العلمي الغربي الوافد ومعارضته للذاتية والمزاج والتركيب الاجتماعي والروحي والعقـــلي العربي الاسلامي ، كما تقرر أن الاسلام ، والاسلام وحده هو المنهج القادر على إعطاء المسلمين والعرب مكانهم الحق في البشرية . وقد تبين من وقائع التاريخ المعاصر ما يكفي العرب والمسلمين خبرة وتجربة بخطأ اعتناق فلسفات المجتمعات المتقدمة مادياً ، وخطأ إخضاع العقيدة للعنصرية ، وتأكد أن حضارة المسلمين لن تقوم على العلم وحده ولكن على العلم والعقيدة ، وذلك انطلاقاً من الايمان بأن الانسان انسان بكيانه كله ؛ روحه ومادته : وعلى أساس ثبات الأخلاق والحركة في إطار الثوابت .

والاسلام في حقيقته وفي فهم المسلمين له : ليس نظرية ولا أيدلوجيـــة . ولكنه منهج متكامل يهدف الى تحقيق قيـام المجتمع الرباني الأصل الانساني المظهر . وان الاسلام لا يقبل الأيدلوجيات الوافدة . لأن له منهجه الخاص ، وان تعاليم الاسلام وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها أو تفتيتها أو الأخذ بفرع منها دون الآخر . وان للاسلام نظرية أصيـــلة في الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق والاقتصاد تعرض عليها كل النظريات الوافدة فتقبل منها وترفض على هذا الضوء الكاشف .

ولقد عمل الاسلام على تحرير اتباعه دوماً من التأثير الأجنبي بكل أنواعه ، ودعا الى اليقظة إزاء الفكر الوافد الذي يهدف الى تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسي .

وفي خلال أربعة عشر قرناً لم يستسلم الفكر الاسلامي للنظرية الوافـــدة مطلقاً . وقاومها طويلاً في شتى صورها ، وأعلن وجهة نظره واضحة في مختلف القضايا . ولم يتوقف عن حماية نفسه ومعارضة كل وافد .

– ٤ –

أما الاسلام فقد قدم منهجاً إنسانياً عادلاً رحيماً ، وهو أقرب مـا يكون للفطرة البشرية وأصدق ما يكون تقبلاً من العقل ، فضلاً عن جمعـه للجانب المادي والمعنوي معـاً . وهو لم يحتقر الأمور الدنيوية في سبيل الاعتماد على الروحيات، ولم يفعل العكس ، وفي نفس الوقت لم يضحِّ بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع من أجل الفرد .

وليس في الاسلام تناقض بين المثل العليا والواقع العملي للناس ، وفيه يلتقي الدين والعلم . وميزة الاسلام أنه لم يفرض الحلول مقدمـاً ولم يطبقها بالقسر والإكراه . بل كانت تعاليمه متفاعلة دوماً مع طبيعة الفرد ومـع بشريته ، وكانت وقاية له من الأزمات والمشاكل قبل أن تكون حلولاً للأزمات والمشاكل.

ولقد اعترف الاسلام بحقوق الانسان وميوله وعواطفه ، وجعـل ضوابطه وحدوده في الأساس مستهدفة عدم استهلاك الانسان لطاقاته الجسدية . وكانت الدعوة الى الاعتدال والقصد دون الإسراف الذي يفضي الى الانهيار ، ودون الجحود الذي يؤدي الى الانحطاط .

وليس في الاسلام سر ولا تناقض ، وليس فيه ما يصادم العقل البشري أو الذوق . ولم يحجر الاسلام على العقل ، ولم يجعل له سلطاناً مطلقاً .

والاسلام يخاطب العقل والقلب معاً، ويؤكد وحدانية الله وكرامة الانسان. وقد أبطل سلطان الوسطاء بين الانسان والله .

وعلم أتباعه أن يواجهوا الحياة بواقعية ورباطة جأش ، وحثهم على الإقبال على الدنيا والزهد فيهـــا في آن واحد في توازن منضبط لا تفريط فيه ولا إفراط .

ولا ريب أن الافتراض النظري الذي قدمه المنهج العلمي الغربي الوافد بأن الدين يحرف الانسان في كل زمان ومكان عن النضال والعمل ، هـذا الافتراض يتناقض تناقضاً تامًّا مع تاريخ الاسلام وأصوله التي جعلت الجهـــاد فريضة أساسية .

الفصل الثاني

وجوه التباين والاختلاف

خطوط عامة لوجوه التباين والاختلاف بين المنهج العلمي الغربي الوافد والمنهج العلمي الاسلامي

في مراجعة عامة لوجوه التباين والاختلاف بين المنهج العلمي الغربي الوافد وبين المنهج العلمي الاسلامي نجد الحقائق الآتية :

أولاً : لا ريب أن هذه المذاهب الغربية موضوعة في أسلوب له طابع علمي براق ليخفي ما وراءه من هدف .

لقد بدأت هذه المذاهب من خلال تحديات مجتمعها ، ومرت بأطوار مختلفة واستجابت لظروف وأوضاع تتعلق ببيئتها ، وكانت هذه المذاهب في أول أمرها محاولات لتحل محل الأديان ، ثم أصبحت معارضة لها . وقد ظهرت هذه المذاهب حين عجز الدين في الغرب عن العطاء وحين انفصلت الأخلاق عن الدين .

ثانياً : من أهم العوامل التي تؤثر في اصالة المنهج العلمي الغربي أنه يقوم على مسلمات أساسية تخالف مخالفة كاملة لمفاهيم الفكر الاسلامي من ناحية ، والحقائق التاريخية . وتتعارض مع التاريخ البشري عامة ، والتاريخ الاسلامي خاصة . وتتجاوز ما يعتقده المسلمون ، والعرب بصفة خاصة .

ثالثاً : إن المناهج العلمية الوافدة متضاربة متعارضة ، فإن كل منهج منها قد نشأ في بيئة معينة . وحاول الاستجابة لتحدّ معين ، ومنها مناهج طرحت في مواجهة الدعائم والأسس التي يقوم عليها الفكر الاسلامي ، كاللغة العربية والقرآن ونبوة الرسول ووحدة المسلمين. وفي كل هذه القضايا لا تستطيع المناهج الوافدة أن تستوعب الأصول والحقائق ، حتى لو أرادت أن تحكم حكماً نزيهاً صادقاً. ثم هي في نفس الوقت تعجز عن هذا الحكم لأمرين: لخضوعها لأيدلوجيات لغاتها وفكرها ، ولمفهومها الموروث إزاء الشرق والغرب والأجناس من غير الجنس الأبيض .

رابعاً : لا ريب أن للغربيين مثلاً وغايات في الحياة ، وقيماً في الأخلاق، ومقاييس في المجتمع ، وأهدافاً خاصة ، ومزاجاً نفسياً منبعثاً من عقائدهم ومواريثهم ، كما أن للغرب أيضاً مشاكله وظروفه الخاصة . وله تحديات في مواجهة العقائد . وكذلك فإن للغرب مفهوماً خاصاً للدين ، تكوّن من خلال ظروفه التاريخية من جهة ومن طبيعة دياناته من ناحية أخرى .

خامساً : لا ريب أن الغرب في السنوات المائة الماضية، قد انتقل الى مرحلة مختلفة في الفكر والفلسفة والنظرة الى الأدب والعلم والاقتصاد والاجتماع . وهي مرحلة تختلف عن المرحلة السابقة لها ، والتي كان يطلق عليها اسم : الفلسفة المثالية ، وريثة الفكر الغربي المسيحي ، أما المرحلة الجديدة ، فقد غلب عليها طابع العلمانية المتحررة من عنصري الدين والأخلاق ، القائمة تحت تأثير الفكر المادي الخالص ، سواء في النظرة الغربية أو في النظرة الماركسية ، فكلتاهما أصبحت الآن تستمد أُسُسَها وأصولها وجذورها من معين واحد هو الفكر المادي الخالص .

سادساً : إن كل الأبحاث والدراسات المنصفة العلمية تقرر أن الفكر الغربي يخوض أزمة عنيفة ، وأن المجتمع الأوربي يقاسي أزمة قاسية ، وأن الحضارة

الغربية والانسان الغربي في مواجهة أمواج عاصفة من القلق والتمزق والضياع ، وانفصام الشخصية . ويردون ذلك كله الى غلبة الطابع العقلي المادي الحسي على الطوابع النفسية والروحية والدينية . وقد حدد الفكر الغربي موقعه تماماً في هذه المرحلة من كل القضايا على أساس التجزئة والانشطارية ، فاعترف بالعلم والعقل والمادة ، وأنكر ما سوى ذلك من مقدرات النفس البشرية الجامعة للمـــادة والروح والعقل والقلب .

سابعاً : إن أبرز طوابع المنهج العلمي الوافد ، ذلك التغير الدائم الذي لا يستقر على رأي ، والذي ينقض نفسه بنفسه، ذلك أن هذه المذاهب والنظريات التي توصف بأنهـا (علم) قـد بدأت في أول أمرها « فرضية » وضعت تحت الاختبار ، ثم تحولت مع الزمن الى « نظرية » ، ولم تستطع نظرية واحدة حتى الآن أن تثبت أكثر من جيل في مواجهة المتغيرات ، ومـا من نظرية بدا أول الأمر أنها ذات بريق عبقري إلا وقد اجتاحتها عوامل الفساد فعدلت مرة بعد مرة في محاولة للبقاء ، وقد تصدعت نظريات الفرويدية والماركسية والوجودية وهي كبرى هذه النظريات .

ثامناً : أخطر ما يمثل المنهج العلمي الوافد عجزه عن التفرقة بـين المفاهيم التي تتصل بالانسان وبين المفاهيم التي تتصلّ بالكون . ففي مجال العلوم نجـــد « منهج التجريب » ، وهو منهج ثابت دقيق لأنه يقوم على معادلات مضبوطة ثابتة ، أما في مجال الانسان فإن الأمر يختلف اختلافاً كبيراً ، ولا بد من منهج آخر لدراسات الانسان غير منهج العلوم المادية ، بل وغير التجارب التي تجري على الحيوان . فإذا مـــا طبق المنهج العلمي الوافد مناهج العلوم المادية على الانسان . فإنه يواجه في فكرنا الاسلامي العربي اختلافاً كبيراً .

تاسعاً : إن المنهج العلمي في فكر ما يختلف عنه في فكر آخر ، اختلافـاً جذرياً في جوانب عديدة من اختلاف الأمم والشعوب والعقائد . وفي كل أمة

نجد أن الأخلاق والعادات والتقاليد والآداب مختلفة ، ونجد أن الذوق والروح والمزاج متباينة أحياناً لدرجة أن ما تعده أمة ما مقبولاً عندها نجـده مرفوضاً تماماً في أمم أخرى . ذلك أن لكل أمة مقوماتها الأصيلة ومنابـع إلهامها التي تختلف باختلاف الدين والتاريخ . وبالنسبة للفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي فإن عوامل قوية عميقة الجذور في الأخلاق والعقائد واللغة تجعل من المستحيل تطبيق منهج علمي أو نظرية اجتماعية أو مذهب أدبي وافد عليها .

عاشراً : قام الفكر الاسلامي وفي أحضانه الثقـــافة العربية على أساس تأكيد الذاتية والأصالة . فقد دعا الاسلام معتنقيه الى معارضة التقليد للأجنبي ، وحذرهم من التشبه بغيرهم ، وحرص على أن تظـــل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة . ولذلك فقد أعلن حرباً شعواء على التقليد والتبعية معاً ودعا الى إعلان التميز في العادات والأخلاق ، وأعلن أن التقليد فقدان للشخصية ، وأن التبعية عبودية للفكر والعقل .

حادي عشر : إن العلم سوف يعجز عن القضاء على الدين ، بل سوف يؤكد الدين ، وإن كان الدين لا يفسر ظواهر الكون كالعلم ، فهو يضع الإطـــار الأخلاقي للحياة ، ويرسم منهج العلاقة بين الله والانسان . والاسلام هو الذي أقام للعلم منهجه ومنطلقه من حرية البحث وصراحة التفسير والتسامح الديني ، وهو الذي مهد لظهور المنهج العلمي التجريبي ، وان أي حديث عن الصراع بين العلم والدين فهو عن غير ديننا وغير تاريخنا .

والعلم أعجز من أن يقدم تفسيراً نهائياً لأشياء الوجود وغايته أن يقدم تفسيراً جزئياً لظواهر الأشياء .

ثاني عشر : يقرر الاسلام مكانة الانسان في الأرض ، ويؤكد حق استخلافه وأمانته ومسؤوليته الفردية . والتزامه الأخلاقي الذي يستتبـع البعث والجزاء ، ويؤكد الاسلام أهمية الانسان كفرد وأهميته كفرد في مجتمع . ويؤكد حاجته

الى التقدم المستمر . ولذلك فهو يحرر طاقاته كلها (فكرية وخلقية وعملية) لينطلق في سبيل خدمة تقدمه كإنسان ، وفي خدمة المجتمع ككل وفق ضوابط خاصة ، وفي إطار حركته الخالصة لوجه الله تعالى .

ولقد وقف الاسلام أمام الانسان موقفاً مخالفاً لموقف الفلسفات والعقائد ، وأقام مفهومه على أساس تكريم الانسان بوضعه موضع الاستخلاف في الأرض والنظر إليه من خلال طبيعته الأصيلة الجامعة بين الروح والجسم والعقل والقلب . وبوصفه كياناً متكاملاً ، وبذلك أقر رغباته المادية كلها وأباحها له دون أن يقيدها إلا بضوابط قصد بها حماية الانسان نفسه من الانهيار والتدمير . وحتى يكون قادراً على أداء رسالته ، ومواجهة تحدياته دون أن يضعف أو يتحطم وجعل سعيه في الحياة الدنيا مرتبطاً بالجزاء في الآخرة . والاسلام لا يرفع الانسان عن مستواه ولا يخفضه عن مكانته الصحيحة .

ثالث عشر : إن الدين جزء من الطبيعة البشرية . ولا يستطيع الانسان أن يعيش بغير دين ، ولقد عجزت الأيدلوجيات والمذاهب أن تقدم له بديلاً عن الدين يشفي روحه ويملأ حياته . ولقد حررت الأديان الانسان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه الى الله وحده .

لقد علمت الأديان الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية . ولكنه إنسان ذو كرامة . لقد نقلت الأيدلوجيات الانسان من عبادة قوى الطبيعة الى عبادة قوى المال والمادة . ولكن الدين الحق يرد الانسان دائماً الى الله الواحد .

رابع عشر : قد تختلط طوابع الانجليز والفرنسيين والألمان والأمريكيين (وهو ما زال يبدو عسيراً) لأن هناك جامعاً يجمعهم من أصول دين ، وثقافة ، ولغة . ولكن من العسير أن تختلط طوابع المسلمين والعرب معهم ، وقد تشكلت بمعزل عن هذه الأمم واستمدت أصولها من دين وفكر غير دينهم وفكرهم . هذه الطوابع والقيم التي قادتهم في الحياة على المدى الطويل وحققت لهم التمكن

في الأرض والقوة والمهابة في نظر الأمم ، ولذلك فمن العسير التخلي عن هذه القيم وتقبل الاحتواء والإذابة في الأممية العالمية .

خامس عشر : حرر الاسلام الفكر من الظنون والفروض والأساطير والخرافات والأوهام والأهواء ، ودعا الى التماس المنابع الأصيلة ، وفي مقدمتها (القرآن) . ومن هنا فإن تحرك الفكر الاسلامي إنما يجري أساساً في إطار القرآن . فإذا خرج عنه وقع الحرج الذي لا يرفع حتى يعود الى القرآن .

ولقد كان التأويل من أخطر الأسلحة التي استعملت لتفسير النصوص تفسيراً يخرجها عن مدلولاتها الأصيلة الى مدلولات منحرفة ومفاهيم مبتورة .

ولقد هاجم الاسلام الخرافات والسحر والكهانة ، وأنكر العرافين وطارد الاوهام والمعتقدات الباطلة ، وأنكر ادعاء علم الغيب ، واعتبر السحر كفراً ، وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمانه على الضعف البشري الذي يجعله ألعوبة في يد أوهام الطوالع وأضاليل العرافين .

سادس عشر : إن حاضر الفكر الاسلامي والأدب العربي والثقافة العربية لا ينفصل عن ماضيها الممتد المتصل المتفاعل خلال مراحل التاريخ المختلفة دون توقف . وان الفكر الاسلامي الحديث هو ثمرة الفكر الاسلامي الذي بناه القرآن . وان الثقافة العربية وليدة الفكر الاسلامي .

ولقد ولد الفكر الاسلامي في أحضان التوحيد الذي حرر النفس الانسانية والعقل البشري من الوثنية والخرافة والأسطورة . وأقام منهج البرهان والعلم والتجربة .

سابع عشر : إن الحرية في مفهوم الاسلام هي تحرير العقل البشري من قيد الوثنية والجهل والخرافة والتقليد ، وتحرير الانسان من قيد العبودية وسلطان الاستبداد والطغيان .

ثامن عشر : إن مفهوم الأخلاق في الاسلام يقوم على أساس تلك القيم الثابتة الراسخة التي أثبتت أجيال البشر جيلاً بعد جيلٍ انها مرتبطة بالانسان ، وليست مرتبطة بالمجتمعات والعصور . وقاعدة الأخلاق الأساسية أن الحق واحد ، وأنه لا يتعدد ، وأن أساس الأخلاق هو التمييز بين الخير والشر والحق والباطل ، وأن مفهوم الأخلاق في الاسلام يحرر الانسان والمجتمع من عبادة الجسد وتقديس الشهوة وتأليه الأبطال .

تاسع عشر : إن أبرز مفاهيم الاسلام أنه وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها ولا تفتيتها أو الأخذ بفرع منها دون آخر ، فكل عنصر منها متصل بباقي العناصر ، مؤثر فيها متأثر بها ، ومن هنا فقد تكاملت تعاليمه الاجتماعية والأخلاقية والتربوية .

عشرون : حرر الاسلام الفكر الاسلامي من مشكلة البحث فيما وراء الطبيعة ، أو عالم الغيب فقدم له منهجاً كاملاً يرضي نفسه ويسد حاجته الروحية . وذلك حتى يفرغه لمهمته في بناء الحياة وتعمير الكون وتحقيق العدل والإخاء الانساني .

واحد وعشرون : ربط الاسلام بين العقيدة والتطبيق ، وقرن العلم بالعمل ، ورفض مبدأ العلم للعلم ، وقرر أن العلم إنما يطلب من أجل العمل به والاستفادة منه في تحسين الحياة الانسانية وتقدمها ، وكشف عن أن الطبيعة البشرية مزودة بقدرتين مترابطتين : قدرة نظرية قادرة على تحصيل العلم ، وقدرة عملية قادرة على تقويم العمل ، ولا بد من الاثنتين معاً .

ثاني وعشرون : فرق الاسلام بين العلم النافع والعلم الزائد عن الحاجة ، ودعا المسلمين الى أن يأخذوا من كل علم أحسنه ، هذا مع أهمية الاجتهاد ، ورفض

التقليد ، والبحث عن البرهان ، وقبول الدليل ، وتغيير الرأي دون حرج متى تبين أن غيره أصح منه .

لقد قرر الاسلام أن هناك معارف جوهرية ، ومعارف غير جوهرية ، ودعا الى الاهتمام بالأولى وتجاوز الأخرى .

ثالث وعشرون : لا يرى الاسلام في مفهوم الإيمان شيئاً مضاداً لمفهوم المعرفة ، ولا يقتصر الاسلام على مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة . بل يضيف عليه علم الوحي الذي جعل الإيمان بالغيب شرطاً أساسياً من شروط العلم ، والإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة . ولذلك فإنه لا توجد في الأدب الاسلامي ظاهرة التشاؤم واليأس والتمزق .

رابع وعشرون : إن الاسلام بالنسبة للعرب هو مصدر كيانهم ووجودهم . فقد خلق الاسلام العرب خلقاً جديداً . وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر ، وليس على أساس الجنس والعرق ، وكان لهم السور المنيع الذي ردّ عنهم الأعداء وحطم الغزاة ، ولقد انتقل العرب بالاسلام الى المجال الدولي . ولذلك فإن موقف العرب من الاسلام يختلف عن موقف القوميات الأوربية من دينها وعقيدتها . والاسلام معارض لموجة العنصرية وإعلاء السلالات ، داعٍ الى الأخوة البشرية .

خامس وعشرون : إن تمجيد العقل وتقديسه واتخاذه سبيلاً وحيداً للمعرفة ليس نظرية أصيلة في مفهوم الاسلام ، الذي يقيم منهج المعرفة على العقل والقلب معاً .

سادس وعشرون : تتفق الثقافات على أسماء القيم الانسانية . ولكنها تختلف في تفسيرها ، فالحرية والعدل والأخلاق والمعرفة والسلام والحرب . كل

هذه القيم لها في كل فكر مفهومٌ متميز ، ونظرة الاسلام لهذه القيم نظرة متكاملة جامعة .

سابع وعشرون : أبرز مظاهر اصالة الفكر الاسلامي إنما يتمثل في أنه يرفض كل عنصر غريب عليه . ومن هنا تخطىء النظرية القائلة بتلقيح الفكر الاسلامي ، وللاسلام ذاتية لها من عوامل الثبات ما يكفل لها استمرار العطاء والتلقي على مدى العصور ومع اختلاف البيئات مع سماحة الاختلاف في الفروع ولها قدرة الامتصاص بما يزيدها قوة ، ولا يخرجها عن اصالتها .

أنور الجندي